حولية كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية

العدد الثالث عشر

١٤١١هـ / ١٩٩٠م

حولية كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية

العدد الثالث عشر

١٤١١هـ / ١٩٩٠م

حولية تصدر عن
كلية الانسانيات والعلوم الاجتماعية
بجامعة قطر

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

صدق الله العظيم

بيانات حول النشر في حولية كلية الانسانيات

١ - ترحب الحولية بالأبحاث التي لها صلة بتخصص كلية الإنسانيات وتولي الاهتمام بالموضوعات التي لها صلة بالخليج والجزيرة العربية ، وقد يقع الاختيار على أبحاث في تخصصات أخرى لها صلة بتخصصات المجلة .

٢ - تنشر حولية كلية الإنسانيات البحوث العلمية الأصيلة التي تتوافر فيها شروط البحث ، في الإحاطة والاستقصاء وأسلوب البحث العلمي وخطواته ، والأمانة العلمية ، في الإشارة إلى الأفكار وذكر المراجع والمصادر ، ولا يلتفت إلى المقالات الوصفية والإنشائية ، ويتقيد مقدمو البحوث بالتسميات والحواشي والمراجع والرموز ، وذلك بالطريقة المتعارف عليها عربياً وعالمياً .

٣ - يشترط في البحث ألا يكون قد نشر في أي مكان آخر ولا يكون جزءاً من كتاب منشور . والبحث المقبول للنشر يرفق بوثيقة تعهد من صاحب البحث بعدم نشره في مكان آخر .

٤ - تتلقى الحولية البحوث للنشر من داخل جامعة قطر ومن خارجها من الجامعات والمؤسسات العلمية الشقيقة والصديقة باللغة العربية والإنجليزية .

٥ - يقدم البحث مكتوباً على الآلة الكاتبة بنسختين وألا يقل حجم البحث عن ١٥ صفحة وألا يزيد عن أربعين صفحة كوارتر (٢٧×٢١سم) أو ثلاثين صفحة فلوسكاب (٣٢×٢١سم) .

٦ - تقدم الرسوم والأشكال والخرائط مرسومة بالحبر (الصيني) على ورق مصقول أو ورق شفاف Tracing Paper ويراعى في مساحتها ألا تزيد على مساحة المجلة طولاً وعرضاً .

أما الصور الفوتوغرافية فتكون واضحة المعالم ومقدمة على ورق مصقول ويحجم البطاقة البريدية .

٧ - يعطى صاحب البحث المنشور مكافأة مالية تحددها جامعة قطر مع ٢٠ فصلة (مستخرج) من بحثه المنشور .

٨ - البحث المقبول للنشر يأخذ دوره للنشر سواء في أول عدد يصدر أو الأعداد التي تليه .

٩ - تعرض البحوث المقدمة على خبير متخصص سواء من داخل جامعة قطر أو من خارجها ويكون رأي الخبير ملزماً كما يبقى إسم الباحث وإسم الخبير مكتومين .

١٠ - الأبحاث والمواد التي ترسل إلى الحولية لا تعاد ولا تسترد سواء أنشرت أم لم تنشر .

١١ - ما ينشر في الحولية يعبر عن وجهة نظر صاحبه ولا يعبر بالضرورة عن وجهة نظر الحولية .

١٢ - ترتب الأبحاث عند النشر وفق اعتبارات فنية لا علاقة لها بمكانة البحث أو الباحث .

١٣ - توجه الخطابات والمراسلات باسم رئيس التحرير الأستاذ الدكتور - فتح الله خليف رئيس قسم الفلسفة - جامعة قطر ص . ب : ٢٧١٣ - الدوحة - دولة قطر .

فهرس الحولية

مرآة الروح
بين النزعة الرومانسية والاستجابة الواقعية

الدكتور محمد عبد الرحيم كافود
عميد شئون الطلاب

عندما يريد الباحث أو الدارس ان يتناول شاعرا معينا او عملا فنيا بالدراسة فانه يحار في المقاييس والمعايير التي يمكن من خلالها ان يقيم العمل الفني، او الاسلوب الذي يقدم من خلاله هذا العمل إلى القراء، خاصة اذا كان هذا العمل باكورة انتاج الشاعر وهو حديث التجربة، وبحاجة إلى التشجيع وتعريف القراء بنتاجه. وهنا - غالبا - يتم التركيز على العرض وابراز الجوانب الجمالية في العمل الفني. أما في حالة الدراسة والتقييم فإن الدارس بحاجة إلى تخطى هذا العرض العام، والوقوف عند الجوانب الايجابية والسلبية في العمل الفني، وفي اعتقادي أن هذا الاتجاه ربما يكون اكثر فائدة للمبدع والمتلقي.

وكان قد سبقني بعض الزملاء إلى عرض ديوان (مرآة الروح) للشاعر الشاب محمد خليفة العطية، واذكر منهم على سبيل المثال الشاعر والناقد حسن توفيق، والاستاذ الدكتور ماهر حسن فهمي والدكتور سليم سعيد وغيرهم حيث عرضوا بصورة مجملة إلى ديوان الشاعر مشيرين الى أهم الملامح والسمات الفنية التي برزت في ديوان مرآة الروح. ولذلك رأيت أن أنحو منحى آخر في تناول هذا الديوان، وهو أن أقف وقفة تأن ودراسة لديوان العطية، ولذلك تأخرت هذه الدراسة عن موعد صدور هذا الديوان رغم الحاح ومتابعة الزميل حسن توفيق لي بانجاز هذه الدراسة. وديوان مرآة الروح ينقسم إلى قسمين من حيث موضوعات او مضامين قصائده: ففي القسم الأول من

الديوان نلتقى بمجموعة من القصائد الوجدانية تمثل الشعر العاطفي الذاتي، وتدور موضوعاتها حول الشكوى والألم، والغزل. ونغمة الحزن والتشاؤم في شعره العاطفي تنشر ظلالها في معظم قصائد هذا القسم من الديوان. حيث يقف الشاعر طويلا ازاء مشاعره من خلال النزعة الوجدانية المسيطرة على مشاعره واحاسيسه. وحين نقف عند موضوعاته الغزلية، فإننا نلاحظ عليها هذه الصورة الحزينة الشاكية الباكية المتعطشة إلى اللقاء. ولكن ما هي صورة المرأة المحبوبة عند الشاعر؟ وهل هناك علاقة بين الصورة (المادية) الجسدية التي يرسمها الشاعر وبين التجربة العاطفية؟.

وقبل ان نعرض لنماذج من غزليات (العطية) لابد ان نشير بايجاز إلى أن الغزل عند البعض قد لا يكون مقصوداً لذاته وإنما يتخذه هذا البعض وسيلة للتعبير عن معاناة وجدانية يعيشها الشاعر فتصبح المرأة عنصراً من عناصر التعبير عن هذه التجربة، أو رمزاً للتعبير عن معاناة الشاعر، أي أنه لا توجد تجربة حب حقيقية.

وهناك نماذج كثيرة في الشعر العربي قديمه وحديثه من هذا النوع، ولا نقصد هنا ذلك النوع من الغزل المقصود لذاته، والذي يتفاوت فيه الشعراء سمواً أو هبوطاً، حسب حظوظهم أو قدراتهم من تناول الموضوع، واستيعاب الموقف من الناحية الفنية، وصدق التجربة. وانما الذي نقصده ذلك الغزل الذي يتخذ من المرأة رافدا من روافد التجربة الشعرية، فيبث من خلال هذه المعاناة لواعج الاسى والشكوى. وهذه ظاهرة برزت بوضوح عند شعراء الرومانسية، وبالذات عند شعراء المهجر حيث يكون الغزل ومناجاة المحبوبة وسيلة للشكوى وبث لواعج الآسى والحزن والألم الذي يعانيه الشاعر من الواقع المعاش.

ومن خلال تتبعنا لموضوعات الغزل عند الشاعر محمد العطية في ديوانه (مرآة الروح) نجد أن شعره الغزلي لا يخرج عن هذا الاتجاه، حيث ان الغزل عنده وسيلة إلى بث لواعج الحزن والألم والشكوى، وإلى جانب أن هذا النوع من الغزل كما ذكرنا مذهب شعرى معروف فى شعرنا العربي بالذات عند ذوى الاتجاه الرومانسي. فإننا نضيف إلى ذلك أن شعر الغزل كتجربة حقيقية والمرأة كنموذج واقعي يصعب بروزه في مجتمع محافظ كالمجتمعات الخليجية بصفة خاصة، فبحكم صغر هذه المجتمعات

والتقاليد العربية الاسلامية المحافظة يصعب أن تتبلور أو تبرز نماذج لتجارب حب حقيقية في صورة قصائد غزلية منشورة. من هذا المنطلق يجب أن ننظر إلى غزليات الشاعر في ديوانه.

ونعود إلى السؤال الذي أثرناه من قبل وهو عن صورة المرأة عند الشاعر فنجد أن الصورة الجسدية المادية تكاد تختفي نهائيا، وتظل صورة المرأة الغائبة كذكرى تنير خيال الشاعر فيبثها حزنه وشوقه، وحرمانه وتعطشه لها. أما المرأة نفسها فهي غائبة عند الشاعر من الناحية الجسدية، والعاطفية حيث لا تجاوب معه. فالحديث دائماً من جانب واحد لا نجد للطرف الآخر اي وجود. وهذه ظاهرة واضحة عند العديد من الشعراء كالشاعر عبدالرحمن المعاودة والشاعر مبارك بن سيف، والشاعر الشيخ علي بن سعود آل ثاني وغيرهم. وكما أشرنا من قبل أن ذلك يعود إلى طبيعة وتحكم القيم الاجتماعية المحافظة. ومن هنا فانه يمكننا القول ان الصورة التجريدية للمرأة هي المحور البارز في الكثير من قصائد محمد العطية.

ففي قصيدة خلي البال(١) . نجد ان الشاعر يناجي فتاة مجهولة المعالم، يبثها الشاعر شكواه وحنينه وعتابه :

ياخلي البـــال مـا أدنـــاك مني	هل سمعت النـوح فاستهـواك فني
لا تلمني إن أرقـت اليـوم دمـعي	أرقتنـــي نائبـــات لي تغنـــي
فهي تنـأى عن فـؤادي حين تدنـو	وهي تدنـو إن سـباك البعـد مني
من صدى الانفاس نادى صوت حبي	ياحبيبـي أين أنـت اليـــوم عنـــي
... ...	... ...
أنـت تبـدو لي خيـــالاً لخيـــال	واقعـــاً كنـــت فمـاذا الآن تعنـــي
كنـــت طيفـــاً بخيـــالي تتـــوارى	ثـم تبـــدو في الـرؤى من غيـر إذن

ويمكن أن نقول في هذه القصيدة أو غيرها من قصائده الغزلية أن فتور العاطفة في مثل هذه القصائد قد افقدها الصور الفنية والايحاء فأصبحت النبرة الخطابية

---

١ - مرآة الروح، ص ٣١.

والتعبير المباشر هي السمة البارزة. لأن الشعر عندما يفتقد الدفقات الشعورية وتخبو العاطفة طبيعي أن يلجأ الشاعر إلى وصف الجمل موسيقياً، وإن كانت بعض الأبيات في القصيدة تتسم بشيء من الرقة العاطفية، وسلاسة الصياغة كقوله :

من صدى الأنفاس نادى صوت حبي ياحبيبي أين أنت اليوم عني

أو قوله :

ياخلي البال ما أدناك مني هل سمعت النوح فاستهواك فني

إلا أن القصيدة بصفة عامة كما ذكرنا عارية من التدفق العاطفي والصور الفنية، والايحاء الشعري، لان الشاعر لا يعبر عن تجربة وجدانية منفعلة بالموقف. ويمكن أن نستشف أبعاد الموقف في تجربة الشاعر هذه من خلال البيتين الأخيرين :

كنت طيفاً بخيالي تتوارى ثم تبدو في الرؤى من غير إذن
أنت تبدو لي خيالاً لخيال واقعا كنت فماذا الآن تعني

ودعك من عبارة الشاعر قوله: (واقعا كنت) فهذه دعوى شعرية مفتعلة نلمسها في شعر العديد من الشعراء الذين يكون الغزل عندهم عنصرا للتنويع في موضوعاتهم الشعرية فحسب أي أن الموضوع صناعة شعرية في هذا الفن.

واذا وقفنا عند قصيدة (جذور) وهي غزلية ويمكن أن تكون أفضل غزليات الشاعر فإننا نجد أن روح التكلف والافتعال فيها تغلب أيضاً على تلك الومضات الشعرية في القصيدة. وإنْ كنت أتحفظ على هذا التنويع أو التقسيم الذي أقوم به في تناولي لهذه القصائد، لأن العمل الفني وحدة فنية متكاملة أي أن التجربة لا تتجزأ.. ولكني تجاوزاً أقف عند بعض الملامح والأبيات الشعرية المشرقة لأن زميلنا الشاعر محمد العطية لازال في بداية طريقه ومثل هذه الملاحظات ربما تكون أكثر فائدة لمسيرته الفنية. نعود إلى قصيدته جذور التي يقول فيها :

اني اجتثثت جذورك من قلبي السالي الخلي
وقتلت في نفسي الشعور بأنك كالروح لي*

---

* الكاف في (بأنك) بحاجة إلى اشباع لكي يستقيم الوزن.

ما عـدت كالـدر النفيـس لـدى المحار المقفـل
إن الـدروب تشـوكت إلا طريقـك فـارحـلي
أحـلامـك الهيمى تهـاوى فـوق جفـن مسـدل
وسـرابك الظامي يمـوت على زلال الجـدول

... ...

إني سكنت بغابـة النسيـان روحـا هاربـة
تستقطب الـذكرى ولكن كالايـادي الغاضبـة
أرأيـت أشرعـة تشـد على صـوار ذائبـة
أرأيـت أفئـدة تقـد على أمـان كاذبـة
تلك الحيـاة وذاكم ثمـن الزمـان المهمـل

... ...

أواه لـو تـدرين مـا أقسى جراحـات المحـب
في قبضة الحرمان تبدى ظالما من غير قلب
في ذاته فيض الشعور وظلمة قسطاس حب
يمضي كما يمضي السحاب بلا مسافات ودرب
حيـث الحنيـن وغربـة الأمـل البعيـد المنـزل

... ...

إني عرفتـك لا شـعور ولا فـؤاد ولا حنيـن
فعلمت أني كالسراب على هجيرك مستكين
وجهلت في الثغر الضحوك كآبة القلب الحزين
حتى مضيت بهاجس الصدر القنوط المثقل(٢)

ورغم ان هذه القصيدة الغزلية أفضل من سابقتها الا ان التفكك وعدم الترابط أيضا يجهض تلك الومضات الشعرية التي برزت في المقطوعة الثانية (إني سكنت

---

٢ – مرآة الروح، ص ٣١.

بغابة النسيان روحاً هاربة). ومن ثم يبدو البناء اللغوي أكثر ترابطا وانسجاما في هذه المقطوعة، منه في بقية القصيدة. ولعل فتور العاطفة واختفاء التجربة هو الذي دفع الشاعر إلى تصيد الألفاظ، والتحايل على تركيب وبناء الجمل مما أدى إلى هذا التفكك في بعض أبيات القصيدة، مثل قوله: (وقتلت في نفسي الشعور بأنك كالروح لي)، فحرف الجر (الباء) هذا مقحمة بل أن الجملة التي بعدها اصبحت مخاصمة لما قبلها.. وانظر إلى هذا الاضطراب في قوله: (إن الدروب تشوكت إلا طريقك فارحلي).. فالشاعر يريد ان يقول لصحابته إن الدروب تشوكت وسدت في وجهه إلا دربها هي.. إذن لماذا يأمرها بالرحيل بعد هذا الاستثناء، حيث ان النتيجة التي كان يجب ان تترتب على ما بعد (إلا) أن يقول لها قفي وخذيني معك..! مع أن الشاعر من مطلع القصيدة يعلن أنه قد أجتث جذور حبها من قلبه ومن ثم فإن هذا الاستثناء لطريقها من الشوك في غير محله، وقل مثل هذا بالنسبة لعلاقة البيت الثاني بالبيت الاول في المقطوعة الأخيرة حيث العلاقة معدومة، في حين أن العطف بالفاء هو الذي أدى إلى هذا الاضطراب حيث ان البيت الثاني لا يقع جواباً أو جزاء للبيت الأول فالرابط المعنوي بينهما معدوم فكان العطف بالواو أجدى في هذا الموضع.

إن قصائد الغزل عند الشاعر (العطية) في مرآة الروح هي أضعف قصائد الديوان من الناحية الفنية، والسبب كما ذكرنا في أن هذه الاشعار لم تصدر عن تجربة صادقة، ولذا لا يتجاوز الانطباع فيها ذلك المظهر الخارجي لدلالة الالفاظ، حيث تصبح مفردات الحب ألفاظ بدلالتها الوصفية.

(أواه لو تدرين ما أقسى جراحات المحب).

وكما يقول الدكتور/ إحسان عباس (ليس التعبير عن العاطفة هو ان تصفها... ولذلك كان استعمال «الصفة» في الشعر حيث يجب التعبير أمراً خطراً، فإذا أردت أن تعبر عن شيء مرعب ووصفته بأنه (مخيف) كان هذا مجرد وصف لا تعبير والشاعر الحق في لحظات الشعر الحق لا يسمى العواطف التي يعبر عنها[٢] .

ولعل قصيدته الموسومة بـ (نور) تبدو فيها ملامح المرأة في صورة واقعية ملموسة

---

٢ - فن الشعر، د . إحسان عباس، ص ٣٢.

إلى حد ما. أي أن الشاعر خرج من إطار مناجاة المرأة (المثال) كأنثى نكرة مجهولة يبثها لواعج الاسى والفراق إلى صورة امرأة تقع في دائرة الواقع من حيث استجابة عناصره، فاللقاء، وذكر الاسم، وتبادل الحديث، تخرج رؤية الشاعر من المرأة المثال أو النموذج، إلى القرب من واقعية الموقف والتجربة.

أحسك يانور في كل نور	يضيء النهار به والسحر
وإن كنت غيبا بعلمي فمنه	حديثك الف حبيب ظهر
... ...	... ...
الفتك سمعا وقلبا يرق	به الشوق والعين كم تنتظر
فلا تمنحيني بعيد الوصال	عذاب الصدود فهذا مضر
ولا تسلبيني جمال الأماني	وقلبي هش فقد ينكسر(٤)

وتقف عند عبارة «فهذا مضر» فهي تخرج من إطار الأسلوب الشعرى وتكون أقرب إلى الأسلوب التقريرى في النثر. وكذلك قوله (فقد ينكسر) ففي مثل هذا الموضع الاغراق والمبالغة أجدى، و(قد) هنا حصنت القلب وأجهضت صوت العاطفة، وليس هذا موضعها.

واذا انتقلنا مع الشاعر ومن خلال ديوانه إلى الشعر الوجداني الذي يتمثل في مجموعة لا بأس بها من قصائد الديوان في القسم الأول حيث يزاوج فيه الشاعر بين غزلياته وبين الوجدانيات. والشاعر هنا اكثر توفيقا في الوجدانيات منه في غزلياته.

ولكن بيدو أن الشاعر متأثر بالنزعة الرومانسية بصورة واضحة، حيث تتسم قصائده بالألم والحزن والشكوى استمع إليه في قصيدة (الغد المجهول) حيث يبلغ التشاؤم واليأس مداه :

أعيذك أن تطيل الليل سهدا	أقلبي فالجوى أضناه مدا
وحسبك من جراحك نائمات	على وله نزفن الليل وجدا
بلغن الصبح في أكفان ليلى	وكان الصبح في عيني لحدا
فقد أطوى الزمان بغير علم	على أمل أذاب القلب جهدا

---

٤ - مرآة الروح، ص ٣٢.

وبين مناي تمرق عابسات ظنوني إذ تهد الفكر هدا
بأي منى ستحلم يافؤادي ودرب الحلم بالاوهام سدا
سيسلبك التأمل كل جهد ويمنعك التسوف أن تجدا
أقلبي لا تنفر عنك يأسي فبعض اليأس للآلام أجدى
ومد يدي إلى غيب غريب يصافحني فقد أغشاه صدا
فمن يدري بأي غد سأمضي وأي غد إليه الغيب أدى
وهل أوي إلى يوم وديع فإني هبت أن ألقاه ندا
فناديت الحياة بملء شوقي وعيني حسبها الخفقان ودا
هنالك مات في عيني خيالي ورجع الصوت أحجم أن يردا
فهام على صدى الزفرات قلبي يشيعه لظى العبرات ودا
فقلت معللا نفسي ببؤس ألذ العيش ما ألقاه جدا(٥)

ففي هذه القصيدة يسمو الشاعر بفنه، وتتحول القصيدة من صياغة ووصف مباشر إلى صور من التعبير عن تجربة ومعاناة يعيشها الشاعر فمن خلال الحوار الذي يدور بين الشاعر وقلبه، نجد أن الفكرة تنمو شيئا فشيئا ومحورها اليأس والألم الذي يسيطر على الشاعر حتى يفضي به في النهاية إلى أن يتخلى عنه خياله الذي كان يحاول من خلاله أن يخترق حاجز اليأس والالم:

هنالك مات في عيني خيالي ورجع الصوت أحجم أن يردا

وقلبه هو الآخر يتخلى عنه، وكان رفيق دربه، ولكن في النهاية يتركه وحيداً لبؤسه وآلامه :

فهام على صدى الزفرات قلبي يشيعه لظى العبرات ردا
فقلت معللا نفسي ببؤس ألذ العيش ما ألقاه جدا

فهذه القصيدة تتسم بتجربة وجدانية واضحة المعالم عند الشاعر، تسيطر عليها عاطفة متجانسة. تنمو فيها التجربة شيئا فشيئا حتى يصل بها الشاعر إلى النتيجة

---

٥ – مرآة الروح، ص ٤٠.

التي يريد أن ينقلها إلينا.

وقد جاءت الألفاظ والصور معبرة عن نوع التجربة الحزينة التي سيطرت على عاطفة الشاعر. وهي مفردات رومانسية أي يكثر تداولها في قاموس الشعراء الرومانسيين مثل (الليل، السهد، الجوى، أضناه، الجراح، النزيف، الأكفان، اللحد، الاوهام، اليأس..).

أما الصور الفنية فقد جاءت متجانسة ونوع التجربة عند الشاعر، (فالجراح نائمات، وينزفن الليل وجداً، وهن يبلغن الصبح في أكفان ليله، والظنون تمرق عابسات، والخيال يموت..). وتشخيص الخيال، ورجع الصوت، ولظى العبرات وهو يشيع القلب، كلها صور حية جاءت ثرية بدفقات شعورية تجسد حجم المعاناة عند الشاعر.

والحقيقة أن الكثير من شعره الوجداني يتسم بقدر من الشفافية والايحاء الشعرى والصور الفنية التي تنم عن موهبة شعرية خاصة عندما تكون القصيدة نابعة من تجربة ومعاناة فالشعر الوجداني بالذات مصدره الأساسي المعاناة الذاتية. وإذا كان الشعر صدى النفس وترجمان الشعور، ومصدره معاناة ذاتية، فان هذا المفهوم هو أكثر التصاقا بالشعر الوجداني، لأنه فيض العواطف الوجدانية الفردية. ولذا فإن الشاعر لن يكون موفقا في هذا النوع من الشعر مهما كانت مقدرته الفنية إذا لم تكن هناك معاناة حقيقية. فالشعر مرآة - بالذات الوجداني - لنفس صاحبه، فمادته الأولى عواطفه ومشاعره، والاستبطان الذاتي هو محور هذا النوع من الشعر، بل هو العنصر الأساسي فيه. ومن هنا تصبح التجربة الذاتية للمعاناة ضرورة من ضرورات هذا النوع من الشعر. وهذا لا يعني أن الشعر بصفه عامة لا يحتاج إلى معاناة وصدق تجربة. وإنما الذي نعنيه أن الشعر الوجداني الذي يصور الالم والحزن، ويبث لواعج الاسى والشكوى لابد أن تكون هذه العواطف نابعة من معاناة صادقة أو تجربة استوعبت أبعاد الموقف فعبرت بلمسة شعورية متفاعلة مع الموقف. ولعل قصيدته (مرآة الروح) تعبر عن لمسات شعورية ونفسيه يعيشها الشاعر فانعكست هذه المعاناة من خلال صورة معبرة عن الموقف الذي يعيشه :

ليل الخريف وزفرة السأم إيحاء ذاكرة بلا نغم
لله نفسي كم أغر بها بين الحياة ومورد العدم
الفيت راحلتي خطى زمن فركبتها ضرباً من الهمم
فاذا الدهور الباليات رؤى تجتازني موتى إلى الظلم
كم كنت حلما في عيون غدي لما ظننت بأنه حلمي
ليل هزيل واهن القدم في غربة ظمأي إلى الالم
وهواجس سكرى ومدفأة محمومة الأنفاس كالسقم
رحماك ياقلبي فقد نزفت مني الجروح وأنت كل دمي
أو كلما أيقظت جارحة وسنى من النسيان لم تنم
بك أمنيات جد طامحة والعجز والحرمان ملء فمي(٦)

وهنا نجد أن الانفعال النفسي قد حرك لدى الشاعر بواعث تجربة معبرة صهرت الألفاظ والصور فجاءت سلسة متجانسة مع نوع التجربة التي عايشها الشاعر، ومن هنا حدث هذا التلاحم والتناغم بين عنوان القصيدة ومضمونها وصورها، ومفرداتها وبين نفسية الشاعر. فالمرآة إيحاء بانعكاس الصورة النفسية للشاعر، والزمن بأبعاده المؤثرة في حياة البشر أصبح الشعراء مأخوذين به على مر التاريخ وهو مصدر الهام وقلق في الوقت نفسه بما يثيره ماضياً، وواقعاً، ومستقبلاً، من شجى أو حزن أو تذمر في نفوس الشعراء. فطال وقوفهم عنده لأن كل ما يصادفه الإنسان في حياته يقع في إطار الزمن ولذلك كثرت شكواهم من الزمن كقول عمرو بن قميئة(٧) :

رمتني بنات الدهر من حيث لا ادري فكيف بمن يرمي وليس برام
وأفنى وما أفني من الدهر ليلة ولم يفن ما أفنيت سلك نظام
وأهلكني تأميل يوم وليلة وتأميل عام بعد ذاك وعام

وهكذا تنعكس صورة الزمن على نفسية الشاعر (العطية) فتثير في نفسه القلق

---

٦ – مرآة الروح، ص ٦١

٧ – الزمن عند الشعراء العرب قبل الاسلام، عبدالله الصائغ، ص ٦٤.

والسأم والشكوى ففي هذه المقطوعة القصيرة تتكرر مفردات الزمن ومشتقاته عنده مثل (الزمن، الليل، الخريف، ذاكرة، العدم، الدهر، الدنيا، النسيان، غدا، الهرم،...). ولاشك أن هذه المفردات توحي بعمق المعاناة، ونوع التجربة وهي تجربة حزينة، ولذلك فإن مفرداته توحي وتعمق هذه التجربة كالليل والخريف، والعدم، والبلى، والموتى، والظلم، والهواجس...).

أما الصور الفنية فانها جاءت معبرة عن نوعية التجربة، والعاطفة الحزينة عند الشاعر كانت لها السيطرة على الصورة، والصورة في الدراسات الحديثة هي التي تسهم بل هي العنصر الهام في الوحدة العضوية للقصيدة، كما أن الصورة الشعرية مصدر تأثير[٨] . فأنظر إلى هذه الصورة التي يرسمها لحياته وموقفه من الزمن في قوله :

الفيت راحلتي خطى زمن   فركبتها ضربا من الهمم

بل أن لفظ راحلة فيه ايحاء بالتعب والارهاق، وطول الطريق، لما ارتبطت به هذه اللفظة من دلالة في وجدان الإنسان العربي، حيث تتجاوز اللفظة المدلول المنطقي لتثير في نفس السامع أبعادا نفسية وعاطفية، بل هي شحنة من الذكريات والأشجان تتدفق من دلالتها. فالراحلة وما لها من أهمية في حياة الانسان العربي كوسيلة لتنقلاته، كانت تقترن بها المتاعب والصعوبات التي يواجهها المسافر، وكانت الراحلة تحمل وتشارك الشاعر همومه وما يلاقيه من عناء ومشقة، حتى أصبحت لفظة (الراحلة) عنوان السفر ورمز المتاعب والعناء.. فالخلفية التاريخية التي يحملها الوجدان العربي عن الراحلة تعمق وتجسد المعاناة التي يريد الشاعر أن يعبر عنها. حيث أن للدلالة التاريخية، أو الاسطورية وقعها في الاثارة وتجسيد المعنى، ووسيلة لربط المتلقي ومعايشته للتجربة التي عاشها الشاعر، لأن هناك ثمة مشاعر وأحاسيس ترقد وراء هذه الألفاظ لأنها تحمل تجارب خاصة[٩] .

وبإيجاز يمكن أن نقول ان الصورة في (راحلتي خطى زمن) تكثف عمق المعاناة

---

٨ - الصورة بين البلاغة والنقد، د . احمد بسام ساعي، ص ٣٦.

٩ - أنظر حوهذا الموضوع، قضايا النقد الادبي، د . بدوي طبانه، ص ١٧٧.

عند الشاعر. وتأتي الصورة الثانية في البيت الذي يليه لتكمل أبعاد الصورة الاولى في تصوير بطيء وقع الزمن في حياة الشاعر :

فإذا الدهور الباليات رؤى   تجتازني موتى إلى الظلم

فانظر كيف أتي بصيغة الجمع (الدهور) للايحاء بطول وثقل الزمن ثم كيف وصفها بالباليات، والموتى، وتجتازه إلى أين؟ إلى الظلمات. ولاشك أن تجانس الصور وتوحدها يدل على أن مصدرها عاطفة صادقة. ثم أنظر إلى الصورة في البيت السادس:

ليل هزيل واهن القدم   في غربة ظمأى إلى الالم

فالليل هزيل واهن القدم، فضعف القدم إيحاء ببطيء السير، أليست هذه الصورة جزء لا يتجزأ من الصور السابقة في تجسيم وتجسيد فكرة الزمن عند الشاعر. أما الصور الأخرى والألفاظ فانها كلها تتآلف وتتلاحم في وحدة عضوية نابعة من تجربة شعورية نفسية متجانسة. فالغربة الظمأى، والهواجس السكرى، والمدفأة المحمومة الأنفاس واللهفة العمياء، هذه الصور توحي بنوع التجربة والمعاناة التي يحملها أو يعيشها الشاعر.

والحقيقة أن الشعر الوجداني بصفة عامة هو أكثر نضجاً عند الشاعر من شعره في الموضوعات الأخرى. وكما ذكرنا أن هذا يعود إلى أن شعره الوجداني نابع من تجربة ذاتية صادقة.

من رومانسية معذبة إلى واقعية مؤلمة

أن القسم الثاني من الديوان كما صنفه الشاعر يحتوى على مجموعة من القصائد بعضها شعر مناسبات والبعض الآخر تتناول في موضوعاتها قضايا الأمة العربية والاسلامية. فرغم الجو الرومانسي الذي يسيطر على الشاعر في معظم قصائد الديوان، إلا أن الرؤية الواقعية ظلت هي الأخرى تطل برأسها بين حين وآخر مقترنة بوعي وحضور واضح في مواقف الشاعر من قضايا أمته القومية والإسلامية. فرومانسية الشاعر هنا رومانسية حزينة، ولكنها لا تستبدل واقعها الحزين بواقع مثالي، بل تسعى من خلال معاناتها أن تلج هذا الواقع، وإن كانت رؤية ظاهرية في أغلب

الأحيان، اصلاحية المنزع، لا تتعمق في أبعاد الواقع من أجل تغييره كما هو الحال بالنسبة للتوجهات الواقعية المعروفة. فالشاعر يصور الواقع مبرزا سلبياته. ومن هنا فإن مصطلح الواقعية الذي نستخدمه هنا بمفهومه العام.

ومن المعروف أن الشاعر مرآة صافية تنعكس من خلال نفسه صورة الوجود والكون، وهو رجع الصدى لنفوس الاخرين من بني قومه، بل وبني البشر، عندما تتسع نفسه ومعاناته لمعايشة الآخرين والتفاعل معهم. فالشاعر لسان حال أمته يعبر عنها بكل آمالها وأحلامها، وآلامها وأفراحها ومن هنا ينطلق شاعرنا معبراً عن معاناة أمته، ناعياً لحالها وما وصلت إليه من تردي، وتخاذل، واستسلام، وخلافات، حتى أصبحت عرضة للاخطار التي تهدد وجودها. ففي قصيدته (رسالة إلى العرب)(١٠) ينعي فيها الشاعر حال أمته :

عز المجير من الأعداء في الوطن	وأصبح العيش أوهاما من الوهن
أين الاعزة في ذا الدهر إنهم	سود الوجوه بذل فاحش نتن
أمسى العدو بأرض العرب طاغية	مستمسكا بعرى التلمود في المحن
يا آل يعرب لا الآمال ندركها	منكم ولا أمل يبدو من الزمن

ويعى شاعرنا أبعاد الموقف وسبب هذا التردي والضعف والوهن الذي أصاب أمته، وهي هذه الخلافات، والتشاجر فيما بينهم وإنشغالهم بتوافه الامور:

قد أشعل الصمت فيما بينكم جدلا	وآية الغدر لا تخلو من الفتن
لن يتقي بهواكم مبتغي دعة	فالامن بين حماكم غير مؤتمن
إن التناحر فيما بينكم عبث	ومهجة المرء موت زاهد الثمن
ياويحها القدس إذ أبدى تشردها	بصق الزمان بوجه الخزى والدرن
أآفة المجد أنتم ياسلالته	إن التقلب يدعو الفكر للشجن
كان المصير غداة الأمس يجمعنا	واليوم ندفنه في غربة الكفن
وأصبح النصر أحلاماً نشيعها	في كل رابية ضاعت من الوطن

---

١٠ - مرآة الروح، ص ٨٩.

والقصيدة رغم النبرة الخطابية، والأسلوب الحماسي في هذا النوع من الشعر، إلا أن الانفعال العاطفي بالموقف قد أخرجها إلى حد ما من إطار التقريرية.

ووسط هذه الرؤية الواقعية، أو بمعنى أدق المعايشة الواقعية - لان الرؤية لابد أن تكون نابعة من فلسفة وموقف واضح من الكون والحياة - تطغى الحيرة والتشكك في مصداقية التغيير. حيث يصطدم الشاعر مع الواقع وتصبح المعاناة والتشاؤم والالم دافعا للثورة، من خلال اتحاد الذات الداخلية للشاعر مع الذات الخارجية للانسان العربي في معاناته القومية، حيث يرتبط مصيره بمصير أمته. والشعراء هم أكثر من غيرهم قدرة على رصد هذا الواقع والتفاعل معه بسلبياته أو ايجابياته.

ففي قصيدته (الصحوة الكاذبة)[١١] يرثي الساعر حال أمته وما آلت إليه:

أفي الشـرق شمـس لنـا غائبـه	وفي الغــرب ريــح لنــا ذاهبــة
ومـا رث ثـوب الفخـار القـديم	ولكـــن أجســـاده ذائبـــــة
عيـون الأسـى ياجـراح القلوب	بأفـواهنــا غمــة صـاخبـــة
سنحملهــا ذلــة في السنيــن	ونتركهـا وصمـــة شـائبـــة
سنعلن تاريخنــا في الحيـــاة	لأجيالنـــا الحــرة الآبيـــة
فمــا نحـن إلا غبــار الزمــان	ستنهبنـا ريحـــه الغاضبـــة
ولن يرحـم العـدل عجـز الطغاة	إذا أدركتهــم يـــد العاقبـــة
حيارى الخطى ياأماني النفوس	نهيــم بآمالنـــا الخائبـــة
نفـــوس تفـــر إلى الأمنيـــات	وأخـــرى تكـر على الهاربـــة
ومـــا ذاك إلا لأن العقــــــول	ضيـاع من الصحــوة الكاذبــة

فالشاعر يتفاعل مع الواقع بروح متشائمة متمردة عليه، يغلفها اليأس والاحباط والضياع، والرغبة في الانسلاخ من هذا الواقع المؤلم. بعد أن غابت شمس أمته، وذهبت ريحها أي كناية عن روح الانهزامية والتخاذل والضعف التي تسيطر عليها. ثم ننظر إلى هذه الصورة الفنية المؤلمة التي يصور الشاعر فيها واقع أمته مقارنا بايحائية

---

١١ - مرآة الروح، ص ٩٣.

مركزة وشفافة بين ماضيها المشرق، وحاضرها المظلم.

وما رث ثوب الفخار القديم ولكن اجساده ذائبة

ثم تتوالى الصور المؤلمة المعبرة عن رؤية الشاعر لواقع الانسان العربي. حيارى الخطى، نهيم بآمالنا، نفوس تفر إلى الأمنيات، وأخرى تكر على الهاربة، وتذكرنا هذه القصيدة بالشاعر الكبير عمر أبو ريشه في عتابه وثورته، من قصيدته (حماة الضيم)[١٢] ومنها:

ما ذنب فتية إذا شبت ولم تلمح بتربته خطى احراره
تركت لها آباؤها الارث الذي يبقى مطوقها بلعنة عاره
... ...
حسبت بناء العرب ممسوك الذرى تتحطم الأحداث دون جداره
فإذا البناة على ذليل وسادها تغفو عن الشرف الذبيح وثاره

ولا نريد أن نقارن أو نقول أن الشاعر محمد العطية يترسم خطى بعض شعراء الرومانسية الذين جمعوا بين الشكوى والانين واليأس، وبين الثورة والتمرد على الواقع من أمثال أبي القاسم الشابي، والشاعر القروي وعلى محمود طه وغيرهم، فشاعرنا لازال في بداية طريقه وانما نقول أن فيه شيئا من هذه الروح فأشعاره تجمع بين روح اليأس والشكوى والانين، وبين الثورة والتمرد على الواقع وتعريته.

فالتجربة الشعرية رغم بزوغها من رحم الواقع المرفوض لدى الشاعر إلا أنها تسمو على الواقع بغاياتها النبيلة الخيرة. فرؤية الشاعر رؤية مسؤولة تتمثل دائما واقعا يحمل الحق والخير والعدالة. فالشاعر أو الفنان الحق هو باني الحياة الجديدة، ومنقذ لمجتمعه من السقوط والتردي. حيث أن الشاعر يتعمق احساسه في هذا الواقع فيدرك أبعاده وخفاياه. ولا غرابة إذا وجدنا ثورة الشاعر أحيانا تتحول إلى هجاء قاس على امته في قصيدته (بسوس الجهل)[١٣] يصور فيها الشاعر واقع أمته :

---

١٢ - ديوان عمر أبو ريشة، ص ١٧.

١٣ - مرآة الروح، ص ٩٥.

رعش الجفن وألقى حلمه إذ رأى النفس رماد الحطمة
وفؤاد نبض العقل له مسه الفكر فناجى ألمه
أيها الصبر أما من شعلة تجهض الليل شمس عرمه
صدأ القيد وصمت الموت لم يخرس السوط بأيدي الظلمة

... ...

ذاك شأن العرب إذ دب بهم حلم المجد فضلوا قيمه
وتناسوا ذات يوم أنهم نسب المجد وكانوا علمه
عبدوا التاريخ حتى حطمت لوعة الواقع يأسا صنمه
رحب التيه فما من طرق يألف التائه فيها قدمه
كبت الرأي فما من وطن يحضن الفكر ويبني الكلمة
زمن العقل تولى وانتهى وبسوس الجهل عادت نهمه
يصرع الثائر فيها نفسه بها العاقل ينفي حلمه

وعنوان القصيدة (بسوس الجهل) فيه من الايحاء، والرمز التاريخي لحرب البسوس، التي كانت وصمة في التاريخ العربي، فالشاعر يريد أن يوقظ أمته من سباتها بتذكيرها بايجابياتها وسلبياتها لعلها تتعظ.

وترتفع نغمة الانفعال السياسي ولا أقول العاطفي بصورة واضحة عند الشاعر في قصائده السياسية، لتتضاءل الصور الفنية المعبرة، ويطفى الاسلوب المباشر، ولكن تظل أدواته التعبيرية، ومفرداته في مستوى لا بأس به، عندما ننظر إليه من زاوية الشعر السياسي التقليدي.

ففي قصيدته (قدس الاسلام)[١٤] ينعي فيها الشاعر على العرب مواقفهم السلبية، وكيف ان الاطفال والنساء يتحملون عبء المسؤولية :

الذل ملء ثيابنا والعار إذ قيل في صمت الجموع ذمار
لمن السكوت دقيقة ضجت بها قدس الكماة وصوتها إعصار

---

١٤ - مرآة الروح، ص ٧٧.

قوميــة وهنـت فأين دعـاتهـا هــل مسهـم من افكهـا ادبــار
خزى العروبة أن تحارب نسوة ويلي الشجاعة في الامور صغار

وتدفع الشاعر أحياناً عاطفته السياسية إلى حد القسوة على امته. ناعيا عليها مواقفها وما وصلت إليه من حالة يرثى لها :

ضاقت بنا الأرض حتى مجنا الافق فـارضنـا التيـه والاذلال والقلـق
طواهـم الصمـت حتى انهـم ذكروا قـوم نعـام اذا ما استنطقوا نهقوا
يمشون في الارض لا رأي ولا وطن كأنهـم لضـيـاع الحـق قـد خلقوا
خانـت ضمـائرهـم احـلامهم فبـدا ريـب الزمــان على اوفاهـما خــرق
ياقــوم إن الدنى امسـت منازلنــا وإننــا بحضيـض الجهـــل نلتصق
في كل منبـر علـم جهلنــا صنــم غنى على المجـد حتى كـاد ينسحق
يا أمة الصمت عن خوف وعن حزن ما ذا بآمالنـا حقـا سينطلـق[١٥]

ولكن هناك بعض القصائد في شعره السياسي - إذا جاز هذا التعبير - وهي قصائد موضوعاتها سياسية جاءت في مناسبات مختلفة مثل قصيدته في (سليمان خاطر) تحت عنوان (ألا أنك أشعلت سراجاً).. وقصيدة (طرابلس الباسلة) التي نظمها عندما هاجمت الطائرات الامريكية ليبيا عام (١٩٨٦م).

مثل هذه القصائد نجد أن الانفعال السياسي المباشر قد طغى على الانفعال العاطفي التأملي الذي يتحول فيه التعبير عن الموقف إلى نوع من التكثيف والايحاء، والدرامية، والانعتاق من الموقف الاني (المناسبة) إلى مزجها بتجربة الاديب بكل أبعادها العاطفية، ومخزونه الثقافي الذي يثرى التجربة، ومن هنا تمتزج الفكرة أو الموقف مع المشاعر والأحاسيس الذاتية مع البعد والتغريب في أبعاد الحدث، اسطورياً، أو تاريخياً، وكما يقول إيليا حاوى :

فالشاعر الحديث إذا ألم بتجربة لم يعد يكتفي بأن يلقى في ساحتها ما يتيسر له من الأفكار والمشاعر الهاربة والمولية ولا يقبل الصدفة والاتفاق في النظم.. الشاعر

١٥ - المصدر السابق، ص ١٠٧.

الحديث يدرس تجربته بل أنه يدرس عليها بالتأمل والمعاناة والثقافة كما يحتضنها زمنا طويلا في نفسه . ويتقصى في التاريخ والاسطورة والحياة والكون والمجتمع.)[١٦] .

ولذلك فإن الانفعال العاطفي الآني المرتبط بالمناسبة غالباً ما تطغى عليه النبرة الخطابية، وتتحول القصيدة إلى أسلوب الرصف المباشر للافكار، وتنطلق العاطفة الحماسية إلى تسطيح التجربة، وتراجع الصور الفنية، لان القصيدة إذا كانت وليدة لحظة انفعالية، فانها لا تخضع للتأمل والتعمق في أبعاد الموقف لتثرى هذا الموقف من تجاربها السابقة ومخزونها الثقافي، بل أن الشعر السياسي غالباً ما يتمخض عن أسلوب خطابي مباشر وإذا كان هناك إثارة عاطفية، فهي ترجع إلى كون القارىء أو المتلقي يعاني التجربة نفسها. أي مثقل بهموم واقعه. نستمع إلى الشاعر (العطية) وهو يخاطب الرئيس الامريكي (رونالد ريجان) عندما قامت الطائرات الأمريكية بقصف ليبيا :

بعقبى الدعاء الذي لا يرد وأم القوافي التي تستجد
سيصمي جبينك ذل الزمان إذا كنت منه سدى تستمد
أشيخ الطغاة سيبلى الوعيد وتبقى طرابلس منه الأشد

والحقيقة أن شعر محمد العطية يتفاوت مستواه حسب ارتباطه بتجربة الشاعر وصدق الانفعال العاطفي. فشعره في الغزل يهبط فنياً إلى مرحلة النظم والتكلف، حيث يجهد الشاعر قريحته في تصيد الألفاظ والصور، مما ينتج عنه نظماً للأفكار لا رابط بينها مثل قول الشاعر في قصيدته (وفاء) فما هو الرابط الذي يربط بين هذه الأبيات الثلاثة في القصيدة التي جاءت متتالية :

تعالى فإن إنكسار السواقي يموت به جدول قد جرى
لأني مللت احتراق الوعود بعذر له الشوق لن يغفرا
فقدسية العشق حفظ الوفاء وإلا فكل الهوى مزدرى[١٧]

---

١٦ - في النقد والأدب، إيليا حاوي، جـ ٥، ص ٨٠.

١٧ - مرآة الروح، ص ١٣.

فالبيت الثاني لا علاقة له بالأول. والبيت الثالث لا علاقة له بالثاني وإن تصدرته فاء العطف التي توحى بانها واقعة في جواب، فهي ليست جواباً (أن) التي تصدرت البيت الثاني. فهذه الهلهلة وعدم الترابط ظاهرة واضحة في بعض قصائده التي خلت من معاناة وتجربة صادقة.

في حين أنه في شعره الوجداني، ومعظم قصائده الاجتماعية أو السياسية يبلغ مستوى فنياً ينم عن موهبة تمتلك استعداداً وحساً شعرياً يبشر بموهبة شعرية واعدة.

المصادر

١ - مرآة الروح، محمد خليفة العطية، ١٩٨٩م، الدوحة - قطر.

٢ - فن الشعر، د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ط ٣.

٣ - الزمن عند الشعراء العرب قبل الإسلام، عبدالله الصائغ، وزارة الثقافة والاعلام، العراق، ١٩٨٣م.

٤ - الصورة بين البلاغة والنقد، أحمد بسام ساعى، المنارة للطباعة والنشر، سوريا، ١٩٨٤.

٥ - قضايا النقد الادبي، د . بدوي طبانة، ط ٣، القاهرة، ١٩٧١م.

٦ - ديوان عمر ابو ريشة، دار العودة، بيروت، ١٩٧١م.

٧ - في النقد الأدبي، إيليا حاوى، جـ ٥ دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨١م.

القوى العاملة في قطر
رؤية بنائية وتحليل تتبعي

د. محمد على محمد الكبيسي
عميد كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية بالإنابة.

١ - القوى العاملة في عصر ما قبل النفط :

من الطبيعي أن يعكس بناء العمالة في أي مجتمع طبيعة تكوينه الإقتصادي ونمط أسلوبه الإنتاجي. وربما كان ذلك أكثر انطباقاً على المجتمع القطري خلال تاريخه الطويل قبل اكتشاف النفط وتراكم عائداته. فلقد شكل الغوص على اللؤلؤ أهم نشاط اقتصادي مارسه سكان هذا المجتمع، وبلغ قمة ازدهاره خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين نتيجة لرواج تجارة اللؤلؤ، وزيادة الطلب عليه من قبل الأسواق العالمية. وكانت بقية النشاطات الأخرى تدور حوله وترتبط به بشكل مباشر. ولهذا فقد شكل هذا النشاط الإقتصادي ضابط إيقاع قوي للبناء الإقتصادي والإجتماعي القطري.

وإضافة إلى عوامل أخرى فقد ساهم اللؤلؤ - كنشاط اقتصادي محوري في منطقة الخليج - في تشكيل طبقية داخل المجتمع. وتضم أولى هذه الجماعات كبار تجار اللؤلؤ الذين ينتمون إلى القبائل ذات المكانة الاقتصادية والاجتماعية المتميزة. الثانية تضم الطواشين (وهم صغار التجار) الذين يقومون بشراء اللؤلؤ من السفن أثناء فترة الغوص. ثم هناك النواخذة (القباطنة) الذين يملكون غالباً سفن الغوص ويقومون

بقيادتها، وهم يشكلون ما يشبه الطبقة الوسطى من حيث الدخل أو المكانة الاجتماعية. أما الجماعة الرابعة فتضم العاملين على سفن الغوص وهم يشكلون قطاعاً كبير الحجم في المجتمع لأن السفن كانت تحتاج إلى عدد كبير منهم متنوع الوظائف (غاصة، سيوب، ... الخ)(١) . ولقد بلغ عدد العمال خلال فترة ازدهار الغوص في منطقة الخليج ٧٤٫٠٠٠ عامل يعملون ٤٥٠٠ سفينة غوص ويشتركون في مجال إنتاجي واحد، ويتمثلون قيم عمل متشابهة(٢) . وفي قطر بلغ عدد العمال حوالي ١٢٫٨٩٠ طبقاً لتقدير لوريمر في عام ١٩٠٧، فضلاً عن وجود عمالة وافدة موسمية من عرب ساحل إيران ومن بدو الإقليم العربي المتاخم للخليج.

والواقع أننا لا نملك سوى تقديرات خام عن حجم القوى العاملة في قطر خلال حقبة ما قبل النفط. فإذا كان عدد سكان قطر خلال النصف الأول من القرن العشرين (١٩٠٨-١٩٥١) قد ظل يتذبذب تذبذباً شديداً ويدور حول ٢٥٫٠٠٠ نسمة، فإن من المتوقع أن يصل مجموع القوى العاملة فيه ستة آلاف نسمة، وذلك على افتراض أن المرأة القطرية خلال حقبة ما قبل النفط كانت تمارس أيضاً بعض النشاطات الانتاجية ونضيف إلى ذلك أيضاً العمال الذين كانوا يأتون من الشاطيء الشرقي للخليج للعمل

---

(١) هناك كتابات متنوعة تتناول نمط إنتاج ما قبل النفط في مجتمعات الخليج العربية نشير هنا إلى بعضها:
- سيف مرزوق الشملان، تاريخ الغوص على اللؤلؤ في الكويت والخليج العربي، الجزء الأول، الطبعة الأولى، الكويت ١٩٧٧.
- محمد غانم الرميحي، البترول والتغير الاجتماعي في الخليج العربي، مؤسسة الوحدة للنشر والتوزيع، الكويت ١٩٧٥.
- أحمد محمد العبدالله، المكانة الاجتماعية في مجتمع الغوص، بحث مقدم إلى الحلقة الرابعة للمراكز والهيئات المهتمة بدراسات الخليج والجزيرة العربية، مركز الوثائق والدراسات، أبوظبي ١٩٧٩.
- سيف مرزوق الشملان، الغوص على اللؤلؤ في قطر، مؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية، الجزء الثاني، قطر ١٩٧٦.
- محمد رياض، الخليج والخليجيون قبل عام ١٩٣٠، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، عدد ٣٦، جامعة الكويت، الكويت ١٩٨٣.

(٢) قدر لوريمر عدد السفن بنحو ٣٥٧٧ سفينة موزعة على: الامارات ١٢١٥، قطر ٨١٧، البحرين ٩١٧، الكويت ٤٦١، والاحساء ١٦٧ سفينة. كما قدر محمد رياض (المصدر السابق ص ٢٨٤) عدد العاملين في الغوص بما يتراوح بين ٧٠ ألفاً و٩٠ ألفاً حسب عدد العاملين على السفن (٢٠-٢٥ عامل لكل سفينة).

في قطر خلال موسم الغوص، ثم يعودون بعد ذلك إلى مجتمعاتهم. ومن الضروري أن نشير هنا أيضاً إلى أن القوى العاملة في قطر خلال فترة ما قبل النفط كانت تمارس بعض الأنشطة الاقتصادية الأخرى كالصيد والنقل البحري والتجارة والصناعة الحرفية المتصلة باحتياجات الحياة اليومية[1] ، جنباً إلى جنب مع نشاط الغوص في مواسم اللؤلؤ المتعددة.

٢ - الطفرة النفطية والعمالة : حقبة النمو المتسارع :

كان لابد وأن ينقضي بعض الوقت بعد تصدير النفط القطري حتى تظهر إنعكاساته الاقتصادية وتأثيراته الاجتماعية. وعلى الرغم من أن قطر قد بدأت تتلقى عائداتها النفطية منذ سنة ١٩٥٠، إلا أن هذه العائدات كانت محدودة للغاية في بداية الأمر، فضلاً عن أن نمط توزيعها لم يكن يعكس تصورات تنموية بعيدة المدى[2] . ففي سنة ١٩٥٠ بلغت عائدات قطر من النفط مليون دولار أمريكي، ثم ارتفعت إلى ٥٠ مليون دولار في سنة ١٩٦٠ وإلى ١٢٢ مليون دولار سنة ١٩٧٠، ثم قفزت من ٦٠١ مليون دولار في سنة ١٩٧٢ إلى ٢١٣٠ مليون عام ١٩٧٤ نتيجة للظروف السياسية والعسكرية في الشرق الأوسط الناجمة عن حرب أكتوبر ١٩٧٣. ويوضح الشكل رقم (١) تطور عائدات النفط، ونستخلص من هذا أن مرحلة الخمسينات تميزت بالبطء الشديد في منحنى عائدات النفط، وهي بذلك التمهيد الفعلي للتغير الإداري والمالي والاقتصادي والسكاني الذي ميز مرحلة الستينات. فعلى سبيل المثال، تراوحت تقديرات السكان بين ٤٠ أو ٦٠ ألف عام ١٩٦٠ بينما كانت عائدات النفط قد بلغت ٥٤ مليوناً فقط.

وربما كان عقد الستينات هو بداية مرحلة التحول الاقتصادي والنمو الديموجرافي في قطر. وهي حقاً حقبة التنمية في قطر. فقد شهدت الستينات إنجازات هامة في

---

(١) انظر : محمد علي الكبيسي، التنمية الصناعية في دولة قطر، ترجمة حسن الخياط، دار المتنبي للطباعة والنشر، قطر ١٩٨٦، ص ٢٩٣.

(٢) للتعرف علي حجم العائدات النفطية ونمط توزيعها في هذه الفترة المبكرة، انظر :

Al-Kuwari, A.K. Oil Revenues in the Gulf Emirates: Patterns of Allocation and Impact on Economic Development, Bowker Publishing Company Ltd, Essex, 1978. Cahpter 6.

مجال البنية الأساسية، حيث أقيمت شبكة متطورة من الطرق، والمشروعات الأساسية في مجالات الكهرباء والماء، ونمت الخدمات الإجتماعية وعلى الأخص التعليمية والصحية على نحو كبير. وحظى التصنيع باهتمام خاص خلال الستينات على مستوى التخطيط وبعض التنفيذ. فمعظم مشروعات الصناعة الثقيلة في قطر (كالأسمنت والتكرير والصناعات البتروكيماوية) هي من نتاج الخطط الموضوعة خلال الستينات، والتي بدأت إنجازاتها خلال السبعينات(١) . وهذا يعني أن الوعي بأهمية التصنيع كان يمثل بعداً مستمراً في استراتيجية الاقتصاد القطري منذ الستينات. وفي مجال النمو الديموجرافي شهدت نهاية الستينات ظاهرة بالغة الأهمية. فللمرة الأولى بدأ منحنى عدد السكان يأخذ اتجاهاً متسارع الصعود بسبب هجرة العمالة الوافدة واتجاهات معدلات الزيادة الطبيعية للقطريين إلى الارتفاع. ولهذا فإننا نجد أن سكان قطر قد تعدوا لأول مرة رقم ١٠٠ر٠٠٠ نسمة في السنة ١٩٦٩-١٩٧٠. وعلى أية حال فيبدو أن عقد الستينات قد تميز بتوازن ملحوظ بين منحنى نمو العائدات النفطية ومنحنى نمو السكان «كما يوضحه الشكل رقم (١)».

ومع بداية عقد السبعينات نستطيع مناقشة اتجاهات النمو الإقتصادي والتغير السكاني في قطر بقدر ملحوظ من الثقة والاطمئنان، خاصة وأن سنة ١٩٧٠ قد شهدت إنجاز أول محاولة لإجراء تعداد قطري، فضلاً عن توافر بعض البيانات التي يمكن الاستعانة بها في تحليل توجهات التنمية بوجه عام. ففي سنة ١٩٧٠ بلغ مجموع الناتج المحلي القطري ٣٠٢ مليون دولار، ثم ما لبث أن تضاعف ثمان مرات في سنة ١٩٧٤ ليصل إلى ٢٤٠٣ر٣ مليون دولار وذلك في أعقاب تصحيح أسعار النفط. وواصل الناتج المحلي نموه إلى أن قارب أربعة مليارات في نهاية السبعينات(٢) (انظر الجدول رقم ١ والشكل رقم ٢).

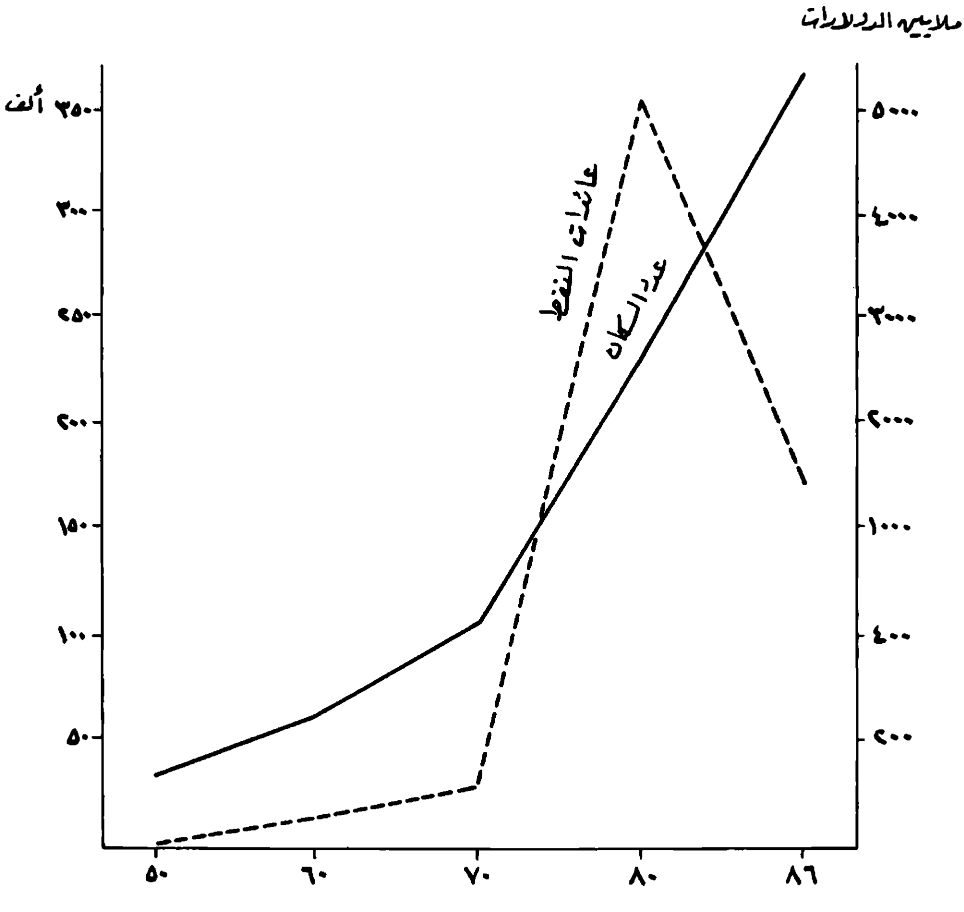
(١) انظر: محمد علي الكبيسي، سبق ذكر المصدر. ص ص ١١٥-١٢٤.

(٢) Kubursi, A., The Economics of the Arabian Gulf: A Statistical Sourcebook, Groom Helm, London, 1984. Table 2-7, P. 11.

شكل رقم (١)

تطور عائدات النفط مقارنة بتطور عدد السكان

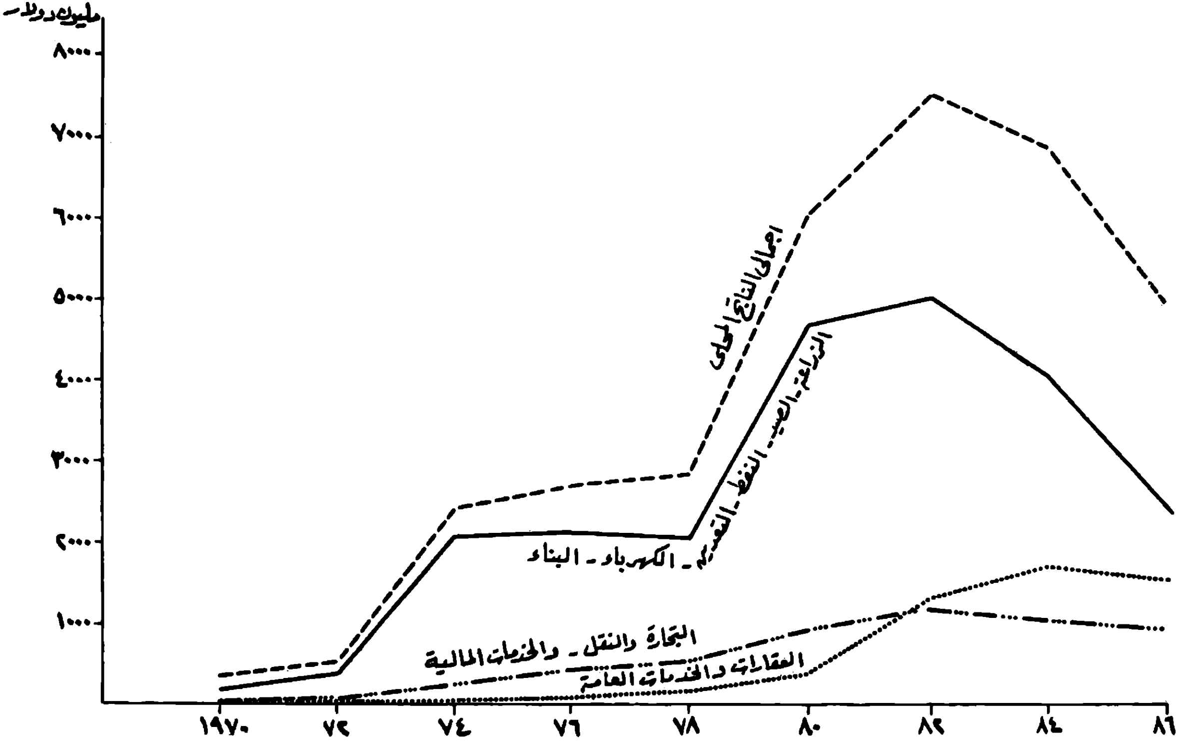
(١٩٥٠ - ١٩٨٦م)



شكل رقم (٢)

تطور الناتج القومي الاجمالي

(١٩٧٠ - ١٩٨٦)



المصدر : جدول رقم (١)

جـدول رقم (١)

الناتج المحلي الاجمالي في قطر طبقاً للقطاع الاقتصادي (١٩٧٠-١٩٨٦) بالمليون دولار أمريكي

النشاطات الاقتصادية	السنة								
	١٩٧٠*	١٩٧٢*	١٩٧٤*	١٩٧٦*	١٩٧٨*	١٩٨٠*	١٩٨٢**	١٩٨٤**	١٩٨٦**
الزراعة والصيد والثروة الحيوانية	٥ر٤	٩ر٢	١٦ر١	٢٢ر٩	٢٧ر٤	٤٥ر٥	٥١	٥٦	٦٤
النفط والتعدين والمحاجر	١٩٢ر٣	٣٢٤ر٣	١٩٣٤ر٣	١٧١٧ر٠	١٤٩١ر٥	٣٨٩٢ر٤	٤٠٩٨	٣٠٩٥	١٤٧٤
الصناعة التحويلية	٨ر٣	١٣ر٩	٢٣ر٢	٣١ر٤	٩٩ر٨	٢٣٠ر٥	٣٨٠	٥٠٠	٤٨٥
الكهرباء والغاز والماء	٣ر٩	٦ر٦	١٢ر٢	١٦ر٦	٣١ر٣	٧١ر٣	٢٤	٤٥	١٠٠
التشييد والبناء	١٩ر٢	٣٢ر٣	٧٨ر١	٣١٥ر٩	٣٧٥ر٨	٥٤٠ر٩	٥٠٠	٣٨٥	٢٨٨
المجمـوع	٢٢٩ر١	٣٨٦ر٣	٢٠٦٣ر٩	٢١٠٣ر٨	٢٠٢٥ر٨	٤٧٨٠ر٨	٥٠٥٣	٤٠٨١	٢٤١١
التجارة والمطاعم والفنادق	٢٣ر٠	٣٨ر٨	١٣١ر٥	٢١٥ر٩	٢٥٤ر٠	٥٠٠ر٢	٤٨٥	٤١١	٣١٤
النقل والتخزين والمواصلات	٢٢ر٣	٣٧ر٦	٧٠ر٩	١٠٤ر٩	١٣٠ر٢	٢٠٥ر٢	١٢٥	١٣١	١١٢
الخدمات المالية والتأمين والبنوك	١٣ر٣	٢٢ر٤	٥٤ر٠	١٥٤ر١	١٥٧ر٢	٢٥٩ر٩	٦٣٠	٥٢٥	٥٠٣
المجمـوع	٥٨ر٦	٩٨ر٨	٢٥٦ر٤	٤٧٤ر٩	٥٤١ر٤	٩٦٥ر٣	١٢٤٠	١٠٦٧	٩٢٩
العقارات والمساكن	–	–	–	–	–	–	–	–	–
الخدمات العامة	١٣ر٥	٢٢ر٨	٧٦ر٥	١٢١ر٦	١٨٠ر٩	٣٢٩ر٤	١ر٢٩١	١٦٩٠	١٦٥٢
خدمات أخرى	١ر٤	٢ر٣	٦ر٥	٢٨ر٦	٣٥ر٩	٥٥ر٨	٢٥	٤٨	٥٥
المجمـوع	١٤ر٩	٢٥ر١	٨٣ر٠	١٥٠ر٢	٢١٦ر٨	٣٨٥ر٢	١٣١٦	١٧٣٨	١٧٠٧
جملة الناتج المحلي الإجمالي	٣٠٢ر٦	٥١٠ر٢	٢٤٠٣ر٣	٢٧٢٨ر٩	٢٧٨٤ر٠	٦١٣١ر٣	٧٦٠٩	٦٨٨٦	٥٠٤٧

المصدر :

* Kubursi, A., The Economics of the Arabian Gulf: A Statistical Sourcebook, Groom Helm, London, 1984. Table 207, P.11.

** الجهاز المركزي للاحصاء، المجموعة الاحصائية السنوية (أعوام مختلفة) رئاسة مجلس الوزراء، قطر.

وعلى الوتيرة نفسها التي ميزت عقد الستينات، استمر إرساء وتكثيف البني التحتية والخدمات في قطر في عقد السبعينات، ومعه وصل النمو السكاني بنسب عالية قد تزيد في أحيان عن ٨٪ سنوياً. وطبيعي أن يكون الجزء الأكبر من هذا النمو العالي راجعاً إلى تزايد الوافدين تلبية لاحتياجات النمو الإجتماعي الاقتصادي في دولة رفاه[١].

تحليل القوى العاملة لمرحلة الطفرة (١٩٧٠-١٩٨٠) :

ربما كان أقدم وأشمل المصادر الإحصائية التي يمكن الاعتماد عليها في عقد السبعينات هو التعداد القطري لسنة ١٩٧٠، حيث تشير بياناته إلى أن مجموع القوى العاملة في قطر قد بلغت ٤٨٫٣٩٠ شخصاً من بينهم ٤٠٫٢٢٢ شخصاً من غير القطريين (٨٣٪ مقابل ١٧٪ للقطريين) انظر ملحق رقم (١). وهناك عوامل كثيرة تبرز هذا الانخفاض في قوة العمل القطرية. فمع مطلع السبعينات لم يكن التعليم قد لعب دوراً في نمو العمالة القطرية في المجالات المختلفة، فضلاً عن أن المرأة القطرية لم تكن قد دخلت سوق العمل بأعداد ملحوظة، كما أن نسبة ملحوظة من العمالة القطرية كانت تعمل في المهن اليدوية المتصلة بالقطاعات الحديثة، وعلى الأخص في مجالات الصناعة التحويلية وصناعة النفط، بالإضافة إلى الخدمات الحكومية التي تستأثر بعدد ملحوظ من القطريين. أما الوافدين فقد انتشروا في كل النشاطات الاقتصادية تقريباً، وإن كانوا قد تركزوا بشكل أكبر في مجالات الصناعة التحويلية والبناء والتشييد، والتجارة، والخدمات العامة والخاصة. ومن الطبيعي أن تكون العمالة الوافدة على هذا القدر النوعي والكمي لتحقيق مخططات التنمية التي رسمتها قطر لعقد الستينات. ومن الطبيعي أيضاً أن تزداد العمالة الوافدة كماً ونوعاً مرة أخرى في السبعينات، عقد التنفيذ الفعلي للبناء القطري الحديث (راجع جدول رقم ٣ وشكل رقم ٣).

ويوضح جدول رقم (٢) عدة حقائق حول التوزيع المهني لجنس وجنسية القوى العاملة في قطر عام ١٩٧٠ :

---

(١) وطبقاً لبيانات تعداد ١٩٧٠ فإن عدد غير القطريين بلغ ٦٦٫٠٩٤ نسمة، بينما ارتفع عددهم في تقديرات ١٩٧٩ إلى ١٦٧٢٣٦ نسمة - أي بنسبة تبلغ ٥٩٪ و٧٩٪ من مجموع السكان على أرض قطر لسنتي ١٩٧٠ و١٩٧٩ على التوالي.

جـــدول رقم (٢)

التوزيع المئوي للقوة العاملة في قطر طبقاً للجنسية والجنس والمهنة لعام ١٩٧٠

المهنـــــــة	القطريـــــون			غير القطرييــــــن		
	ذكـور	انــاث	المجمـوع	ذكـور*	انــاث	المجمـوع
الفنيون والمهنيون ومن إليهم	٥ر٦	١٢ر٠	٥ر٩	٣ر٩	١ر٥١	٥ر٢
الإداريون ومديرو الأعمال	٢ر٦	–	٢ر٥	١ر٣	٣ر٥	١ر٣
الكتبة ومن إليهم	١٥ر١	٢١ر٣	١٥ر٦	٨ر٢	٧ر٩	٨ر٢
العاملون في البيع	٩ر١	٢ر٥	٨ر٩	٧ر٨	٠ر٨	٧ر٦
العاملون في الزراعة وصيد الأسماك	١ر٠	–	٠ر٩	٤ر٩	–	٤ر٨
العاملون في النقل	١٩ر٢	–	١٨ر٦	٧ر٥	–	٧ر٣
الحرفيون وعمال الإنتاج ومن إليهم	٣١ر٧	١ر٠	٣٠ر٦	٤٢ر٩	١ر٠	٤١ر٧
العاملون في الخدمات	١٤ر٨	٥٣ر٢	١٦ر١	١٩ر٨	٣٥ر٧	٢٠ر٣
المهن الأخرى بما فيها القوات المسلحة	٠ر٩	–	٠ر٩	٣ر٧	–	٣ر٦
المجموع	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠
الأعداد المطلقة	٧ر٨٨٤	٢٨٤	٨ر١٦٨	٣٩ر١١٣	١ر١٠٩	٤٠ر٢٢٢

المصدر :

Ministry of Overseas Development, The First Population Census of Qatar April - May 1970, Middle East Development Division, British Embassy Beirut, October 1970. Table 19.

١ - قلة واضحة في مساهمة المرأة في العمل سواء من القطريات (٥ر٣٪ من قوة العمل القطرية) أو غير القطريات (٨ر٢٪ من قوة العمل الوافدة).

٢ - تركز العمالة القطرية في تلك الفترة حول الحرف والنقل والخدمات (٦٥٪) ومشاركة ضئيلة في الادارة والمهن الفنية (٥ر٨٪ فقط) ويرد هذا إلى نقص المهارات لانخفاض التعليم والتدريب بالنسبة للقطريين. ومن هنا كانت إحدى استراتيجيات قطر خلال السبعينات هو التوجه لتقطير القيادات الإدارية وتم تحقيق ذلك بصورة مرضية في الثمانينات.

٣ - توزع شبه متعادل للوافدين على المهن المختلفة وبخاصة قطاعي عمالة الإنتاج والخدمات.

وفي مطلع الثمانينات حدث تغير كمي ونوعي مرغوب تمثل في زيادة العمالة القطرية بنحو مرتين ونصف مقارنة بأرقام ١٩٧٠. فعلى مدى عقد واحد ارتفعت العمالة القطرية من ٨١٦٨ شخصاً في سنة ١٩٧٠ إلى ١٨٫٩١٠ شخصاً في سنة ١٩٨١ (جدول رقم ٣). ولا يعود هذا النمو في حجم العمالة القطرية إلى الزيادة الطبيعية التي بدأت ترتفع بشكل ملحوظ منذ مطلع الستينات، بقدر ما يعود إلى التطور الاجتماعي الذي شهدته قطر خلال السبعينات على وجه الخصوص. فالتوسع في التعليم العام ثم إقامة جامعة قطر أسهما في تأهيل أعداد متزايدة من القطريين للدخول إلى سوق العمل. وفي هذا السياق بدأ دخول المرأة القطرية سوق العمل المحلية، بعد أن أتاحت لها الجامعة وعلى وجه الخصوص فرص الالتحاق بالمهن التعليمية. وقد يثار هنا عامل التجنيس كأحد العوامل المساهمة في نمو العمالة القطرية خلال تلك الفترة، ولكننا نعتقد أن دوره محدود في هذا المجال، خاصة وأن قانون الجنسية (قانون رقم ٢) الذي وضعته الدولة في عام ١٩٦١، وبدأت تطبيقه في عام ١٩٦٢ يعتبر :

> «القطريون هم من توطنوا في قطر قبل عام ١٣٥٠ هجرية (١٩٣٠ ميلادية) وحافظوا على إقامتهم العادية فيها.. ويكون قطرياً كل من ولد في قطر أو في الخارج، لأب قطري»[1] .

---

(١) دولة قطر، مجموعة قوانين قطر ١٩٦١-١٩٧٥، المجلد الثاني، وزارة العدل، إدارة الشئون القانونية، مطابع قطر الوطنية، قطر. ص ٧٨٣.

أما الجنسية القطرية فتمنح لعشرة أفراد من العرب كل عام لمن يقيمون في قطر لمدة عشر سنوات متتالية. أما غير العرب فتمنح لهم الجنسية بعد خمسة عشر عاماً[١]. ولو افترضنا أن الجنسية القطرية تمنح سنوياً لكل من العرب وغير العرب بنفس المعدل الذي ينص عليه القانون، فإن دور عملية التجنيس سيكون محدوداً في نمو حجم العمالة القطرية خلال السبعينات. علماً بأن هذه المادة قد ألغيت من القانون سابق الذكر في عام ١٩٦٩[٢]

أما العمالة الوافدة فقد تضاعفت بنفس الدرجة خلال عقد السبعينات. إذ ارتفع عددها من ٤٠ر٢٢٢ شخصاً في سنة ١٩٧٠ إلى ١٠٢ر٦٦٢ شخصاً في سنة ١٩٨١، بينما ظلت محافظة على ارتفاع نسبتها المئوية داخل مجموع القوى العاملة (٨٣ر٢٪ و٨٤ر٥٪ على التوالي) كإستجابة مستمرة لمتطلبات التنمية في قطر من ناحية، وللتوسع الذي شهده القطاع الخاص من ناحية أخرى. ولقد استقبلت قطر، خلال الستينات، عمالة تضم أكثر من ٦٠ر٠٠٠ شخص، استوعبتهم القطاعات الاقتصادية المختلفة وعلى الأخص قطاع الخدمات الذي استأثر بنصفهم تقريباً.

على أن توزيع كل من العمالة القطرية والوافدة على قطاعات الإنتاج الرئيسية يكشف لنا عن متغيرات في التوجه المهني للعمالة القطرية. ويوضح جدول (٣) أن العمالة القطرية في ١٩٧٠ كانت أكثر ارتباطاً بقطاعات الإنتاج المباشر، حيث بلغت ٤٠٪ من مجموعها. أما في سنة ١٩٨١ فلقد انخفضت هذه النسبة انخفاضاً كبيراً لتصبح ١١٪. وارتفعت نسبة العمالة القطرية في قطاع الخدمات كثيراً وكذلك ارتفعت نسبة العاملين في المرافق العامة من ٣٪ إلى ١٦٪. ولا شك أن ميل العمالة القطرية إلى التركز في قطاع الخدمات هو أحد الملامح الأساسية التي تميز حركتها خلال السبعينات. أما العمالة الوافدة فقد حافظت علي مكانتها النسبية داخل القوى العاملة طوال عقد السبعينات فهي وإن كانت قد نمت في أحجامها نمواً ملحوظاً على نحو ما رأينا قبل قليل، إلا أن هذا النمو كان امتداداً لما سبق أن حققته خلال عقد الستينات من ناحية، واستجابة لمتطلبات النمو الاقتصادي والوفرة الاقتصادية من ناحية أخرى.

---

(١) نفس المصدر السابق ص ٧٨٣.

(٢) نفس المصدر السابق ص ٧٨٨.

جـدول رقم (٣)

حجم العمالـة في قطر وتوزيعهـا على قطاعـات الإنتـاج الرئيسيـة

(١٩٧٠ - ١٩٨١)

الجنسية	١٩٧٠						١٩٨١					
	قطريون		وافدون		المجموع		قطريون		وافدون		المجموع	
القطاع	العدد	٪	العدد	٪	العدد	٪	العدد	٪	العدد	٪	العدد	٪
الانتاج المباشر	٣ر١٦٠	٣٩	٦ر٣٥١	١٦	٩ر٥١١	٢٠	٢ر٠٨٩	١١	١٣ر٧٣٢	١٣	١٥ر٨٢١	١٣
المرافق والمنافع العامة	٢٠٧	٣	٧ر٥٧٨	١٩	٧ر٧٨٥	١٦	٣ر٠٩٥	١٦	٢٢ر٨٣٠	٢٢	٢٥ر٩٢٥	٢١
الخدمات	٤ر٨٠١	٥٨	٢٦ر٢٩٣	٦٥	٣١ر٠٩٤	٦٤	١٣ر٧٢٦	٧٣	٦٦ر١٠٠	٦٥	٧٩ر٨٢٦	٦٦
المجموع	٨ر١٦٨	١٦ر٨	٤٠ر٢٢٢	٨٣ر٢	٤٨ر٣٩٠	١٠٠	١٨ر٩١٠	١٥ر٥	١٠٢ر٦٦٢	٨٤ر٥	١٢١ر٥٧٢	١٠٠

المصدر :

عدلت ونقحت من :

علي خليفة الكواري، نحو فهم أفضل لأسباب الخلل السكاني في أقطار الجزيرة العربية المنتجة للنفط، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، جامعة الكويت، الكويت ١٩٨٣. ملحق (٣ أ و ٣ ب) ص ص ١٠٧ و ١٠٨

ومن الضروري ألقاء نظرة فاحصة على طبيعة العمالة الوافدة في قطر مع مطلع الثمانينات. ويتضمن جدول رقم (٤) بيانات تكشف عن توزيع القوى العاملة على النشاطات الاقتصادية طبقاً للجنسية وذلك بالنسبة لعام ١٩٨١. وللوهلة الأولى يفرض متغير الجنسية نفسه على توزيع القوى العاملة في قطر ليشكل في نهاية الأمر «شبه جماعات عمل».

فنسبة القطريين داخل القوى العاملة في قطر لم تتجاوز ١٦٪، بينما العرب الوافدون لا يزيدون عن ذلك كثيراً، حيث تبلغ نسبتهم داخل القوى العاملة ٢٠٪. أما الأجانب الوافدون فيشكلون ما يقرب من ثلثي القوة العاملة (٦٤٪). ويميل القطريون إلى التركز في نشاطات اقتصادية بعينها. فهم أكثر ميلاً إلى العمل في مجالات النفط الخام والمحاجر (٣٥٪)، والكهرباء والماء (٣٢٪)، النقل والتخزين (٣٠٪)، والخدمات الحكومية (٣٠٪). والملاحظ أن هذه النشاطات الاقتصادية تتميز بطابعها الخدمي، كما أن معظمها يدخل في نطاق القطاع الاقتصادي الحديث الذي تشكل من خلال التنمية الاقتصادية التي شهدتها قطر منذ مطلع الخمسينات. وهناك ثلاثة مجالات اقتصادية لا نجد فيها للقطريين تمثيلاً واضحاً، ونعني بها الصناعة التحويلية التي لا تتجاوز فيها نسبتهم ٥٪، والتشييد والبناء (٢٪)، والخدمات الأهلية (٣٪). وسبب ذلك يعود إلى إنصراف القطريين عن العمل اليدوي والفني وبسبب قسوة العمل فيهم ورخص العمالة الآسيوية وسهولة الحصول عليها.

أما العمالة العربية الوافدة، فعلى ضآلتها، فإنها أكثر ميلاً إلى التركز في نشاطين أساسيين هما: الخدمات الحكومية (٢٨٪)، والتشييد والبناء (٢٦٪). أما تفسير الوجود العربي داخل الخدمات الحكومية فيعود إلى التوجهات العربية داخل عدد من الأجهزة الحكومية القطرية وعلى الأخص في مجال التعليم، حيث يزداد الاعتماد على العمالة العربية، وعلى الأخص الفلسطينية والأردنية والمصرية. وفضلاً عن ذلك تميل بعض المؤسسات الإدارية القطرية إلى الاعتماد بدرجة كبيرة على العمالة العربية المؤهلة.

أما الوافدون الأجانب فقد حققوا خلال عقد السبعينات نمواً سريعاً في أعدادهم داخل كل القطاعات الاقتصادية القطرية تقريباً. وفي بعض الحالات المتطرفة نجد نسبتهم داخل قطاع الخدمات الأهلية تصل إلى ٨٦٪، وهو قطاع واسع يضم نشاطات

جدول رقم (٤)

توزيع القوى العاملة في قطر على النشاطات الاقتصادية طبقاً للجنسية

(١٩٨١)

القطاع	قطريون			وافدون عرب			وافدون أجانب			المجموع		
	العدد	٪ من مجموع القطريين	٪ من المجموع العام	العدد	٪ من مجموع العرب	٪ من المجموع العام	العدد	٪ من مجموع الأجانب	٪ من المجموع العام	العدد	٪ من مجموع القطاعات	٪ من المجموع العام
الزراعة والصيد والثروة الحيوانية	٥٠٠	٢ر٦	١٧ر٠	٤٠٣	١ر٧	١٣ر٧	٢ر٠٣٦	٢ر٦	٦٩ر٣	٢ر٩٣٩	٢ر٤	١٠٠
النفط الخام والمحاجر	١ر١١٤	٥ر٩	٣٤ر٨	٨٤٠	٣ر٥	٢٦ر٣	١ر٢٤٣	١ر٦	٣٨ر٩	٣ر١٩٧	٢ر٦	١٠٠
الصناعة التحويلية	٤٧٥	٢ر٥	٤ر٩	١ر٦٠٠	٦ر٧	١٦ر٥	٧ر٦١٠	٩ر٧	٧٨ر٦	٩ر٦٨٥	٨ر٠	١٠٠
الكهرباء والماء	٢ر٧٣١	١٤ر٥	٣٢ر١	٤١٨	١ر٧	٤ر٩	٥ر٣٥٩	٦ر٨	٦٣ر٠	٨ر٥٠٨	٧ر٠	١٠٠
التشييد والبناء	٣٦٤	٢ر٠	٢ر١	٤ر٥٦١	١٩ر٢	٢٦ر٢	١٢ر٤٩٢	١٥ر٨	٧١ر٧	١٧ر٤١٧	١٤ر٣	١٠٠
التجارة	١ر٠٣٥	٥ر٤	٧ر٣	٢ر٦١٦	١١ر٠	١٨ر٥	١٠ر٤٦٤	١٣ر٣	٧٤ر٢	١٤ر١١٥	١١ر٦	١٠٠
النقل والتخزين والمواصلات	١ر٢٠٥	٦ر٣	٣٠ر٤	٢٧٦	١ر٢	٧ر٠	٢ر٤٧٥	٣ر١	٦٢ر٦	٣ر٩٥٦	٣ر٣	١٠٠
الخدمات الأهلية	٦٥١	٣ر٥	٢ر٦	٢ر٧٥٤	١١ر٦	١٠ر٩	٢١ر٧٨٥	٢٧ر٦	٨٦ر٥	٢٥ر١٩٠	٢٠ر٧	١٠٠
الخدمات الحكومية	١٠ر٨٣٥	٥٧ر٣	٢٩ر٦	١٠ر٣١٤	٤٣ر٤	٢٨ر٢	١٥ر٤١٦	١٩ر٥	٤٢ر٢	٣٦ر٠٦٥	٣٠ر١	١٠٠
المجموع	١٨ر٩١٠	١٠٠	١٦	٢٣ر٧٨٢	١٠٠	٢٠	٧٨ر٨٨٠	١٠٠	٦٤	١٢١ر٥٧٢	١٠٠	١٠٠

<u>المصدر</u> :

عدلت ونقحت من : علي خليفة الكواري، سبق ذكر المصدر، ملحق (١ أ) و (١ ج) ص ص ١٠٤ و ١٠٥

القطاع الخاص بوجه عام ابتداء من النشاطات الصناعية والحرفية المحدودة حتى الخدمات المنزلية والشخصية. وتتميز العمالة في هذا القطاع بأصولها الآسيوية، ومهاراتها المحدودة، وانخفاض أجورها، وسهولة الحصول عليها. أما أقل القطاعات استيعاباً للوافدين الأجانب فهو قطاع النفط الخام والمحاجر حيث تبلغ نسبتهم فيه ٣٩٪. وداخل هذين القطبين نجد الوافدين الأجانب (وعلى الأخص الآسيويين) يشكلون أغلبية متفاوتة الأحجام في كافة النشاطات الاقتصادية القطرية ففي التجارة تبلغ نسبتهم ٧٤٪، وفي الصناعة التحويلية تصل نسبتهم إلى ٧٩٪، بينما تبلغ نسبتهم في قطاع النقل والتخزين والمواصلات ٦٣٪ وفي قطاع الكهرباء والماء نجد هذه النسبة ٦٣٪.

وفي نهاية تحليلنا يمكننا الإشارة بإيجاز إلى تركيب العمالة في القطاع الخاص. والملاحظ من الجدول رقم (٥) أن قوة العمل القطرية داخل القطاع الخاص محدودة جداً. فنسبتهم تبلغ ٤٪ من مجموع العاملين فيه، ويميلون إلى التركز في النشاطات التجارية التي تستوعب ثلثيهم. ويقتصر دور القطريين في مجال النشاطات التجارية على ملكية المشروعات أو إدارتها وذلك طبقاً لحجمها الاقتصادي. أما الوافدون العرب فيشكلون حوالي خمس العمالة في القصاع الخاص (٥ر٢٢٪)، وأن كانوا يميلون إلى التركز في مجالي المقاولات والصناعات التحويلية الخفيفة.

أما الوافدون الأجانب فإنهم يشكلون ثلاثة أرباع عمالة القطاع الخاص (٥ر٧٣٪)، ويحققون سيطرة عددية على كل مجالات النشاط الاقتصادي الخاص ولكن انخفاض نسبة القطريين داخل القطاع الخاص يواكبه سيطرة واضحة عليه من جانبهم، حيث أنهم يميلون إلى استثمار أموالهم فيه، ويحققون قدراً كبيراً من السيطرة على نشاطاته الاقتصادية بوجود نظام الكفيل القطري الذي يقوم باستقدام العمالة الأجنبية على كفالته الشخصية للعمل في المجالات المختلفة للقطاع الخاص، سواء كانت متصلة بالإنتاج داخل الصناعات التحويلية الصغيرة أو مشروعات المقاولات، أو متعلقة بالنشاطات التجارية بوجه عام. ومن الواضح أن بيانات جدول رقم (٥) لا تشتمل على عمالة الخدمة الشخصية والمنزلية التي تشكل قطاعات كبيراً داخل القوى العاملة للقطاع الخاص، على الرغم من أن هذا النمط من العمالة قد نما في قطر منذ السبعينات، وازداد نمواً خلال الثمانينات.

جدول رقم (٥)
تركيب العمالة في القطاع الخاص القطري طبقاً للجنسية
(١٩٨١)

النشاط	قطريون		عرب		أجانب		المجموع	
	العدد	٪	العدد	٪	العدد	٪	العدد	٪
الصناعة التحويلية الخفيفة	١٠٠	١ر٨	١ر٢٠٠	٢١ر٦	٤ر٢٦٠	٧٦ر٦	٥ر٥٦٠	١٠٠
المقاولات	٣٦٤	٢ر١	٤ر٥٦١	٢٦ر٢	١٢ر٤٩٢	٧١ر٧	١٧ر٤١٧	١٠٠
التجارة	١ر٠٣٥	٧ر٣	٢ر٦١٦	١٨ر٥	١٠ر٤٦٤	٧٤ر٢	١٤ر١١٥	١٠٠
المجموع	١ر٤٩٩	٤ر٠	٨ر٣٧٧	٢٢ر٥	٢٧ر٢١٦	٧٣ر٥	٣٧ر٠٩٢	١٠٠

المصدر :

عدلت ونقحت من :

علي خليفة الكواري، سبق ذكر المصدر، ملحق (٣ أ) و (١٣ جـ) ص ص ١٢٢ و ١٢٣.

٣ - التنمية الاقتصادية والعمالة : حقبة التشكل والتدعيم :

كشفت تحليلاتنا السابقة عن أن عقد السبعينات قد شهد طفرة نفطية واسعة واكبها نمو سريع في حجم القوى العاملة الوافدة، ونمو أقل في حجم العمالة القطرية. والواقع أن الجانب الأكبر من هذا النمو قد تم في غياب خطط تنموية واضحة، وعلى الأخص خلال النصف الأول من السبعينات. أما النصف الثاني من العقد فقد شهد محاولات عديدة لرسم مخططات التنمية في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وإنعكس ذلك في شكل مشروعات عامة في مختلف قطاعات المجتمع. ويمكن القول أن قطر قد حاولت خلال الثمانينات التحكم في مسارات التنمية التي بدأت خلال السبعينات وتوجيهها توجيهاً أكثر رشداً. ان عقد الثمانينات هو عقد التشكل والتدعيم لما تم إرسائه خلال عقد السبعينات. وسوف نحاول هنا تتبع المتغيرات التي طرأت على بناء القوى العاملة في قطر، والوقوف على أبرز العوامل المؤثرة عليها، سواء كانت عوامل خارجية أو داخلية (اقتصادية، واجتماعية وسياسية).

وربما كان أدق المصادر الرسمية التي يمكن الاعتماد عليها في تحليل ملامح القوى العاملة خلال الثمانينات هو التعداد القطري لسنة ١٩٨٦ الذي يحتوي على ثروة ضخمة من البيانات الاحصائية التي تساعدنا على تحقيق أهدافنا التحليلية. ومن البيانات الأولية التي يجب أن نبدأ بها تحليلنا، اعداد النشطين اقتصادياً الذين تزيد أعمارهم عن خمسة عشر عاماً. ويكشف جدول رقم (٦) وملحق رقم (٢) والشكل رقم (٣) عن عدد النشطين اقتصادياً طبقاً للجنس. فلقد بلغ عدد النشطين اقتصادياً ٢٠١ر١٨٢ شخصاً. أما العاملون منهم بالفعل فيشكلون غالبية ساحقة (تبلغ حوالي ٩٩٪ من المجموع العام). وإذا ما عدنا إلى بيانات عامي ١٩٧٠ و١٩٨١، المتضمنة في جدول رقم (٣)، وجدنا أن القوى العاملة في قطر قد نمت نمواً ضخماً خلال عقد ونصف من الزمان. فقد ارتفع مجموع القوى العاملة في قطر من ٣٩٠ر٤٨ شخصاً عام ١٩٧٠ ليتضاعف إلى ١٢١ ألفاً عام ١٩٨١ ثم يكاد أن يتضاعف مرة أخرى في خمس سنوات ليصل إلى ٢٠٠ ألف عام ١٩٨٦.

ولابد من الاشارة أيضاً إلى قوة العمل النسائية في قطر في منتصف الثمانينات. فالملاحظ أن نسبة النساء العاملات قد بلغت في تعداد ١٩٨٦ حوالي ١٠٪ من مجموع

جـدول رقم (٦)

النشطـون اقتصـادياً في قطـر طبقـاً للجنس والنشـاط الاقتصـادي

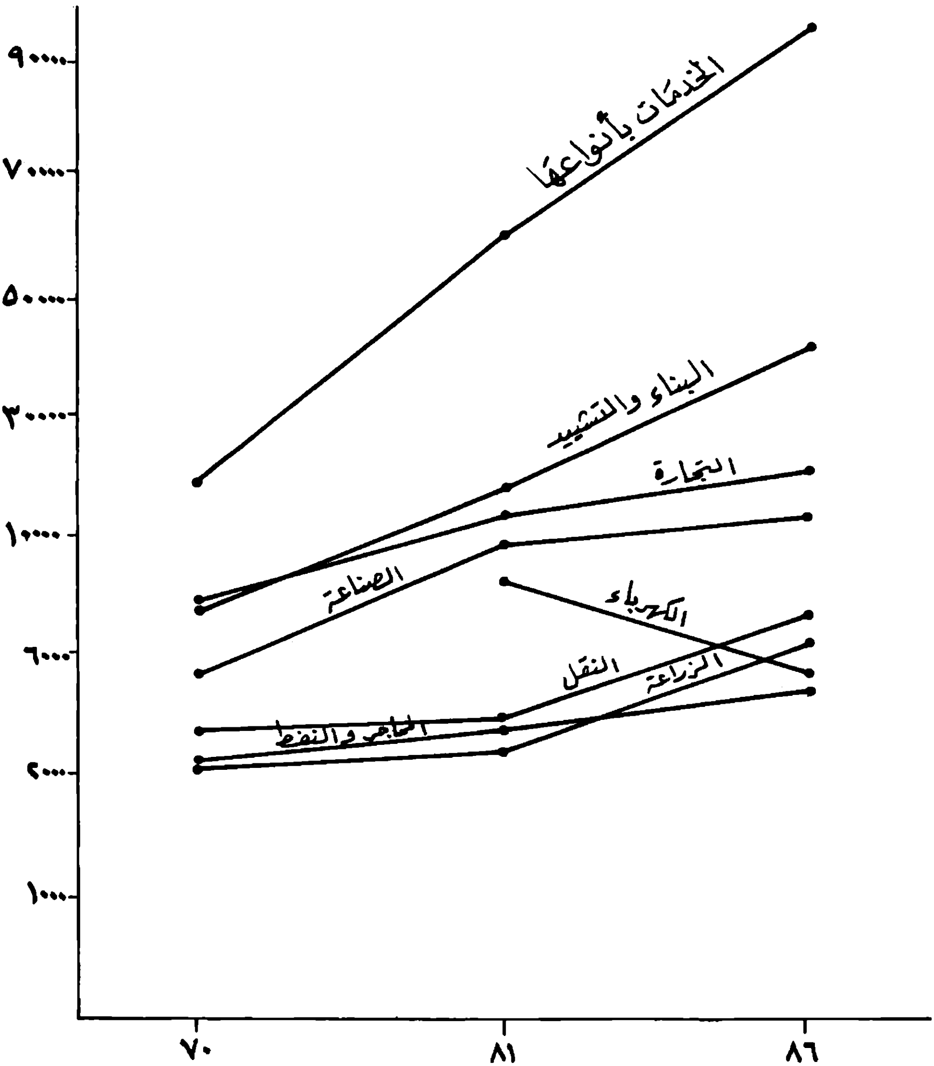
(١٥ سنة فأكثر) - (١٩٨١)

النشـاط الاقتصـادي	ذكـور		انـاث		المجمـوع	
	العـدد	٪	العـدد	٪	العـدد	٪
الزراعة وصيد البر والبحر	٦ر٢٧٩	٣ر٥	٤	٠ر٠	٦ر٢٨٣	٣ر١
المناجم والمحاجر	٤ر٦٣٢	٢ر٦	١٧٥	٠ر٩	٤ر٨٠٧	٢ر٤
الصناعات التحويلية	١٣ر٧٩١	٧ر٦	١٢٣	٠ر٦	١٣ر٩١٤	٧ر٠
الكهرباء والغاز والمياه	٥و٢٦٤	٢ر٩	٢	٠ر٠	٥ر٢٢٦	٢ر٦
التشييد والبناء	٤٠ر٤٠٨	٢٢ر٣	١١٥	٠ر٦	٤٠ر٥٢٣	٢٠ر٢
التجارة والمطاعم والفنادق	٢١ر٦٤٧	١٢ر٠	٣١٧	١ر٦	٢١ر٩٦٤	١١ر٠
النقل والخزين والمواصلات	٧ر٠٧٥	٣ر٩	٢٨٢	١ر٥	٧ر٣٥٧	٣ر٧
تمويل وتأمين وعقارات	٢ر٨٥٠	١ر٦	٣٠٧	١ر٦	٣ر١٥٧	١ر٦
خدمات مجتمع واجتماعية	٧٨ر٣٢٢	٤٣ر٣	١٨ر١٤٤	٩٣ر١	٩٦ر٤٦٦	٤٨ر٢
أنشطة غير كاملة التوصيف	٤٨٨	٠ر٣	١٣	٠ر١	٥٠١	٠ر٢
المجمـوع	١٨٠ر٧٥٦	١٠٠	١٩ر٤٨٢	١٠٠	٢٠٠ر٢٣٨	١٠٠

المصدر :

معـدل من : الجهاز المركزي للاحصاء، التعداد العام للسكان والمساكن لعام ١٩٨٦، قطر، سبتمبر ١٩٨٧، جدول رقم (١٤) ص ٥٨.

شكل رقم (٣)
توزيع القوى العاملة على القطاعات الاقتصادية
(١٩٧٠ - ١٩٨٦)



المصدر: جدولي رقم (٤) ورقم (٦)
ملحق رقم (١)

القوى العاملة. وهي نسبة على ضآلتها تكشف عن تحولات جديدة فيما يتعلق بموقع المرأة داخل تركيب القوى العاملة بوجه عام. إن بناء القوى العاملة في أقطار الخليج العربية قد ظل لفترة طويلة «بناء ذكورياً» بالدرجة الأولى. إلا أن التحولات التي طرأت في مجال تعليم المرأة قد أتاحت الفرصة لالتحاقها ببعض المهن التي لا تتعارض مع التراث الحضاري والإسلامي لهذه الأقطار. وتميل المرأة القطرية إلى العمل في القطاع الحكومي بسبب اقتصار نشاطها المهني على مجالي التدريس والتمريض. وتدل أرقام الجهاز المركزي للاحصاء لعام ١٩٨٨ على أن مساهمة النساء في قوة العمل الحكومية كانت حول ٢٠٪ للأعوام ٨٥-١٩٨٧(١) . ومن الأمور اللافتة للنظر أن الحكومة القطرية قد أتاحت فرصة التعليم المجاني للمرأة على نطاق واسع، ومن ثم أسهمت المدارس والجامعات في تخريج أعداد ضخمة يضيق سوق العمل الراهنة عن استيعابهم. والملاحظ أيضاً أن حوالي نصف النساء اللاتي تزيد أعمارهن عن خمسة عشر عاماً يتفرغن لإدارة الشئون المنزلية. وتفسير ذلك هو :

١ - ارتفاع نسبة الأمية بين النساء.

٢ - حداثة دخول المرأة سوق العمل.

٣ - اقتصار عمل المرأة لأسباب وعوامل مجتمعية وثقافية على ميادين نسائية معينة كالتعليم بوجه خاص. ولأن في هذا هدر لجانب من الاستثمارات المخصصة للتعليم دون عائد واضح، فإنه يبدو أن المخططين القطريين وجانب من المجتمع قد أصبح أكثر وعياً بهذه المشكلة، وأصبحنا نسمع كثيراً من الاقتراحات التي تحبذ دخول المرأة مجالات عمل جديدة في فروع للبنوك والمؤسسات تخصص لخدمة النساء، دون أن يتعارض ذلك مع التراث الثقافي السائد والتعاليم الإسلامية.

والواقع أن بيانات النشاط الاقتصادي تظل غامضة بعض الشيء ما لم نربطها بالمتغيرات الهامة المتصلة بها، وعلى الأخص العمر، والجنس، والجنسية. وطالما أننا نفتقد مثل هذه العلاقات في بيانات التعداد القطري، فإننا نضطر إلى الاعتماد على تقديرات الأمم المتحدة للنشاط الاقتصادي لقطر لعام ١٩٨٦، وهو نفس العام الذي

---

(١) الجهاز المركزي للاحصاء، المجموعة الاحصائية السنوية: (١٩٨٥-١٩٨٨)، دولة قطر.

أجري خلاله التعداد القطري. ومن المتوقع أن تساعدنا هذه التقديرات على فهم الاتجاهات العامة للقوى العاملة وذلك بإدخال متغير الجنسية باعتباره أحد المتغيرات التفسيرية. ويكشف جدول ملحق (٣) عن أن مجموع النشطين اقتصادياً في قطر قد بلغ ٧٢٠ر١٩٥ شخصاً بفارق طفيف عن بيانات التعداد القطري لسنة ١٩٨٦ (يبلغ الفارق ٥١٨ر٤ شخصاً). وحسب تقديرات الأمم المتحدة قد بلغت العمالة القطرية ١٣٧ر٢٠ عاملاً عام ١٩٨٦. بينما كان عددها قبل ذلك بخمس سنوات ٩١٠ر١٨ شخصاً. والواقع أن نسبة القطريين داخل مجموع القوى العاملة قد انخفضت انخفاضاً ملحوظاً طبقاً لبيانات الأمم المتحدة لسنة ١٩٨٦. إذ لا تزيد هذه النسبة عن ٣ر١٠٪ بعد أن كانت ١٦٪ في سنة ١٩٨١.

أما غير القطريين فتبلغ نسبتهم داخل مجموع القوى العاملة حوالي ٧ر٨٩٪. وربما يفسر لنا ذلك نمو العمالة الأجنبية خلال الثمانينات وعدم قدرة العمالة المواطنة عن ملاحقة ذلك بسبب قلة العدد السكاني القطري بوجه عام من ناحية، والتوسع في التعليم الذي أجل دخول أعداد كبيرة من القطريين إلى سوق العمل من ناحية أخرى. ولهذا السبب نجد العمالة المواطنة خلال الثمانينات تحقق معدل نمو أقل من ذلك الذي حققته خلال السبعينات.

ويبدو أن الجانب الأكبر من النمو الذي شهدته القوى العاملة في قطر خلال الثمانينات قد تحقق في مجال القطاع الخاص، ذلك لأن القطاع الحكومي قد حقق نموه الأساسي خلال السبعينات. بينما بدأ القطاع الخاص يحقق توسعه منذ بداية الثمانينات، وطبقاً لبيانات مسح أجرى على القطاع الخاص في سنة ١٩٨٣، فإن عدد العاملين به كان آنذاك ٧٥٨ر٦٧، يشكل القطريون منهم ٨ر١٧٪ فقط[١] . وفي معظم الأحيان فإن مهن القطاع الخاص تتميز بإنخفاض مستويات دخولها، واعتمادها على مهارات يدوية قد لا يحبذها القطريون.

وتكشف بيانات المشاركة في القوى العاملة عن تفاوتات ملحوظة طبقاً لمتغيرات الجنس والعمر والمواطنة. ففي ملحق (٤) نجد تفاوتاً واضحاً بين معدلات النشاط الخام

(١) الجهاز المركزي للاحصاء، نتائج مسح العاملين في القطاع الخاص، دولة قطر، فبراير ١٩٨٤، جدول رقم (١)، ص ١.

المعبرة عن كل من المواطنين وغير المواطنين. فمعدل النشاط الخام لدى المواطنين يبلغ ١٧ر١٩٪، بينما يبلغ نظيره عند غير المواطنين إلى ٧٨ر٦١٪، أي أن الأخير يبلغ ثلاثة أضعاف الأول. أما معدل النشاط المعدل بالنسبة للمواطنين فيبلغ ٠٢ر٣٨٪، بينما يصل إلى ٦٣ر٧٧٪ بالنسبة لغير المواطنين. وذلك أمر طبيعي. فالوافدون وفدوا من أجل العمل ومعظمهم في سن العمل بينما يتوزع المواطنون على فئات مجتمع كامل بين التلميذ، والمتقاعد والنشط اقتصادياً، وعدم مشاركة الإناث في سوق العمل إلا فيما ندر فمعدل النشاط المعدل بين النساء إلى ٦٣ر٧٪ في مقابل ٥٣ر٦٩٪ بالنسبة للذكور.

وربماً استطاع متغير النشاط الاقتصادي القاء الضوء على ملامح قوة العمل في منتصف الثمانينات. فكما يشير جدول رقم (٧) نجد أن نصف القوى العاملة تقريباً (٢ر٤٨٪) تعمل في إطار ما أطلق عليه التعداد القطري «خدمات مجتمع وإجتماعية»، وهي فئة واسعة وغامضة، ولكنها تشير إلى جانب من قطاع أكبر يطلق عليه الاقتصاديون «القطاع الثالث». وإذا ما استخدمنا مفهوم القطاع الثالث لتفسير طابع البناء الاقتصادي القطري، لاحظنا أنه يضم نسبة ضخمة من العاملين تضاف إلى قوة العمل التي تدخل في نطاق فئة «خدمات مجتمع واجتماعية». وفي هذا السياق يمكننا أن نشير إلى العاملين في قطاع التجارة والمطاعم والفنادق (١١٪)، والنقل والتخزين والمواصلات (٧ر٣٪). وإذا كانت المشروعات الصناعية القطرية، وهو نمط يحاول تعويض النقص في القوة البشرية بإستخدام تكنولوجيا متقدمة نسبياً. ويبدو أن قطر – شأنها في ذلك شأن الأقطار الخليجية العربية الأخرى – قد أدركت أن نمط الإنتاج الصناعي المعتمد على تكثيف رأس المال هو أكثر ملائمة من نمط الإنتاج الصناعي المعتمد على تكثيف العمل وذلك لندرة الموارد البشرية وزيادة الفوائض المالية. ومن الظواهر ارتفاع نسبة العاملين في قطاع التشييد والبناء إلى ٢٥٪ من مجموع قوة العمل في قطر. وهذا ما هو إلا تعبير عن استمرارية قطر في توفير البنية الأساسية وإنجاز المشروعات العامة.

ويكشف تحليل البيانات الرقمية أيضاً عن اتجاهين : الأول هو انخفاض مساهمة القطاع الأولي (الزراعة والصيد والمحاجر) عن قطاعي الناتج المحلي العام وقوة العمل. وذلك مرتبط بجمع ظروف بيئية تحت عنوان المناخ الجاف الذي يحد كثيراً من النشاط

جـدول رقم (٧)

التوزيـع المئـوي للنشطـين اقتصـادياً في قطـر طبقـاً للقطـاع والجنس والجنسيـة

(١٥ سنة فأكثر) - (١٩٨٦)

القطـــاعات	المواطنـــون			غير المواطنيـــن			المجمـــوع		
	ذكـور	انـاث	المجمـوع	ذكـور	انـاث	المجمـوع	ذكـور	انـاث	المجمـوع
<u>الزراعـة</u>	٠ر٨	-	٠ر٠٧	٠ر٠١٨	-	٠ر١٦	٠ر١٧	-	٠ر١٥
<u>الصناعـة</u> :									
المناجم والمحاجر	٥ر٤٤	٠ر١٥	٤ر٩٠	٣ر٤١	٠ر١٩	٣ر١٣	٣ر٦٢	٠ر١٩	٣ر٣٢
الصناعة التحويلية	٢ر٥٢	١ر٤١	٢ر٤١	١٦ر٥٤	٠ر٦٩	١٥ر١٧	١٥ر١٢	٠ر٧٨	١٣ر٨٦
الكهرباء والغاز والماء	٢٢ر٢٠	-	١٩ر٩٣	٣ر٠٩	-	٢ر٨٢	٥ر٠٣	-	٤ر٥٩
التشييد والبناء	١ر٠٧	-	٠ر٩٦	٢١ر٧٧	٢ر١٣	٢٠ر٠٧	١٩ر٦٧	١ر٨٨	١٨ر١٠
<u>الخدمـات</u> :									
تجارة الجملة والتجزئة	٩ر٠٣	-	٨ر١١	١٧ر١٢	٧ر٨٤	١٦ر٣٢	١٦ر٣٠	٦ر٩١	١٥ر٤٧
النقل والتخزين والمواصلات	٠ر٥٣	-	٠ر٤٨	٣ر٥٣	١ر٥٥	٣ر٣٦	٣ر٢٣	١ر٣٦	٣ر٠٧
التمويل وخدمات الأعمال	٠ر٩٨	٠ر٠٥	٠ر٨٨	٣ر٥٠	١٢ر٣٥	٤ر٢٧	٣ر٢٤	١٠ر٨٨	٣ر٩١
خدمات المجتمع والخدمات الشخصية	٥٨ر١٥	٩٨ر٣٩	٦٢ر٢٦	٣٠ر٨٦	٧٥ر٢٥	٣٤ر٧٠	٣٣ر٦٢	٧٨ر٠١	٣٧ر٥٣
المجمـوع	١٨ر٠٨١	٢ر٠٥٦	٢٠ر١٣٧	١٦٠ر٣٩٣	١٥ر١٩٠	١٧٥ر٥٨٣	١٧٨ر٤٧٤	١٧ر٢٤٦	١٩٥ر٧٢٠
جملة الناتج المحلي الإجمالي	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠

<u>المصدر</u> : مستخرجة من :

الأمم المتحدة، كشوف البيانات الديموجرافية وما يتصل بها من بيانات اقتصادية واجتماعية، تقديرات سكان قطر، اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربي آسيا، العدد الخامس، ١٩٨٧. جدول رقم ١٠ و١١ ص ص ١٧٢ و١٧٣.

الزراعي، فضلاً عن انخفاض عائد الزراعة قياساً على التجارة وغيرها من أنشطة القطاع الثلاثي. والاتجاه الثاني هو تركز العمل النسائي في فئة الخدمات الاجتماعية بدرجة لا سابق عليها (٩٥٪ من النساء في هذه الفئة). وقد سبق أن بينا دور بنية الثقافة والمجتمع في ذلك.

ويرتب جدول (٨) قوة العمل القطرية - بغض النظر عن الجنسية - على النشاطات المهنية. وأول ما نلاحظه هو أن ما يقرب من نصف قوة العمل (٥ر٤٥٪) تدخل في فئة «العمال»، وهي فئة غامضة غموض فئة «خدمات المجتمع». إذ أنها تشمل مدى واسعاً من المهن، حيث تضم فيما تضم السعاة، خدم المنازل، سائقي السيارات الخاصة، عمال الحدائق، وأصحاب الحرف كالخياطين والنجارين والحدادين، هذا فضلاً عن عمال الورش الصغيرة والمشروعات الصناعية الكبيرة. ويعود ارتفاع نسبة العاملين في هذه الفئة المهنية إلى التوسع في إستقدام العمالة الآسيوية خلال الثمانينات، وذلك بالمقارنة بعقد السبعينات (انظر جدول رقم «٣»). ففي مطلع السبعينات كان القطريون مايزالون يعملون بنسب ملحوظة في المهن اليدوية (حوالي ٣٠٪ من مجموع العمالة القطرية)، وكذلك بلغت نسبة العاملين من الوافدين في هذه المهن ٧ر٤١٪ في السنة ذاتها. وبقدوم الثمانينات تقلص الوجود القطري في هذه المهن، وبدأ الوافدون من الآسيويين يحققون نمواً متزايداً فيها، وذلك بسبب رخص أجورهم، ووفرتهم النسبية، وسهولة الحصول عليهم. وإذا ما أمعنا النظر مرة أخرى في جدول رقم (٨)، لاحظنا أن العاملين في قطاع الخدمات يشكلون أقل قليلاً من ربع قوة العمل (٢٢٪)، بينما يمثل العاملون في المهن الكتابية ١٢٪ من مجموعها. أما الاخصائيون والفنيون فيشكلون نسبة مقاربة إلى ١٠٪.

جـدول رقم (٨)
النشطـون اقتصـادياً في قطـر طبقـاً للجنس والمهنـة
(١٥ سنة فأكثر) - (١٩٨١)

النشاط الاقتصادي	ذكور		اناث		المجموع	
	العدد	٪	العدد	٪	العدد	٪
الاخصائيون والفنيون ومن إليهم	١٥٫٠٨٦	٨٫٤	٥٫٥١١	٢٨٫٣	٢٠٫٥٩٧	١٠٫٣
رجال التشريع والمديرون والإداريون ومديرو الأعمال	٢٫٥٤٦	١٫٤	٢٢	٠٫١	٢٫٥٦٨	١٫٣
القائمون بالأعمال الكتابية ومن إليهم	٢١٫٥٨٣	١١٫٩	٢٫٠١١	١٠٫٣	٢٣٫٥٩٤	١١٫٨
القائمون بأعمال البيع	١٠٫٠٤٤	٥٫٦	١١٦	٠٫٦	١٠٫١٦٠	٥٫١
العاملون في الخدمات	٣٢٫٣٥٩	١٧٫٩	١١٫٧٤٢	٦٠٫٣	٤٤٫١٠١	٢٢٫٠
العاملون في الزراعة وتربية الحيوان وصيد البر والبحر	٧٫٦٨٠	٤٫٢	٢	٠٫٠	٧٫٦٨٢	٣٫٨
عمال الإنتاج ومن إليهم وعمال تشغيل وسائل النقل والعمال العاديون	٩١٫١٢٣	٥٠٫٤	٦٢	٠٫٣	٩١٫١٨٥	٤٥٫٥
مهن غير كاملة التوصيف	٢٣٥	٠٫٢	١٦	٠٫١	٣٥١	٠٫٢
المجموع	١٨٠٫٧٥٦	١٠٠	١٩٫٤٨٢	١٠٠	٢٠٠٫٢٣٨	١٠٠

المصدر :

مستخلصة من : الجهاز المركزي للاحصاء، سبق ذكر المصدر، جدول رقم (١٢) ص ٣٤.

خاتمــــة :

الخلاصة أن التحليل السابق يؤكد قضية أساسية هي أن البناء القطري يعد إنعكاساً لتوجهات تنموية خدمية، كما يكشف عن سيطرة واضحة للمهن الفنية العليا والمهن الإدارية والكتابية من ناحية، ومن الخدمات من ناحية أخرى. ويدعم ذلك كله ما سبق أن أشرنا إليه من أن «القطاع الثالث» ببنائه المهني قد أصبح السمة الأساسية المميزة للبناء الاقتصادي القطري، وأن القطاع الأول يكتسب وجوده وشرعيته من نشاط التعدين، بينما تتعرض النشاطات التقليدية للتآكل والتقلص. أما القطاع الثاني (الصناعات التحويلية) فهو محكوم عليه بضآلة حجم قواه العاملة بسبب سياسة التكثيف الرأسمالي وتجنب التكثيف العمالي.

ملحق رقم (١)

القوى العاملة في قطر طبقاً للقطاع والجنسية

(١٩٧٠)

القطاع	القطريون	غير القطريين	الاجمالي	النسبة في كل قطاع ٪	نسبة القطريين ٪
الزراعة والصيد	٨٦	١٩٨٤	٢٠٧٠	٣ر٤	٢ر٤
الصناعة التحويلية والتعدين والمحاجر	١٨٢٥	٣٤١٧	٥٢٤٢	٨ر١٠	٨ر٣٤
البناء والتشييد	٢٠٧	٧٥٧٨	٧٧٨٥	١ر١٦	٧ر٢
صناعة النفط	١٢٥٩	٩٥٠	٢٢٠٩	٦ر٤	٠ر٥٧
تجارة الجملة والتجزئة	٨٨٠	٧٠٠٥	٧٨٨٥	٣ر١٦	٢ر١١
الصيرفة	١٠	٢٩٢	٣٠٢	٦ر٠	٤ر٣
النقل والمواصلات	٦٦٥	٢٥٧١	٣٢٣٦	٧ر٦	٣ر٢٠
الخدمات الحكومية	١٣٩١	٤٧٨١	٦١٧٢	٧ر١٢	٥ر٢٢
الخدمات الأخرى	١٨٥٥	١١٦٤٤	١٣٤٩٩	٩ر٢٧	٧ر١٣
الاجمالي	٨١٦٨	٤٠٢٢٢	٤٨٣٩٠	٠٠ر١٠٠	
النسبة من الإجمالي	٩ر١٦	١ر٨٣	٠ر١٠٠		

Ministry of Overseas Development, Middle East Development Division, The First Population Census of Qatar, April/May 1970, British Embassy, Beirut 1970. Table (16).

ملحـــق رقم (٢)
سكــان قطــر طبقــاً للجنــس والعلاقــة بقــوة العمــل
(١٥ سنة فأكثر)

العــلاقــات بقــوة العمـــل	ذكـــور	إنـــاث	المجمـــوع
<u>النشطـون اقتصـادياً</u>			
يعمـــل	١٧٩٧٦٤	١٩٤٤٩	١٩٩٢١٣
متعطل سبق له العمل	٩٩٢	٣٣	١٠٢٥
متعطـل جديـد	٧٩١	١٥٣	٩٤٤
المجمــــوع	١٨١٥٤٧	١٩٦٣٥	٢٠١١٨٢
<u>غير النشطين اقتصادياً</u>			
طالــب متفــرغ .	١٠٦٩٧	١١٤١٥	٢٢١١٢
متفرغة لأعمال المنزل	صفر	٣٨٣٢٥	٣٨٣٢٥
لا يعمل ولا يبحث عن عمل	١٤٩٠	٩١٦	٢٤٠٦
عاجــز	١٠٤٦	٩٠٠	١٩٤٦
أخــرى	٣١١	١٦٨	٤٧٩
المجمــوع	١٣٥٤٤	٥١٧٢٤	٦٥٢٦٨
غيـر مبيـن	١٤٩	٢٦	١٧٥
المجمــوع العـام	١٩٥٢٤٠	٧١٣٨٥	٢٦٦٦٢٥

<u>المصدر</u> : الجهاز المركزي للاحصاء، سبق ذكر المصدر، جدول رقم (٩)، ص ٢٩.

ملحق رقم (٣)

النشطون اقتصادياً طبقاً للعمر والجنس والجنسية في قطر

(١٥ سنة فأكثر) - (١٩٨٦)

فئات العمر	المواطنون			غير المواطنين			المجموع		
	ذكور	اناث	المجموع	ذكور	اناث	المجموع	ذكور	اناث	المجموع
١٥ – ١٩	٧٢١	٧٦	٧٩٧	٢٨٠٤	٢٠٩	٣٠١٣	٣٥٢٥	٢٨٥	٣٨١٠
٢٠ – ٢٤	٢٥٠٣	٥٩٥	٣٠٩٨	١٢٣٤٧	١٥٨٣	١٣٩٣٠	١٤٨٥٠	٢١٧٨	١٧٠٢٨
٢٥ – ٢٩	٣٥٧٤	٧٢١	٤٢٩٥	٣٥٢٥٦	٢٨٥٣	٣٨١٠٩	٣٨٨٣٠	٣٥٧٤	٤٢٤٠٤
٣٠ – ٣٤	٢٩٧٥	٣٧١	٣٣٤٦	٣٧٩٥٩	٣٢٣٤	٤١١٩٣	٤٠٩٣٤	٣٦٠٥	٤٤٥٣٩
٣٥ – ٣٩	٢٣٣٨	١٣٩	٢٤٧٧	٢٩٨٢٣	٣٤١٥	٣٣٢٣٨	٣٢١٦١	٣٥٥٤	٣٥٧١٥
٤٠ – ٤٤	١٧٦٨	٧١	١٨٣٩	١٧٧٧٢	٢٣٥٤	٢٠١٢٦	١٩٥٤٠	٢٤٢٥	٢١٩٦٥
٤٥ – ٤٩	١٣١٣	٤٣	١٣٥٦	١١٧٦١	١٠١٢	١٢٧٧٣	١٣٠٧٤	١٠٥٥	١٤١٢٩
٥٠ – ٥٤	١٠٢٠	١٣	١٠٣٣	٦٥٤٤	٤٣٠	٦٩٧٤	٧٥٦٤	٤٤٣	٨٠٠٧
٥٥ – ٥٩	٨٣٨	١٤	٨٥٢	٤٢٤٦	٦٧	٤٣١٣	٥٠٨٤	٨١	٥١٦٥
٦٠ سنة فاكثر	١٠٣١	١٣	١٠٤٤	١٨٨١	٣٣	١٩١٤	٢٩١٢	٤٦	٢٩٥٨
المجموع	١٨٠٨١	٢٠٥٦	٢٠١٣٧	١٦٠٣٩٣	١٥١٩٠	١٧٥٥٨٣	١٧٨٤٧٤	١٧٢٤٦	١٩٥٧٢٠

ملحـــق رقم (٤)

معـدلات المشاركـة في القـوى العاملـة في قطـر طبقـاً للعمـر والجنـس والجنسيـة

(١٥ سنة فأكثر) - (١٩٨٦)

فئات العمـر	المواطنــون			غير المواطنيــن			المجمــوع		
	ذكـور	انـاث	المجموع	ذكـور	انـاث	المجموع	ذكـور	انـاث	المجموع
١٥ – ١٩	١٤ر٤١	١ر٤١	٧ر٩٣	٢٩ر٦٠	٢ر٦٥	١٧ر٣٥	٢٤ر٣٥	٢ر٢٠	١٣ر٩٠
٢٠ – ٢٤	٦١ر٣٠	١٤ر٣٠	٣٧ر٥٨	٩٤ر٣٠	١٥ر٠١	٥٨ر٩٣	٨٦ر٤٦	١٤ر٨١	٥٣ر٤١
٢٥ – ٢٩	٩٤ر٢٣	١٨ر٥١	٥٥ر٨٧	٩٩ر٠٠	٢٤ر٦٤	٨٠ر٧٥	٩٨ر٥٤	٢٣ر١٠	٧١ر٢٧
٣٠ – ٣٤	٩٨ر٢٥	١١ر٤٩	٥٣ر٤٨	٩٩ر٥٠	٣٤ر٣٩	٨٦ر٦٣	٩٩ر٤١	٢٨ر٥٤	٨٢ر٧٧
٣٥ – ٣٩	٩٦ر٧٧	٥ر١٥	٤٨ر٤٢	٩٩ر٧٠	٤٨ر٢٥	٨٩ر٨٦	٩٩ر٤٨	٣٦ر٣٥	٨٤ر٨٢
٤٠ – ٤٤	٩٢ر٠٤	٣ر٢٣	٤٤ر٦٥	٩٩ر٦٠	٤٥ر٠٨	٨٧ر٢٦	٩٨ر٨٧	٣٢ر٦٨	٨٠ر٨٠
٤٥ – ٤٩	٨٥ر٣٧	٢ر٥٧	٤٢ر٢٤	٩٩ر٥٠	٣٢ر٣٠	٨٥ر٤٢	٩٧ر٨٧	٢١ر٩٦	٧٧ر٧٩
٥٠ – ٥٤	٧٩ر٦٩	١ر٠٣	٤٠ر٦٥	٩٩ر٦٣	٣٠ر٥٦	٨٧ر٤٥	٩٦ر٣٨	١٦ر٦٠	٧٦ر١٤
٥٥ – ٥٩	٨٣ر٩٧	١ر٥١	٤٤ر٢٤	٩٩ر٧٤	٨ر٣٣	٨٥ر٢٢	٩٦ر٧٥	٤ر٦٨	٧٣ر٩٢
٦٠ سنة فأكثر	٥٣ر٠١	٠ر٧٠	٢٧ر٣٩	٩٩ر٣٠	٩ر١٤	٨٠ر٥٢	٧٣ر٥٢	٢ر٠٧	٤٧ر٨٠
معدل النشاط الخام	٣٤ر٤٧	٣ر٩١	١٩ر١٧	٨٠ر٥١	١٧ر٨٧	٦١ر٧٨	٧٠ر٩٢	١٢ر٥٤	٥٠ر٢٨
معدل النشاط المعدل	٦٩ر٥٣	٧ر٦٣	٣٨ر٠٢	٩٥ر٠٥	٢٦ر٤٥	٧٧ر٦٣	٩١ر٦٤	٢٠ر٤٤	٧٠ر١٢

المصدر : الأمم المتحدة، سبق ذكر المصدر، جدول رقم (٨)، ص ١٧٠.

المراجـــع

١ – أحمد محمد العبدالله، المكانة الاجتماعية في مجتمع الغوص، بحث مقدم إلى الحلقة الرابعة للمراكز والهيئات المهتمة بدراسات الخليج والجزيرة العربية، مركز الوثائق والدراسات، أبوظبي ١٩٧٩.

٢ – الجهاز المركزي للاحصاء، التعداد العام للسكان والمساكن في قطر لعام ١٩٨٦، رئاسة مجلس الوزراء، قطر، سبتمبر ١٩٨٧.

٣ – الجهاز المركزي للاحصاء، المجموعة الاحصائية السنوية – (أعوام مختلفة) رئاسة مجلس الوزراء، قطر.

٤ – الجهاز المركزي للاحصاء، نتائج مسح العاملين في القطاع الخاص – ١٩٨٣، رئاسة مجلس الوزراء، قطر، فبراير ١٩٨٤.

٥ – الأمم المتحدة، كشوف البيانات الديموجرافية وما يتصل بها من بيانات اقتصادية واجتماعية، تقديرات سكان قطر، اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربي آسيا، العدد الخامس ١٩٨٧.

٦ – دولة قطر، مجموعة قوانين قطر ١٩٦١–١٩٧٥ المجلد الثاني، وزارة العدل، إدارة الشئون الثقافية، مطابع قطر الوطنية، قطر.

٧ – سيف مرزوق الشملان، تاريخ الغوص على اللؤلؤ في الكويت والخليج العربي، الجزء الأول الطبعة الأولى، الكويت ١٩٧٧.

٨ – سيف مرزوق الشملان، الغوص على اللؤلؤ في قطر، مؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية، الجزء الثاني، قطر ١٩٧٦.

٩ – علي خليفة الكواري، نحو فهم أفضل لأسباب الخلل السكاني في أقطار الجزيرة العربية المنتجة للنفط، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، جامعة الكويت، الكويت ١٩٨٣.

١٠ – محمد رياض أحمد رياض، الخليج والخليجيون قبل عام ١٩٣٠، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، العدد ٣٦، جامعة الكويت، الكويت ١٩٨٣.

١١ – محمد علي الكبيسي، التنمية الصناعية في دولة قطر، ترجمة حسن الخياط، دار المتنبي للطباعة والنشر، قطر ١٩٨٦.

١٢ – محمد غانم الرميحي، البترول والتغير الاجتماعي في الخليج العربي، مؤسسة الوحدة للنشر والتوزيع، الكويت، ١٩٧٥.

13 - Al-Kuwari, A.K., Oil Revenues in the Gulf Emirates: Patterns of Allocation & Impact of Economic Development, Bowfer Publishing Co., Essex, 1978.

14 - Kubursi, A., The Economic of the Araian Gulf: A Statistical Sourcebook, Groom Helm, London 1984.

15 - Ministry of Overseas Development, The First Population Census of Qatar: April-May 1970. Middle East Development Division, British Embassy, Beirut, 1970.

المعجم العربي الأساسي
إضاءة ونقد

أ. د. عبد العزيز مطر
أستاذ علم اللغة - رئيس قسم اللغة العربية

تمهيد

في عام ١٩٨٩ أضيف إلى رصيد المكتبة اللغوية معجم جديد، صادر عن «المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم» عنوانه: (المعجم العربي الأساسي) - للناطقين بالعربية ومتعلميها. قامت بتأليفه، وتنسيق مواده، وتحريره، ومراجعته، وإعداده الفني خمس لجان «من أهل القدرة اللغوية العالية، والخبرة العلمية العميقة، في الصناعة المعجمية»[١].

والموقع التاريخي لهذا المعجم يحدد بعد (المعجم الوسيط) الذي أصدره مجمع اللغة العربية بالقاهرة عام ١٩٦٠[٢] فبين المعجمين تسعة وعشرون عاماً. وفي هذه الفترة صدرت معجمات أخرى[٣] لكن لهذين المعجمين أهمية خاصة بوصفهما صادرين عن هيئتين أولاهما لغوية والأخرى ثقافية.

يقع المعجم العربي الأساسي في ١٣٤٧ صفحة من القطع المتوسط، منها ٦٠ صفحة تضمنت المقدمة، والتعريف باللغة العربية وطرائق تنميتها، والنظام الصرفي في اللغة العربية وبعض الأبواب النحوية، وقواعد الإملاء وعلامات الترقيم، ثم منهجية المعجم (ترتيبه واستخدامه ورموزه).

ويضم المعجم نحو خمسة وعشرين ألف مَدخل، مرتبة ترتيباً ألفبائياً انطلاقاً من جذر الكلمة[٤]. وغاية المنظمة من إصدار هذا المعجم: أن يكون «مرجعاً ميسَّراً يروض

العربية ويذلل صعابها لغير الناطقين بها ممن تقدموا في دراستها. وهو على ذلك معين أمين للمعلمين والأساتذة والطلبة الجامعيين وعامة المثقفين من العرب والمستعربين». وتأمل المنظمة أن يكون المعجم أساساً لإصدار معجمات حديثة ثنائية بين اللغة العربية ولغات أخرى(٥) .

وهو في غايته تلك يختلف عن غاية (المعجم الوسيط) الذي قصد به أن يحقق غرضين: «أحدهما أن يرجع إليه القارىء المثقف ليسعفه بما يسد الحاجة إلى تحرير الدلالة للفظ شائع أو مصطلح متعارف عليه. والغرض الآخر: أن يرجع إليه الباحث والدارس لإسعافهما بما تمس الحاجة إليه من فهم نص قديم من المنثور أو المنظوم»(٦) .

فالأساسيّ مؤلف أساساً لغير الناطقين بالعربية المتقدمين في دراستها، وإلى جانب ذلك يعين غيرهم. والوسيط موجه أساساً إلى المثقف والباحث العربي، لتحرير الدلالة أو فهم النص. وسنراعى ذلك في تناولنا لمادة المعجم ونقده.

ويتألف البحث من قسمين رئيسَيْن هما: إضاءة تتضمن وصف المعجم وصفاً علمياً، ونقد علمي لغوي شامل، على النحو الآتي :

إضاءة حول منهجية المعجم

تشمل هذه الإضاءة وصفاً علمياً للمعجم من حيث: ترتيبه، ومادته اللغوية، وشواهده، وأمثلته الموضِّحة، وتحريره، ثم إخراجه. على النحو الآتي :

أولاً : ترتيب المعجم :

* ينتمي هذا المعجم في ترتيبه إلى المدرسة المعجمية المحافظة والمجدِّدة التي ينتمي إليها عدد من المعجمات الحديثة كمحيط المحيط للبستاني، وأقرب الموارد للشَّرتوني، والمعجم الوسيط والمعجم الوجيز لمجمع اللغة العربية، وهي المعجمات التي تلتزم الترتيب الهجائي حسب الحرف الأول فالثاني فالثالث من جذر الكلمة. وتلتزم الترتيب داخل المواد حسب ترتيب معين للأفعال المجردة فالمزيدة، ثم الأسماء(٧) .

* وفي منهجية المعجم الأساسي(٨) : أن الكلمات رتبت داخل المواد على أساس البدء

بالأفعال المجردة حسب ترتيب الأوزان (فَعَل) و(فَعُل) و(فَعِل)[9] ثم تليه الأفعال المزيدة بالتضعيف (فَعَّل) فالمزيدة بالألف (فاعَل) والمزيدة بالهمزة (أفعل)[10] .

ولم يذكر في هذا التعريف المنهجي ترتيب المزيد بحرفين، ولكن يتضح هذا الترتيب من داخل المعجم، حيث يقدم (تفعَّل) على (تفاعل) يليهما (افتعل) ثم (انفعَل) ثم (افْعَلَّ) ثم (استفعل) ثم (افعَوْعل) ثم (افعالَّ)[11] . وبعد الأفعال تأتي الأسماء. ولم يذكر المعجم أنه يقدم المعنى الحسي على المعنى المجرد، كما صنع المعجم الوسيط.

* أورد المعجم مصادر الأفعال مرتين، في المادة الواحدة، مرة مع الفعل ومرة مستقلاً، مثلاً: (ش ر ح) شرَح يَشرَح شرْحا فهو شارِحٌ - وبعد اثنى عشر سطراً عاد مرة أخرى ليقول: شرْح مَصْ (أي مصدر) شرَح.

* أورد مع الفعل الثلاثي المجرد اسم فاعله أو الصفة المشبهة به، واسم مفعوله أحياناً. مثلاً: (م ر س): مَرس يمرُس مَرْساً فهو مارِسٌ.. ثم يقول مَرِسٌ (صفة مشبهة).. ومَرِيس (فعيل بمعنى مفعول).

* اقتصر على المشهور الشائع من أوزان الأفعال والمشتقات والمصادر والجموع.

* يذكر المؤنث أحياناً إذا كان ذكْره يزيل اللبس، مثلاً (جَزِعٌ) ج (أي جمعه) - ون، مؤ (أي مؤنثه) (جَزِعة ج جَزِعات).

ثانياً : مادة المعجم :

إن المادة اللغوية التي يضمها هذا المعجم الأساسي تتمثل في :

(أ) المداخل، وعلى سبيل المثال تشتمل مادة (ج ز ع) على تسعة مداخل هي :

جَزِع / تجزَّع / تجزُّع / جَزْعٌ / جَزَعٌ / جزِعٌ / جُزْع / جَزُوع / مُجزَّع.

وهذه المداخل تشمل :

١ - الألفاظ العربية الصحيحة الواردة في معجمات عربية قديمة، كالصحاح واللسان والقاموس.

٢ - الألفاظ المعرَّبة قديماً والواردة في هذه المعجمات القديمة.

٣ - الألفاظ المعرَّبة حديثاً بعد عصر الاحتجاج.

٤ – الألفاظ المولَّدة قديماً.

٥ – الألفاظ والمصطلحات والأساليب التي أقرتها المجامع اللغوية العربية ورمز لها المجمع بلفظ (مج).

٦ – الألفاظ المحدَثة التي أقرها مجمع اللغة العربية بالقاهرة، بعد شيوعها على ألسنة الكتاب والأدباء، ورمز لها المجمع بلفظ (مُحْدثة). وإن كان هذا المعجم الأساسي لا ينص على ذلك إلا نادراً جداً، وسنتعرض لهذا عند نقد المعجم.

٧ – ما تصرفت فيه لجنة المعجم من المولَّد والمحدَث فأدخلته فيه، ومن المشتقات التي بنتها على قرارات المجمع اللغوي.

٨ – ما نقلته بنصه من المعجم الوسيط.

٩ – ما أضافه هذا المعجم مما لا يوجد في المعجم الوسيط من تعبيرات جديدة، ومن أسماء الأعلام كأسماء القارات والبُلدان والمدن والأنهار وأسماء النابغين في التاريخ العربي من خلفاء وقادة وفقهاء وعلماء وشعراء وأدباء وفنانين.

وهذه المادة التي اشتمل عليها المعجم أجملها الدكتور محيي الدين صابر في مقدمته التي قال فيها : «.. وهو (المعجم) لا يستنكف – في معاشرة حميْمة لحركة اللغة – أن يورد الكلمات المولَّدة والمعرَّبة والدخيلة التي دخلت الحياة، واستعملها رجال الفكر والثقافة وأقرتها المجامع اللغوية العربية، على أنه يتجنب الحوشيَّ والغريب، ويتنكّب المهمل والمهجور من الألفاظ، فلا يورد إلا ما هو معروف شائع، أو ما هو جدير بأن يعرف، من مفردات اللغة الحية الجارية على ألسنة العلماء والأدباء والمثقفين والصحفيين وأقلامهم، والمبسوطة في المؤلفات والبحوث والدراسات العربية – هذا وللمعجم سمة موسوعية محددة، فهو يتناول عدداً من المصطلحات الجديدة، الحضارية والعلمية والتقنية، ويتعرض في إيجاز إلى طائفة كبيرة من أسماء الأعلام، كأسماء القارات والبلدان والمدن والأنهار وأسماء النابغين في التاريخ العربي، من خلفاء وقادة وفقهاء وعلماء وشعراء وأدباء وفنانين الخ».

(ب) الشرح والتفسير والتعريف : من الأسس التي يبني عليها المعجم : شرح الألفاظ، وتفسير غامضها، وتعريف المصطلح، والتعريف بالأعلام – إن كانت ضمن مادته

– وقد سلك هذا المعجم في هذا المجال مسلكاً يمكن وصفه فيما يأتي :

١ – تفسير اللفظ بمرادفه وبمثال يبين السياق، مثل: أتي الشخص : جاء، وقد يتبع ذلك آية قرآنية (فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى) أو استعمالاً شائعاً مثل : «أتاني بعدَ غيابٍ طويل» أو مَثلاً سائراً. ومن ذلك : أتى الأمر : فعله. أتى البيوتَ من أبوابها. ويشرح ذلك بقوله: تناول الأمور على وجهها الصحيح. وأتّى به: جاء به وجلبه. ويأتي بمثال : «لم يأتِ الكاتبُ بجديد في بحثه». وأتى عليه: مرَّ بِهِ. ويعده آية قرآنية : (ما تَذَرُ من شيءٍ أَتَتْ عليه إلا جَعَلَتْهُ كالرَّميم) (قرآن).

أتى على آخره: أتمَّه، أتى على الأخضر واليابس : أنفد كل شيء. أتى على المكان: أشرف عليه (حتَّى إذا أَتَوْا على وادِي النَّمْلِ) (قرآن)[١٣] .

٢ – تفسير اللفظ بضده، مثل سطحي : غير عميق[١٤] .

٣ – تفسير اللفظ بعدة ألفاظ، مثل : ظَرُف يظرُف ظَرْفا وظَرافة فهو ظريف، كان كَيِّسا بارعاً حاذقاً «رجل لطيف ظريف»[١٥] . أو بلفظين، مثل: عطف عليه : أشفق عليه، حنا عليه[١٦] . ومثل : عَظُم: كَبُر، فَخُم[١٧] .

٤ – تعريف المصطلح، ويكون ذلك بالاعتماد على التعريف العلمي لمجمع اللغة العربية أو معجمات المصطلحات أو دوائر المعارف، مثل: مَقْدونس/ بَقْدونس: نبات عشبي زراعي من فصيلة الخَيْميات يزرع لرائحة أوراقه ولأفاويه الطعام، ويقال له: مَعْدنونس (تونس)[١٨] .

ومثل: مَغْناطيس أو مَغْنطيس : معدن فيه قوة تجذب الحديد وبعض المعادن لخاصة فيه «المغنطيس الكهربائي»[١٩] ولم يذكر المعجم أنه معرَّب[٢٠] وقد يكون تعريف المصطلح بترجمته العربية، مثل ديموجرافيا/ ديموغرافيا: علم السكّان[٢١] .

٥ – التعريف بأعلام الأشخاص : وتختلف الشخصيات في عدد الكلمات المخصصة للتعريف بكل منها.

ومن أمثلة ذلك :

* الرشيد، مولاي – ابن الشريف بن علي (١٠٤٠–١٠٨٣هـ/ ١٦٣٠–١٦٧٢م) : سلطان المغرب، ومؤسس السلالة العلوية الحاكمة حتى اليوم (١٨ كلمة).

* والرشيد، عبد العزيز بن أحمد (ت ١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م) أديب وصحفي ومؤرخ كويتي، من مؤلفاته «تاريخ الكويت» كان يصدر مجلة شهرية باسم الكويت (٢٠ كلمة)[٢٢] .
* والفرَّاء، يحيى بن زياد أبو زكرياء (حوالي ١٤٤-٢٠٨هـ/ ٧٦١/٨٢٢م) إمام مدرسة النحو الكوفية، كان موسوعة علوم، له «المقصور والممدود»، «معاني القرآن»، «الحدود» (٢٤ كلمة)[٢٣] .

وقد شملت الترجمة في كل منهم : الاسم واللقب والكنية - الميلاد (غالباً) والوفاة - المهنة والنشاط - المؤلفات.

٦ - التعريف بالدول. ويكون ذلك بذكر اسم الدولة كاملاً ونظام الحكم فيها وانتمائها وعاصمتها وموقعها ومؤسسها وتاريخ تأسيسها (مثل : السعودية، المملكة العربية : دولة عربية إسلامية في الجزيرة العربية عاصمتها الرياض أسسها المغفور له الملك عبد العزيز بن سعود عام ١٣٥١هـ/ ١٩٣٢م (٢٣ كلمة)[٢٤] .

٧ - التعريف بالبقاع والأنهار والبحار والخُلجان والجبال : ويختلف التعريف وعدد كلماته من مكان إلى آخر.

مثلاً : ركز المعجم على الخليج العربي فوصفه وحدد طوله والمنطقة المحيطة به والدول الواقعة عليه فقال :

* الخليج العربي : ذراع من البحر العربي، يمتد بين إيران وجزيرة العرب، على طول حوالي ٩٦٥كم من شط العرب إلى مضيق هرمز الذي يربطه بخليج عمان، تحيط به منطقة ثرية بالبترول فضلاً عما فيه من مكامن بترولية بحرية هائلة. من أهم موانئه: دبي والكويت والمملكة العربية السعودية وقطر ودولة الإمارات العربية المتحدة وسلطنة عمان ويستقر في شطره الشمالي أرخبيل دولة البحرين (٦١ كلمة)[٢٥] .

وكتب في التعريف بالنيل :

* النيل، نهر : أهم أنهار أفريقيا ومن أطول أنهار العالم، يتكون من رافد من النيلين الأبيض والأزرق، ويصب في البحر الأبيض المتوسط شمال مصر (٢٣ كلمة)[٢٦] .

وكتب في التعريف بالمسجد الأقصى :

* الأقصى، المسجد، الجامع الكبير المقدّس في مدينة القُدس، من أهم الجوامع الإسلامية، يقع جنوب الصخرة، كان قبلة المسلمين الأولى قبل الكعبة (سُبحانَ الذي أسْرَى بعبدِه ليلاً من المَسْجدِ الحرامِ إلى المسجد الأقصى)[٢٧] (قرآن).

ومن التعريف الموجز في أسماء البحار : أُقيانوس/ أوقيانوس : البحر العظيم المحيط بالقارات[٢٨] .

٨ - التعريف بالفِرَق والمذاهب، ويكون ذلك بتحديد انتماء الفرقة وأشهر دعاتها وأماكن انتشارها. مثل :

* الإسماعيلية، فرقة من الشيعة تنسب إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، وهي منتشرة بصورة خاصة في إيران والهند، من أشهر دعاتهم ميمون القداح[٢٩]

ومثل :

* وجودية: الـ - : مذهب فلسفي يرى أن الوجود يتقدم الماهية، وأن الإنسان حر يستطيع أن يصنع نفسه ويتخذ موقفه كما يبدو له تحقيقاً لوجوده الكامل (مج)[٣٠] .

٩ - يستهل المعجم شرحه بأن يذكر عقب المدخل مباشرة الجمع الذي يجمع عليه المفرد المذكور، مثلاً: صقب ج (أي جمعه) أصقاب. مصفاة ج مصاف (المصافي) صفيٌّ ج أصفياء. مُصَفٍّ (المصفّي) ج - ون[٣١] .

١٠ - من سمات المعجم في الشرح والتعريف اهتمامه بالأمثلة السياقية الموضحة للمعنى، والاستشهاد بالقرآن الكريم، والحديث الشريف، وأمثال العرب، مع شرح هذه الأمثال أينما وردت.

١١ - درج المعجم على ذكر المدخل منكَّراً، على حين يذكره المعجم الوسيط معرَّفاً.

ثالثاً : إخراج المعجم :

نعني بإخراج المعجم : شكل الصفحات، وما فيها من أعمدة، وما يوضع أعلى الصفحات من إشارات إلى بدء الكلمات في الصفحة ونهايتها ووضع الأقواس، والنجوم

المميِّزة، وطباعة أوائل المواد بالحبر المشبع، ووضع الصور بالألوان، ثم طبع المعجم على صورة يتجلى فيها الفن الطباعي من حيث حجم الحروف، ونوع الورق، ثم التصحيح الدقيق من علماء متخصصين حتى لا يقع في المعجم أي خطأ طباعي[٣٢] .

وفيما يلي وصف ما تم في إخراج المعجم :

(أ) شكل الصفحات :

* تتألف صفحة المعجم من عمودين (نهرين) يشتمل كل عمود على ٣٢ سطراً، مساحة السطر ستة سنتميترات، وبين العمودين فراغ مقداره سنتيمتر واحد.

* وفي أعلى الصفحة اليمنى كتب المدخل الأول فيها، على اليمين. وفي أعلى الصفحة اليسرى كتب المدخل الأخير فيها على اليسار. مثلاً: «تشبيب» في أعلى صفحة ٩٦٦ هو أول مدخل فيها. و«شَبَكية) في أعلى صفحة ٩٦٧ هو آخر مدخل فيها.. وهكذا.

* وكتب عنوان المادة التي تشمل مدخلاً أو أكثر بحروف مفردة في وسط العمود، مثل: ش ر ب، ش ب ش ب، ش ب ط.. الخ وإذا كانت الكلمة معرَّبة كتبت حروفها كاملة مثال أ ل م ن ي و م وسنتناول في نقدنا عدم اطراد كتابة العنوان في كل المواد.

* يبدأ المدخل أول السطر مكتوباً بالحبر المشبع (الأسود) وذلك في مقابل القوسين في المعجم الوسيط. كما يكتب بالأسود أيضاً رمز مصدر الفعل وهو (مص)، وهذا المدخل في المعجم الوسيط موضوع بين قوسين (   ) مسبوقين بنجمة. وقد استغنى الأساسي عن هذه النجوم بالكتابة بالحبر الأسود.

* لا يشتمل المعجم على أية صورة أو رسم توضيحي. ويبدو أن خطة المعجم رسمت بادىء ذي بدء على أساس اشتماله على الصور والرسوم الإيضاحية، حيث أشار إلى ذلك أحمد العابد عضو لجنة تأليف المعجم الأساسي هذا في بحث ألقاه في مؤتمر «مائوية ثلاثة من المعجميين» المنعقد في تونس في ١٥-١٧ من ابريل ١٩٨٦، حيث ذكره، بين مراجعه - وكان لايزال مخطوطاً - فقال : «وهو معجم لغوي تتخلله معلومات موسوعية ومصطلحات علمية مختارة وشواهد وأمثلة توضيحية كثيرة، وصور ورسوم إيضاحية منتقاة»[٣٣] .

وسنتناول إغفال الصور في نقدنا للمعجم ومقارنته بالمعجمات الحديثة التي تهتم في إخراجها بالصور الإيضاحية.

* اختارت لجنة المعجم تسعة عشر رمزاً قصداً للاختصار وتلافياً للتكرار، بعضها رموز استخدمها المعجم الوسيط فعلاً، وهي (ج) لبيان الجمع، (و-) للدلالة على تكرار الكلمة لمعنى جديد، (مو) للدلالة على المولَّد الذي استعمله العرب قديماً، وأُعطِي معنى جديداً بعد عصر الرواية[٣٤] و(مع) للمعرب وهو اللفظ الأعجمي الذي دخل العربية دون أن يصحبه تغيير. و(مج) للفظ الذي اعتمده مجمع اللغة العربية بالقاهرة[٣٥] . ومن رموز المعجم الأساسي أيضاً (مح) أي مُحْدثة.. للفظ الذي استعمله المحْدثون في العصر الحديث، وشاع في لغة الحياة العامة. وقد اختار الوسيط كتابة كلمة (مُحْدثة) بدلاً من (مح) ويبدو أن المجمع اللغوي عدل عن رمز (مح) حتى لا تصحف مع (مج) بالجيم. ورمز المعجم للمصدر بالرمز (مص) ولمفرد الاسم المجموع بالرمز (مف) أي مفرده أو مفردها. ورمز لجمع المذكر السالم بالرمز (ج - و ن) وللمؤنث السالم بالرمز (ج - ا ت) ورمز بالشرطة المائلة (/) للحرف (أو) أما رمزا (هـ) و(م) فهما معروفان للتاريخ الهجري والميلادي. والرمز (ت) لتاريخ الوفاة. ووضع الآية القرآنية بين قوسين مزهَّرين[٣٦] .

* وضعت الحروف التي قامت عليها الأبواب وسط دائرة بيضاوية بخط نسخيّ كبير في صفحة جديدة يميناً أو شمالاً. وكتب المعجم كله بحجم واحد.

* اهتم المعجم بضبط المداخل وأبواب الفعل والآيات القرآنية والأحاديث والأمثلة، مع ضبط الشرح في مواضع كثيرة.

* وقد فات المصححين أخطاء في الطبع سأبينها في النقد.

* مقاس غلاف المعجم : ١٧ X ٢٤ سم وهو تقريباً مقاس أغلفة معجمات دار «لاروس» الفرنسية، حيث بلغ معجم «لإروس السبيل» ١٦ X ٥ر٢٣سم. والتصميم الرئيسي في غلاف المعجم هو التصميم الرئيسي لمعجم «لاروس» واللون الأحمر واحد في كليهما. والسبب في ذلك أن دار «لاروس» هي القائمة بالتوزيع. يقول الدكتور محيي الدين صابر في المقدمة : «وإنه ليسرّ المنظمة أن تصدر هذا المعجم، بالتعاون مع مؤسسة

لاروس العالمية التي أشرفت وتشرف على إصدار المعاجم والموسوعات ذات المكانة العلمية الرفيعة وباللغات المختلفة»[٣٧] .

نقـــــد

إن الإضاءة التي قدمناها فيما سبق، وتناولنا فيها وصف المعجم الأساسي، تعد منهجياً جزءاً من النقد الذي يُعنَى بالتفسير والتحليل، كما يُعنَى بما في العمل المنقود من مزايا وعيوب.. ولمزيد من الدقة في التحديد جعلنا عنوان هذا القسم هو «نقد» وإن كان البحث كله داخلاً في هذا الإطار، وصفاً وتحليلاً وملاحظات..

وقد بوبنا ملاحظاتنا في أبواب ثلاثة :

١ - المادة اللغوية : مصادرها، وترتيبها في المعجم، وأسلوب شرحها، وتقويم ذلك كله.

٢ - المادة الموسوعية : مصادرها، وترتيبها في المعجم، وطريقة عرضها، والحجم المخصص لكل وحدة منها، وتقويم ذلك كله.

٣ - إخراج المعجم : موقف المعجم من الإخراج الحديث، ومن الرموز، والصور والرسوم التوضيحية، والأخطاء في المادة المطبوعة.

أولاً : المادة اللغوية :

(أ) المصـــادر :

* لعل أول سؤال يخطر على بال الناقد اللغوي عند صدور معجم عربي جديد هو: هل هو معجم محافظ يستقي مادته من المعجمات العربية القديمة، والقرآن الكريم والحديث الشريف، والأمثال العربية، وأقوال العرب الفصحاء في عصور الاحتجاج[٣٨]؟ أو تراه معجماً يجمع بين الأصالة والمعاصرة «يضع ألفاظ القرن العشرين إلى جانب ألفاظ الجاهلية وصدر الإسلام، ويهدم الحدود الزمانية والمكانية التي أقيمت بين عصور اللغة المختلفة»[٣٩] كما حدث في (المعجم الوسيط)؟

* والسؤال التالي الذي يوجهه الناقد اللغوي هو :

إذا كان هذا المعجم الجديد قد اختار الصيغة الثانية التي تضيف الجديد إلى

القديم، فما المقياس الصوابي الذي جرى عليه واضعو المعجم في اختيار المادة المعاصرة؟ هل التزموا بما ارتضى مجمع اللغة العربية أن يضعه في معجماته: الكبير، والوسيط، والوجيز، وما أقره من قرارات في أصول اللغة والألفاظ والأساليب؟

وأجيب عن السؤال الأول من قول الدكتور محيي الدين صابر في مقدمة المعجم: «ويضم هذا المعجم نحواً من خمسة وعشرين ألف مدخل مرتبة ألفبائياً انطلاقاً من جذر الكلمة، مفسرة بدقة وإيجاز، ومعززة بالشواهد والأمثلة من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والأمثال والعبارات السياقية ولغة المعاصرة..»(٤٠) .

وأجيب عن السؤال الثاني بما جاء في المقدمة نفسها: «وهو (أي المعجم) لا يستنكف - في معاشرة حميمة لحركة اللغة - أن يورد الكلمات المولدة والمعربة والدخيلة التي دخلت الحياة واستعملها رجال الفكر والثقافة وأقرتها المجامع اللغوية»(٤١) .

ومضمون ما قاله د. محيي الدين صابر في النصين اللذين جعلناهما جواباً عن سؤالَيْنا، هو نفسه مضمون ما قاله الدكتور إبراهيم بيومي مدكور في مقدمة الطبعة الأولى من (المعجم الوسيط): «واستعانت اللجنة في شرحها للألفاظ بالنصوص والمعاجم التي يعتمد عليها، وعزَّزته بالاستشهاد بالآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، والأمثال العربية، والتراكيب البلاغية المأثورة عن فصحاء الكتاب والشعراء..»(٤٢) .

وما قاله عقب ذلك : «وأدخلت اللجنة في متن المعجم ما دعت الضرورة إلى إدخاله من الألفاظ المولَّدة، أو المحْدثة، أو المعرَّبة، أو الدخيلة، التي أقرها المجمع، وارتضاها الأدباء، فتحركت بها ألسنتهم، وجرت بها أقلامهم»(٤٣) .

ونستنتج من ذلك أن المعجم الأساسي لم يأت بجديد يميزه عن المعجم الوسيط إلا ما قد جد في الفترة الواقعة بين صدور الطبعة الثالثة من الوسيط عام ١٩٨٥ وصدور الطبعة الأولى من الأساسيّ عام ١٩٨٩. ويكون مصدر هذا الجديد - غالباً - هو المجمع اللغوي نفسه.

ولكن

سلك المعجم الأساسي مسلكاً أطاح بكل الحدود والفواصل، وخلط الأوراق، فلم يميز بين ما هو عربي أصيل معتمد في عصور الاحتجاج، وما هو معرب قديماً منصوص عليه

في المعجمات وكتب المعرب، وما هو مولد في لفظه أو معناه، وما هو مُحدث اعترف به المحدَثون، وما هو مما أقره مجمع اللغة العربية.. وفي هذا من الخطورة على اللغة العربية ما فيه..

وبيان ذلك أن المعجم الأساسي في تحديد منهجيته قد نص على الرموز المستخدمة في المعجم، ومنها الرموز التي تضع حدوداً بين الألفاظ وهي: (مج) للفظ الذي اعتمده مجمع اللغة العربية، و(مو) أي مولد، وهو اللفظ العربي الذي استعمل قديماً وأُعطِي معنى جديداً بعد عصر الرواية، و(مح) أي مُحْدثة، وهي الكلمة العربية التي حملت معنى جديداً في العصر الحديث و(مع) أي معرب، وهو اللفظ الأعجمي الذي دخل العربية مع تغيير ليتوافق مع أوزانها. و(د) أي دخيل، وهو اللفظ الأعجمي الذي دخل العربية دون أن يصيبه تغيير.

هذه الرموز التي هي أشبه ببطاقات الهُوية لكل لفظ قد سقطت من مادة المعجم إلا قليلاً جداً مما نشبهه بفلول متناثرة لا تقدم أو تؤخر..

وهذا النقص الخطير الذي يطيح بالمعجم يحتاج منا الآن لإيراد أمثلة من المواد للبرهنة عليه، سالكين مسلك المقارنة بين الأساسي والوسيط..

وقد اقتضى المنهج أن نتناول هنا مع المصادر موضوع إغفال الرموز، وموضعه الشكلي مع الإخراج، لأنه يتصل اتصالاً مباشراً بموضوع مصادر المعجم، إذ تقوم الرموز بدور كبير في تحديد المصادر التي استقى منها المعجم مادته.

وفيما يلي ما تسمح به مساحة البحث من أمثلة :

المعجم الوسيط	المعجم الأساسي
* الكلمة : الآبَنُوس	* الكلمة : آبنُوس
الرمز : (د) أي دخيل	الرمز : لم يذكر
* الكلمة : الآجُرّ	* الكلمة : آجُرّ
الرمز : (مع) أي معرب	الرمز : لم يذكر
* الكلمة : الآس	* الكلمة : آس

المعجم الوسيط	المعجم الأساسي
الرمز : (د)	الرمز : لم يذكر
* الكلمة : الإرهابيون.. (مادة رهب)	* الكلمة : إرهابي ج إرهابيون (مادة : رهب)
الرمز : (مج) أي مجمع	الرمز : لم يذكر
* الكلمة : البِلازْما	* الكلمة : بلازما
الرمز : (مج)	الرمز : لم يذكر
* الكلمة : التَّبْغ	* الكلمة : تبغ
الرمز : (مج)	الرمز : لم يذكر
* الكلمة : السِّيجار	* الكلمة : سيجار
الرمز : (د)	الرمز : لم يذكر
* الكلمة : السِّيجارة	* الكلمة : سيجارة
الرمز : (د)	الرمز : لم يذكر
* الكلمة : السيَّارة : عرَبة آلية	* الكلمة : سيارة ج سيارات – عربة آلية
الرمز : (محدثة)	الرمز : لم يذكر
* الكلمة : السِّيخ.. عود مدبّب	* الكلمة : سيخ : عود مدبب
الرمز : (مج)	الرمز : لم يذكر
* الكلمة : المَلْبن	* الكلمة : ملبن
الرمز : (مو)	الرمز : لم يذكر
* الكلمة : المَلْبنة	* الكلمة : ملبنة
الرمز : (محدثة)	الرمز : لم يذكر
* الكلمة : المَرْدَقُوش..	* الكلمة : مردقوش..
الرمز : (مع)	الرمز : لم يذكر
* الكلمة : المقْطع.. وحدة صوتية	* الكلمة : مقطع
الرمز : (مو)	الرمز : لم يذكر

المعجم الوسيط	المعجم الأساسي
* الكلمة : القِيثار والقِيثارة	* الكلمة : قيثارة ج : قَياثِر وقيثارات
الرمز : (د)	الرمز : لم يذكر
* الكلمة : قلاوُوظ	* الكلمة : قلاووظ
الرمز : (د)	الرمز : لم يذكر
* الكلمة : الكَبِيسة (السنة ..)	* الكلمة : كبيسة
الرمز : (مو)	الرمز : لم يذكر
* الكلمة : المِكْبس	* الكلمة : مكبس
الرمز : (مو)	الرمز : لم يذكر
* الكلمة : الكَتْكوت	* الكلمة : كتكوت
الرمز : (مو)	الرمز : لم يذكر
* الكلمة : كاتم السر	* الكلمة : كاتم السر
الرمز : (محدثة)	الرمز : لم يذكر
* الكلمة : الكُحْلِيّ.. لون	* الكلمة : كحلى لون..
الرمز : (مو)	الرمز : لم يذكر
* الكلمة : الكُرْباج	* الكلمة : كرباج ج كرابيج
الرمز : (د)	الرمز : لم يذكر
* الكلمة : الكَرْدينال	* الكلمة : كردينال
الرمز : (د)	الرمز : لم يذكر
* الكلمة : الكَرَز	* الكلمة : كرز
الرمز : (د)	الرمز : لم يذكر
* الكلمة : الكراسيّ (أستاذ كرسي)	* الكلمة : كرسي (أستاذ كرسي)
الرمز : (محدثة)	الرمز : لم يذكر
* الكلمة : اللَّوْزِينَج	* الكلمة : لوزينج
الرمز : (مع)	الرمز : لم يذكر

المعجم الوسيط	المعجم الأساسي
* الكلمة : الملهاة : مسرحية	* الكلمة : ملهاة
الرمز : (محدثة)	الرمز : لم يذكر
* الكلمة : النَّيْلوفَر	* الكلمة : نيلوفر
الرمز : (مع)	الرمز : لم يذكر

ومن الرموز التي أفلتت من الحذف في المعجم الأساسي :

* عملة متداولة (ص ٨٦٨) : (مو)
فِلْم، فيلم (ص ٩٥١) : (د)
* مَقلب (ص ١٠٠٣) : (محدثة)[٤٤]
قَناعة بمعنى اقتناع (ص ١٠١٠) : (محدثة)
* مكيّف الهواء (١٠٦٣) : (مو)
منفضة السجائر (ص ١٢١٧) : (محدثة)
* نظّارة (ص ١٢٠٦) : (محدثة)
ممارسة (ص ١١٣١) : (محدثة)
* نِمرة أي رقم (ص ١٢٣٢) : (محدثة)
طوَّر الشيء : عدله وحوله من طور إلى طور (مج)
* نموذج (ص ١٢٣٤) : (د)
مِيرْكِيرُوكْرُوم (ص ١١٣١) (د)

ولكن ذكر هذه الرموز الدالة على أصول الكلمة قُلٌّ من كُثْر لم تذكر فيه الرموز، بل إنَّ ضرر ذكرها لا يقل عن إغفال الكثرة الكاثرة من الرموز، حيث توحي هذه الرموز التي ذكرت بأن ما عداها في المعجم عربي أصيل. وليس كذلك.

(ب) الترتيب :

إن دقة الترتيب، ووضوح التبويب من المنهجيات الأساسية في صناعة المعجم. وقد أحسن واضعو المعجم صنعاً في اتخاذ جذر الكلمة أساساً للترتيب وفق الحرف الأول فالثاني فالثالث من حروف الهجاء، ولم يسلك مسلك بعض المعجمات الحديثة التي تغفل جذر الكلمة وترتب الكلمات ترتيباً مطلقاً كدليل الهاتف[٤٥]

ولكن : هل التزم واضعو المعجم بالخطة التي وضعوها للترتيب؟[٤٦]

الجواب : أفلت منهم كثير، وانحرف عن الخطة الموضوعة. ونبرهن فيما يلي على هذا الرأي:

* قالوا في منهجية المعجم : «تطلب الأسماء الجامدة غير المشتقة حسب ترتيب حروفها، ومثلها المعرّب والدخيل». وزيادة في الإيضاح يقولون في المادة التي يحتمل وجود الاسم الجامد أو المعرب أو الدخيل فيها : (انظر : ألفبائيا) مثل : أنجل... وإنجيل (انظر : ألفبائيا) وحطأ.. الحطيئة (انظر : ألفبائيا) هذا مسلك منهجي.

وتسأل : لماذا اختلّت هذه القاعدة في الأحوال الآتية:

* المَرْهم: وضع في مادة (رهم) وشرح بأنه «دهان طبي يوضع على الجروح والقروح ونحوها». ثم وضع مرة أخرى في مادة (مرهم) وشرح شرحاً مغايراً هو «مركّب دهني علاجي يدهن به الجرح أو يدلك به الجلد أو تكحل به العين». ووضع المرهم في مادة (رهم) صحيح كما جاء في القاموس المحيط (رهم) : «والمَرْهم كمقعد: طلاء لين يطلى به الجرح مشتق من الرِهْمة لِلينه».

فوضعهم للمَرهم في (رهم) ص ٥٥٦ هو الصحيح. وإعادته في ص ١١٣١ في مادة (مرهم) وتعريفه بتعريف آخر، خطأ من وجهين: الأول : أنهم لم يكتفوا بتعريف واحد ويحيلوا على موضعه في المعجم. والثاني : اختلاف التعريف لشيء واحد في موضعين في معجم واحد.

وفي تقديري أنهم اتبعوا «المعجم الوسيط» الذي لم يذكر (المرهم) في مادة (رهم) بل ذكرها في (مرهم) كأنه اسم جامد. والدليل على هذا الاتباع للوسيط أن مؤلفي الأساسي نقلوا تعريف (المرهم) من الوسيط ونصه: «المرهم مركب دهني علاجي ذو أنواع مختلفة، يدهن به الجرح، أو يدلك به الجلد، أو تكحل به العين (ج) مراهم» ويلاحظ القارئ أني التزمت في تعريف الوسيط للمرهم بوضع الفواصل ولم أضعها فيما نقلت عن الأساسي من قبل لأنهم كذلك يصنعون.. يحذفون الفواصل كثيراً وهذا عيب في تحرير المعجم!

* ومما يدل على اتباعهم (الوسيط) فيما يخالف منهجم :

١ - وضعهم شهر (مارس) في مادة (مرَس) وفي خلال المادة كأنه اسم عربي مشتق، ولم يضعوه في ترتيبه الألفبائي لأنه معرب (ص ١١٢٩). وكان مكانه وفق المنهج هو في (ص ١١١٤) عندما قالوا : (انظر : مرس).

والسبب في هذا الخلط أن المعجم الوسيط وضع (مارس) في (مرس) (ص ٨٦٣).

٢ - وضعهم شهري (كانون) في مادة (كنن) كأنه اسم عربي وليس كذلك. والوضع الصحيح له هو في ص ١٠٢٣ عندما قالوا : (انظر : كنن). والسبب في هذا الخلط أن المعجم الوسيط وضع (كانون) في (كنن).. ولكن هؤلاء نسوا منهجهم وهم ينقلون عن الوسيط مادة وترتيباً!!

ويؤيد وجهة نظرنا أنهم وضعوا شهر (شباط) في موضعه الألفبائي، وأحالوا عليه في مادة (شبط) فلماذا لم يصنعوا مثل ذلك في مارس وكانون؟!

* اسم العلم يوضع في مكانه الألفبائي كالمتنبي، ذكر في ترتيبه ولم يذكر في (نبأ) والمتوسط، ذكر في ترتيبه ولم يذكر في (وسط). وإذا طبقنا ذلك على اسم المشتري (الكوكب) فقد كان القياس أن يذكر في ترتيبه الذي يبدأ بالميم ثم الشين ثم التاء... ولكن المعجم ذكره في مادة (شرى) فلماذا حدث هذا التناقض؟.

الرأي عندي أنهم نقلوه عن المعجم الوسيط الذي وضعه في مادة (شرى) ونسوا منهجهم أو غفلوا عن تطبيقه. بل إنهم عاملوه معاملة اسم الفاعل من اشترى فقالوا (ص ٦٨٥) : مشترٍ (المشتري) : أكبر الكواكب السيارة.

* الديباج: كلمة معربة عن الفارسية؛ وكان المنهج يقتضي وضعها في ترتيبها الالفبائي، ولكنهم وضعوها في مادة (ذيج) كأنها كلمة عربية. وأحالوا عليها في مادة (ديباج) والعكس هو الصحيح. والسبب في ذلك أنهم نقلوا المادة من المعجم الوسيط الذي وضعت فيه في (دبج).

* كلمة (قلاووظ) وكلمة (قيثارة) كلتاهما دخيلة غير عربية، ولكن المعجم وضع (قلاووظ) في مادة (قلظ) ووضع (قيثارة) في ترتيبها الألفبائي، فلماذا لم يضعها في (قثر) بل اكتفى بالإشارة في آخر مادة (قثأ) بقوله : قيثارة (انظر ألفبائيا).

لقد كان منهج الترتيب يقتضي وضع (قلاووظ) في ص ١٠٠٢ قبل (قلب) بدلا من ص ١٠٠٤. ولكنه التناقض.

* يضع المعجم الأعلام في ترتيبها الألفبائي دون عنوان، ولكنه وضع اسم (الشّنفرَى) تحت عنوان (ش ن ف ر ى) واسم (الشهابي) تحت عنوان (ش هـ ا ب ي ي) فلماذا هذا الاختلاف في المنهج؟.

(جـ) أسلوب الشرح والتعريف :

الشرح والتعريف في أي معجم من أهم مقوماته، والمعجم المعاصر يجب أن تشرح مفرداته وتفسر بدقة ووضوح، وأن تعرف مصطلحاته تعريفا علميا تتحقق فيه شروط التعريف المنطقي، وأن يقرن الشرح والتعريف بالشواهد والأمثلة والعبارات السياقية.

* والسؤال الذي يخطر على بال الناقد اللغوي في هذا المقام هو : هل تحقق للشرح والتعريف في المعجم الأساسي من الدقة والوضوح والمنهجية ما يجب أن يتحقق في المعجم المعاصر؟

والجواب يتضح في الملاحظات التالية :

١ - اعتمد المعجم اعتماداً يكاد يكون كليا على المعجم الوسيط في تعريف المصطلحات دون إشارة أو رمز.

وشرح الكلمات الحديثة دون إشارة أو رمز. وتلتمس هذه فيما رمز إليه الوسيط برمز (مج) أي مجمع، وهو الرمز الذي لم يذكره المعجم الأساسي، كما بينا في النقد الخاص بالرموز فيما سبق(٤٧) .

٢ - اعتمد المعجم أيضا على المعجم الوسيط في شرح كثير من الكلمات دون إشارة حيث يورد الشرح بنصه أحيانا، ويغير تغييرا طفيفاً أحيانا.. وهذه بعض الأمثلة :

المعجم الوسيط	(جَيْب) القميص ونحوه: ما يدخل منه الرأس عند لبسه، وجيب الثوب: ما توضع فيه الدراهم ونحوها. (مو)
المعجم الأساسي	جيب القميص ونحوه: ما يدخل منه الرأس عند لبسه، وجيب الثوب ونحوه: ما توضع فيه الدراهم وغيرها من الأشياء. (ولم يذكر هنا أن هذا الاستخدام في هذا المعنى مولد، كما صنع الوسيط).
المعجم الوسيط	(المُرَبَّي) : ما يعقد بالسكر أو العسل، من الفواكه ونحوها (ج) مُرَبَّيات (مو).
المعجم الأساسي	مربّى ومربّب: ما يعقد بالسكر أو العسل من الفواكه ونحوها.

المعجم الوسيط	(ردَفه) يردُفه: ركب خلفه ردِف يردَف: ردَفه ويقال: ردِف له أمر: دَهِمه. وفي التنزيل العزيز (قُلْ عسى أن يكونَ رَدِفَ لكم بعضُ الذي تَسْتَعْجِلون).
المعجم الأساسي	رَدَف الرجل: ركب خلفه ردِفَ الرجل: رَدَفه و – له أمر : دَهَمه (قل عسى أن يكون ردف لكم بعض الذي تستعجلون). (قرآن).
المعجم الوسيط	(الرحا) الرحى: الاداة التي يُطحن بها، وهي حجران مستديران يوضع أحدهما على الآخر ويدار الأعلى على قطب (ج) أَرْحٍ وأَرْحاء ورُحِيٌّ وأَرْحِية.
المعجم الأساسي	رحا أو رحي : (مؤنثة) تثنية الأولى رَحَوان والثانية رحيان ج أَرْحاء وأرحية : ١ – أداة يطحن بها وهي حجران مستديران يوضع أحدهما على الآخر ويدار الأعلى على قطب.
المعجم الوسيط	(ردم) .. الباب والثُّلْمة – ردما : سدهما و – الحفرة: هال فيها التراب.
المعجم الأساسي	ردَم يردُم رَدْما (في الوسيط: يردِم) الباب والحفرة والفجوة ونحوها: سدها. (ونلحظ أنه جمع الباب والحفرة وقد فرق بينهما المجمع. وأنه جعل الفعل ردم من باب نصر كما يدل الضبط على حين أن المعجم الوسيط فرق بين يردم بالضم وله معنى دام الشيء. والشجر اخضر أما يردِم فهو الذي معناه السد).
المعجم الوسيط	(افتات) في الأمر: استبد به ولم يستشر من له الرأي فيه... و – الكلام : اختلقه.

المعجم الأساسي	افتات في الأمر : استبد به، لم يستشر أحداً فيه. (ونلحظ هنا : ان الأساسي غير في شرح الوسيط فقال: ولم يستشر أحدا فيه. على حين أن الوسيط قال: ولم يستشر من له الرأي فيه. وتظهر ثمرة الخلاف إذا كان المستشار غير ذي رأي، فعلى تعريف الوسيط لا يعد ذلك افتياتا خلافا لتعريف الأساسي. وعبارة تاج العروس: «قال الجوهري الافتيات افتعال من الفوت، وهو السبق إلى الشيء دون ائتمار من يؤتمر» تؤيد الوسيط. على أن الإطلاق وارد أيضا).
المعجم الوسيط	(لحن) في كلامه – لحنا : أخطأ الإعراب وخالف وجه الصواب في النحو فهو لاحن ولحان.
المعجم الأساسي	لحن يلحن لحنا فهو لاحن: الشخص في كلامه : أخطأ في الإعراب وخالف وجه الصواب. التغيير الذي حدث هنا هو زيادة (في) بعد أخطأ. وحذف: في النحو.
المعجم الوسيط	(لعِق) العسل ونحوه – لعقا: لحسه بلسانه أو بإصبعه .... ويقال : لعق فلان إصبعه، كناية عن موته.
المعجم الأساسي	لعق يلعق لعقا فهو لاعق – العسل ونحوه: لحسه بلسانه أو بإصبعه. لعق فلان إصبعه : مات.
المعجم الوسيط	(المروءة): آداب نفسانية تحمل مراعاتها الإنسان على الوقوف عند محاسن الأخلاق وجميل العادات، أو هي كمال الرجولية.
المعجم الأساسي	مروءة : ١ – مص (أي مصدر) مرؤ ٢ – آداب نفسانية تحمل مراعاتها الإنسان على الوقوف عند محاسن الأخلاق وجميل العادات ٣ – كمال الرجولية.

المعجم الوسيط	(النقاب) : القناع تجعله المرأة على مارن أنفها تستر به وجهها (ج) نقب.
المعجم الأساسي	نقاب ج نقب: قناع تجعله المرأة على أنفها تستر به وجهها.
المعجم الوسيط	(نمنمت) الريح التراب: خطّته وتركت عليه أثراً كالكتابة و – الشيء : نقشه وزخرفه. يقال : نمنم كتابه.
المعجم الأساسي	نمنم ينمنم نمنمة : – الشيء : نقشه وزخرفه «نمنم الكتاب» «نمنم الزجاج».
المعجم الوسيط	(النوام) : مرض يصيب الإنسان من عضة ذبابة «تسي تسي» فينام ولا يكاد يفيق، وهو في الكثير الأغلب مميت (مج).
المعجم الأساسي	نوام: مرض يصيب الإنسان من عضة ذبابة «تسي تسي» فينام ولا يكاد يفيق وهو في الأغلب مميت. (وأسقطوا كلمة : الكثير).

ونستنتج مما سبق وهو من مواد مختلفة، في الوسيط والأساسي : أن مؤلفي المعجم الأخير اتخذوا الأول مصدرا لهم في تفسير المواد وشرحها وتعريفها، وإن لم يذكروا ذلك صراحة في مقدمة معجمهم، أو يرمزوا برموز تدل على أن هذه الشروح مقتبسة من المعجم الوسيط.

٣ – نأخذ على المعجم الأساسي أيضا : عدم الدقة في بعض الشروح والتعريفات. ومن ذلك :

* في مادة (لوط) (ص : ١١٠٨) جاء في المعجم: لوط: نبي راج في قومه اللواط، فأبادهم الله.

ولم يرد في هذا التعريف بنبي ورسول: إلى من أرسل؟ وفي أي بلد؟ وما موقفهم من دعوته؟ ونسبه... وإجابة هذه الأسئلة واردة في معجم قديم هو (تاج العروس).

ويتوهم من قولهم: (راج في قومه اللواط) أن لوطا مشتق من اللواط. والعكس هو الصحيح. قال الخليل: «لوط: اسم نبي، كان ذا قرابة لإبراهيم عليهما السلام، بعثه

الله إلى قومه فكذبوه، وأحدثوا ما أحدثوا فاشتق الناس من اسمه فعلا لمن فعل فعل قومه»(٤٩) .

ولا أدري : هل يرضى أحد من مؤلفي المعجمات أن يقال في التعريف بلوط: نبي راج في قومه اللواط؟

* في مادة (أسطوانة) تقل مؤلفو المعجم جزءا من التعريف من المعجم الوسيط (١٧/١) وأغفلوا جزءا مهما يكمل الجزء الذي نقلوه.

فقد قال المعجم الوسيط : (الأسطوانة) – في الهندسة: جسم صلب نو طرفين متساويين، على هيئة دائرتين متماثلتين، تحصران سطحا ملفوفا بحيث تمكن متابعته بخط يتحرك موازيا لنفسه، وينتهي طرفاه في محيطي هاتين الدائرتين.

ووقف المعجم الأساسي عند قول الوسيط: متماثلتين، وأغفل جزءا أساسيا من التعريف، مما نعده اختصارا مخلا!!

* وفي مادة (القاوون) جاء في المعجم (ص : ١٠١٧) : القاوون : كلمة تطلق على ما يسمى في مصر الشمام، وفي الشام البطيخ الأصفر(٥٠) .

وهذه إحالة على مادتين هما الشمام والبطيخ، فالتعريف في هذه الحالة قاصر. والسبب في ذلك أن المؤلفين نقلوا التعريف من المعجم الوسيط الذي عرف (القاوون) تعريفا علميا كاملا، فاختصر مؤلفو الأساسي التعريف اختصارا مخلا، جاء في الوسيط في مادة (القاوون) (ص : ٧٦٨) : «نبات عشبي حولي من الفصيلة القرعية يزرع لثماره، وثمرته صفراء حلوة طيبة الرائحة، وتطلق أحيانا على ما يسمى الشمام في مصر، والبطيخ الأصفر في الشام».

فجاء مؤلفو الأساسي وأخذوا الجزء الأخير من التعريف بعد حذف كلمة (أحيانا) ولهذا يعد هذا التعريف قاصرا.

* من التعريفات الناقصة في المعجم الأساسي: تعريف الدرهم (في القديم) بأنه عملة فضية. وعرفوا الدرهم (في الحديث) بأنه : عملة صغيرة تستخدمها بعض البلاد العربية (مثل الإمارات العربية، والمغرب، وليبيا). وقولهم : عملة صغيرة، لا يكفى في تعريف (الدرهم)، ثم كان عليهم أن يحددوا قيمته، فالدرهم في قطر مثلا يساوي ١/١٠٠ من الريال، ودرهم الإمارات يساوي مائة درهم قطري أو أقل قليلا.

ولعل محرر مادة (ريال) كان أدق حين قال: «عملة فضية كانت تستخدم في أكثر من بلد عربي، ويختلف سعرها بحسب البلد والنوع، وما تزال تستخدم حتى الآن في المملكة العربية السعودية وقطر وعمان وغيرها».

* من عيوب الشرح في المعجم: الشرح باستعمال الضد، ومن ذلك: نقصان: مص (مصدر) نقص: عكسه زيادة.

٤ - أشرنا في وصف المعجم الأساسي، فيما سبق إلى أنه يورد بعد الشرح أمثلة سياقية تتضمن أساليب مستعملة إلى جانب بعض الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية والأمثال العربية، والشعر والنثر في العصور المختلفة.

وكل هذة الشواهد والاساليب واردة في المعجم الوسيط بعدد أقل.

ولعل كثرة هذه الشواهد والأمثلة في المعجم الأساسي راجعة إلى أنه معجم مؤلف أساساً للطلاب الناطقين بالعربية ومتعلميها، وهؤلاء يحتاجون فعلا إلى أمثلة لاستخدام الكلمة في سياقها من الكلام، فيعد ذلك إضافة إلى الشرح، وتوضيحا للتعريف.

ولكن.

* أسرف واضعو المعجم في هذا المسلك إسرافا جعل هذا المعجم أقرب إلى أن يكون كتابا تعليميا، وكان عاملا في تضخمه، إلى جانب أن بعض الأمثلة تعد تزيدا.

ونسوق فيما يلي نماذج من هذه الأمثلة :

* تحت عنوان (غ ر ق) جاءت هذه العبارات:

- غرق - الشخص في الماء: غار فيه فمات بالاختناق.

«كاد يغرق لأنه لا يحسن السباحة».

- غرقت السفينة ونحوها: رست في الماء، «اصطدمت الباخرة بالصخور قرب الشاطيء وغرقت».

- غرق في الأمر أو الشيء: أحاط به الأمر أو الشيء وغمره وغلبه.

«تاجر غارق في الدين». «مكتب غارق في الفوضى» ، «عينان غارقتان في الدموع»، «رجل غارق في أفكاره» «غرق في شبر ماء»: لم يتصرف بحكمة، «غرق

في الوحل»: تورط في أعمال غير مشروعة. «غرق لأذنيه» استغرق العمل كل وقته.

- أغرق : ١- جاوز الحد. بالغ «أغرق في الضحك» ٢ - غرق «أغرق السفينة»، (فاغرقناهم في آليم) (قرآن) ٣ - السوق بالبضاعة: أدخل فيها من البضاعة فوق حاجة المستهلك.

- استغرق: يستغرق استغراقا: ١ - في الشيء: جاوز فيه الحد، بالغ «استغرق في الضحك»، «استغرق في العمل» ، «استغرق في النوم»، «استغرق في التفكير». ٢ - الشيء: استوعبه «استغرقت الزيادة أسبوعا».

- غرق: مص (مصدر) غرق. مشرف على الغرق: يكاد يغرق.

- غريق ج غرقى: من غار في الماء فهلك بالاختناق «إنقاذ الغرقى»، «أنا الغريق فما خوفي من البلل» (مثل شعري).

وبمراجعة الأمثلة التوضيحية في مادة (غرق) التي استغرقت ٣٠ سطرا في المعجم، نجد أن هذه الأمثلة تمثل ٢٠ عبارة! وهذا يعد إسرافاً في الأمثلة.

* وهذا نموذج آخر للإسراف في الأمثلة، تحت عنوان (ق د ر) :

- قدر الشيء : ١ - بين مقداره «قدّر ثمن البضاعة» ٢ - الأمر : دبره وفكر في تسويته، ٣ - اللحم : طبخه في القدر، ٤ - الله الرزق: ضيقه (وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه)، ٥ - الشيء حق قدره : أعطاه ما يستحقه من عناية أو تعظيم (وما قدروا الله حق قدره) (قرآن).

- قدّر يقدر قدارة فهو قادر: - على الشيء: تمكن منه، استطاع «قدر على الصعود إلى الجبل»....

- قدّر يقدر تقديراً : ١ - الشيء : قاسه «قدر مساحة الأرض»، «قدر مدى الخسائر»، ٢ - الشيء: قومه «قدره حق قدره»، ٣ - الشخص: احترمه «قدر التلميذ معلمه»، «تقدير شخصي»، «جدير بالتقدير». ٤ - الله الأمر : حكم به، لا قدر الله لك الشر. دعاء بالخير.

- أقدر يقدر إقدارا : ١ - ٥ . رآه قديراً «أقدر الموظف على تحمل مهامه» ٢ - ٥ على كذا : قواه وصيره قادراً عليه.

- تقدر يتقدر تقدراً : - له كذا : تهيأ «تقدر له أن يصبح غنياً»، ٢ - عليه الأمر : جعل له وحكم به عليه.

- تقدير. ١ مص (مصدر) قدر، ٢ ج - ات (أي جمعه تقديرات) : تفكير بروية «التقدير في الأمر» ٣ - احتمال مقابل التحقيق «في تقديري أنه كاذب» ٤ - توقع «تقديرات الميزانية»، «تقديرات مالية»، «تقدير قيمة السلعة» ٥ - معيار تقيم به درجات الطالب في الجامعة «نجح بتقدير مقبول/ جيد/ جيد جدا/ ممتاز».

- قادر: ١ - ج للعاقل - ون: من له طاقة واستطاعة «قادر على تحمل الصعاب» «دولة قادرة على تجاوز الأزمة الاقتصادية» ٢ ال - من أسماء الله الحسنى.

ولا يزال في مادة (ق د ر) ٣٩ سطرا تضم ٢٧ عبارة سياقية إلى جانب ما أوردناه سابقا وقدره عشرون عبارة!!

وأعود فأقول: قد يعتذر مخططو المعجم ومؤلفوه بأنه موجه للمتعلمين لا للمعلمين ولهذا تكثر العبارات السياقية.. ولكن وجهة نظري أن هذا إسراف ضخم المعجم وجعله أشبه بكتاب لتعليم اللغة!

٥ - من أهم ما يجب تحققه في المعجم توحيد المصطلح الوارد في المدخل والوارد في الشرح. أما ان يكون الشارح لكلمات المعجم يستخدم مصطلحا ورد في مداخل المعجم مغايرا لما جاء في الشرح، فهذا مالا يرتضيه المنهج، ويصف واضعي المعجم بأنهم «يقولون مالا يفعلون».

* ومن الأمثلة على هذا الخلل المنهجي : وصف الحروف العربية (الأصوات) في أوائل الأبواب بوصف معين، وشرح صفات هذه الأصوات في أماكنها في المعجم بوصف آخر :

١ - في المدخل (لثوي) قال المعجم: «الحروف اللثوية (في علم الأصوات) وهي : الثاء والذال والظاء» : ووصف هذه الأصوات الثلاثة بأنها لثوية، وارد في شرح المفصل لابن يعيش[٥٢] ، وفي النشر في القراءات العشر، لابن الجزري[٥٣] ، وفي المعجم الوسيط[٥٤] . وعللت هذه الكتب وصفها بأن مبدأها من اللثة.

والمأخذ الذي نأخذه على محرر المعجم أنه خالف هذا الوصف باللثوية عند الكلام

على هذه الأصوات الثلاثة :

- فعند وصف الثاء قال: «وهو صوت بين أسناني»، أي ليس لثويا[٥٥] .

- وعند وصف الذال قال: «وهو صوت بين أسناني»، أي ليس لثويا[٥٦] .

- وعند وصف الظاء قال: «وهو صوت بين أسناني»، أي ليس لثويا[٥٧] .

أما الأصوات اللثوية التي جاءت في أوائل الأبواب فهي أصوات ثلاثة أخرى غير الثاء والذال والظاء وهي :

- الراء : قال المعجم: صوت لثوي[٥٨] .

- اللام : قال المعجم: صوت لثوي[٥٩] .

- النون : قال المعجم: صوت لثوي[٦٠] .

وهكذا يجد قاريء المعجم أن الأصوات اللثرية في مادة (لثوي) هي الثاء والذال والظاء، وأن هذه الاصوات الثلاثة في أوائل الأبواب : «بين أسنانية»، وأن الأصوات اللثوية في أوائل أبواب أخرى هي الراء واللام والنون.

<u>فماذا يكون الخلل والاضطراب غير هذا؟!</u>

٢ - في وصف الأصوات في أوائل الأبواب نقص ترتب على إهمال صفة للصوت ينبغي أن تذكر، ولكنها لم تذكر.

فالأساس الذي جرى عليه المعجم، وهو أساس سليم، أن يكون وصف الصوت متضمناً : المخرج، والصفة من حيث الشدة، والرخاوة والتوسط، والجهر والهمس، والترقيق والتفخيم، ووظيفة الحرف في الكلام إن كان من حروف المعاني.

ولكن أغفل المعجم في وصف الأصوات الأربعة : الراء، واللام، والميم، والنون (في أوائل أبوابها) أنها متوسطة بين الشدة والرخاوة. وهذا نقص ينبغي تلافيه في الطبعة الثانية للمعجم.

٣ - اختار المعجم في وصف الهمزة أن صفتها من حيث الجهر والهمس: «صوت مهموس»[٦١] ، وهذا الرأي في وصف الهمزة مأخوذ عن المستشرق الفرنسي «جان كانتينو» في بيانه للأصوات المهموسة (Sourdes)[٦٢] على حين أن سيبويه عد

الهمزة صوتاً مجهوراً[٦٣]. وهي عند الدكتور إبراهيم أنيس صوت لا هو بالمجهور ولا بالمهموس، لأن فتحة المزمار معها مغلقة إغلاقا تاما، فلا نسمع لهذا ذبذبة الوترين الصوتيين»[٦٤] .

وقد أخذ المعجم الوسيط برأي الدكتور إبراهيم أنيس وقال: «ولا يوصف بالجهر أو الهمس»[٦٥] . والدكتور أحمد مختار عمر، وهو محرر المعجم الأساسي، ذهب هذا المذهب في كتابه (دراسة الصوت اللغوي) وقال: «اللامجهور واللامهموس ويشمل ذلك صوتاً واحداً هو الهمزة»[٦٦] .

فهل عد الهمزة صوتا مهموسا غلطة مطبعية؟ إن كان ذاك فلعلهم يراجعون ذلك في الطبعة التالية. وإن كانوا اعتمدوا على (كانتينو) الذي خالف سيبويه واللغويين العرب المحدثين فلعلهم يشيرون إلى ذلك.

٤ – في تعريف «الصوت المهموس»[٦٧] وقعت غلطتان : الأولى أنهم عرفوا الأصوات المهموسة بأنها «هي التي لا يتذبذب الوتران الصوتيان أثناء النطق بها» (في المعجم: بهما) ونسي الشارح قيدا مهما هو «ذبذبة منتظمة» فالانتظام في الذبذبات هو الذي لا يقع مع المهموس، أما مطلق الذبذبات فهو موجود مع المجهور والمهموس. ولهذا تلافى محرر المادة هذا النقص فقال في تعريف المجهور[٦٨] : «صوت يتذبذب معه الوتران الصوتيان في الحنجرة ذبذبات منتظمة».

والغلطة الثانية في مادة المهموس: أنهم مثلوا للصوت المهموس بصوتين غير مهموسين بل هما مجهوران، وهما: الباء والدال. فهذه غلطة أخرى إن لم تكن مطبعية فهي غلطة كبري. وكان لهم أن يمثلوا بأي صوت من الأصوات المهموسة التي يجمعها قولك (حثه شخص فسكت). وفي المادة غلطتان مطبعيتان هما: اثناء النطق بهما، وعكسهما. والصواب: بها، وعكسها، أي الأصوات المهموسة.

٥ – ومن النقص في وصف الأصوات : وصف الفاء من حيث المخرج بأنها «صوت شفوي» ودقة الوصف تقتضي أن يقال : شفوي أسناني، وهذا معروف في كتب اللغة والأصوات، ولا يحتاج منا إلى استدلال.

* والمثال الثاني على الخلل المنهجي الناجم عن اختلاف المصطلحات المستخدمة في

تحرير المعجم : عدم توحيد المصطلح الوارد في وصف الشهور، فالشهور السريانية تتداخل في الشهور الشمسية، وترتب بترتيبها، والشهور الشمسية توصف مرة بأنها شمسية في مقابل القمرية، ومرة بأنها رومية ومرة بأنها ميلادية.

وسبب هذا الخلل في نظرنا هو النقل من معجمات أخرى. وهذا هو توضيح الخلل المنهجي الذي قررناه :

المعروف في التقاويم المستخدمة في العالم أن بينها :

التقويم السرياني، ويضم اثنى عشر شهرا تبدأ بتشرين الأول وتنتهي بأيلول (تشرين الأول، تشرين الثاني، كانون الأول، كانون الثاني، شباط، آذار، نيسان، أيار، حزيران، تموز، آب، أيلول،) فإذا وصف أحد هذه الشهور قيل : من الشهور السريانية، وعندما يذكر ترتيبه يكون على هذا الأساس.

والتقويم الميلادي أو الرومي أو الجريجوري أو الشمسي : وشهوره الاثنا عشر: من يناير إلى ديسمبر.

والتقويم الهجري أو العربي أو القمري : وشهوره الاثنا عشر: من المحرم إلى ذي الحجة.

والتقويم القبطي: وشهوره : (توت، بابه، هاتور، كيهك، طوبة، أمشير، برمهات، برمودة، بشنس، بؤونة، أبيب، مسرى، ثم النسيء).

وهناك التقويم الفارسي : ولا يعنينا هنا، لأن الشهور الفارسية لم تذكر في المعجم الأساسي الذي نتناوله بالنقد.

فماذا حدث في المعجم من الخلل في ذكر انتماء الشهور؟

١ - في المدخل (تشرين[٦٩]) قيل : «اسم لشهرين من شهور السنة الشمسية : تشرين الأول (أكتوبر) وهو الشهر العاشر. وتشرين الثاني (نوفمبر) وهو الشهر الحادي عشر».

فقد حدث خلط بين تشرين، وهو من الشهور السريانية وترتيبه فيها الأول، واكتوبر وهو من الشهور الميلادية (= الشمسية) وترتيبه فيها العاشر.

وكان المعجم الوسيط أدق وأصح حين قال عن (تشرين) : تشرين اسم لشهرين من شهور السنة السريانية[٧٠] .

٢ – وفي المدخل (كانون)[٧١] قيل : «كانون الأول : الشهر الثاني عشر من السنة الشمسية شهر ديسمبر وكانون الثاني : الشهر الأول من السنة الشمسية، شهر يناير «ففي جعلهم شهر كانون هوالثاني عشر خلط بين كانون السرياني وديسمبر الميلادي أو الشمسي، والصحيح أن ترتيب (كانون الأول) في السنة السريانية هو الثالث و(كانون الثاني) هو الرابع من الشهور السريانية، يقابله يناير وهو الأول من السنة الميلادية أو الجريجورية أو الشمسية.

٣ – وفي المدخل (شباط)[٧٢] قيل : «الشهر الثاني من شهور السنة الميلادية يقابله فبراير».

فجعلوا شهر شباط، وهو سرياني، الشهر الثاني من شهور السنة الميلادية (لاحظ استعمالهم الميلادية هنا وقد استعملوا في شهور أخرى : الشمسية) والحق أن شهر شباط هو الشهر الخامس من الشهور السريانية، ويقابله فبراير وهو الشهر الثاني من الشهور الميلادية.

٤ – وفي المدخل (مارس)[٧٣] قيل: الشهر الثالث من الشهور الرومية (آذار) فاستخدموا الشهور الرومية بدلا من الميلادية أو الشمسية كما جرت عادتهم، وهي ثلاثة مصطلحات لشيء واحد..

وفي المدخل (أذار) الذي يقابل (مارس) قيل : «الشهر الثالث من السنة الشمسية كما يعرف في بعض الأقطار العربية، ويعرف في أقطار أخرى باسم (مارس)».

فلم ينسبوا (آذار) إلى الشهور السريانية، وترتيبه فيها السادس، وخالفتهم الدقة حين قالوا : كما يعرف في بعض الأقطار العربية» هكذا دون تحديد لانتماء الشهر وللأقطار التي يعرف فيها، وهذا يخالف السنن المعجمي.

وكان المعجم الوسيط أدق وأصح حين قال عن (آذار) : «آذار» الشهر السادس من الشهور السريانية، يقابله مارس من الشهور الرومية (الميلادية)[٧٥] .

وحين قال عن (مارس) : «الشهر الثالث من الشهور الرومية (الميلادية)[٧٦] ، فمنهج المعجم الوسيط في وصف الشهور أدق وأصح، ومنهج المعجم الأساسي مضطرب مختل.

ثانياً : المادة الموسوعية :

يقصد بالمادة الموسوعية في هذا المعجم ما وضحه الدكتور محيي الدين صابر في مقدمة المعجم بقوله:«وللمعجم سمة موسوعية محددة فهو يتناول عددا من المصطلحات الجديدة، الحضارية والعلمية والتقنية، ويتعرض في إيجاز إلى طائفة كبيرة من أسماء الأعلام، كأسماء القارات والبلدان والمدن والأنهار وأسماء النابغين في التاريخ العربي من خلفاء وقادة وفقهاء وعلماء وشعراء وأدباء وفنانين الخ»(٧٧) .

وقد اخترت في نقدي أن اركز على اسماء الدول العربية، متناولا أمرين:

الأول : المساحة المخصصة لكل بلد عربي.

الثاني : الأساس الذي قام عليه التعريف، وهل هو موحد منسجم في كل البلاد؟

أما من حيث المساحة فقد خصص المعجم للتعريف بكل دولة عددا من الأسطر، بيانها فيما يلي:

١ - هيئة كتب عنها ثمانية أسطر :

* منظمة التحرير الفلسطينية.

٢ - دول كتب عن كل منها ستة أسطر :

* الإمارات العربية المتحدة.

* تونس.

* فلسطين.

٣ - دول كتب عن كل منها أربعة أسطر :

* الجزائر.

* سوريا.

* المغرب.

٤ - دولة كتب عنها ثلاثة أسطر ونصف :

* ليبيا.

٥ - دول كتب عن كل منها ثلاثة أسطر فقط:

* مصر.

* السعودية.
* السودان.
* الصومال.
* موريتانيا.

٦ - دولتان كتب عن كل منهما سطران وربع :
* العراق[٧٨] .
* الكويت.

٧ - دول كتب عن كل منها سطران :
* الأردن.
* البحرين.
* سلطنة عمان.
* لبنان.

٨ - دولة كتب عنها سطر ونصف :
* قطر.

٩ - دولتان كتب عن كل منهما سطر واحد :
* اليمن الشمالية.
* اليمن الجنوبية.

١٠ - وكذلك صنع المعجم في العواصم، فكتب عن بعضها سطراً واحداً مثل عمان، في الوقت الذي كتب فيه عن مدينة (خان يونس) ثلاثة أسطر. ونسى (القاهرة) حيث قال في مادة (قهر) : القاهرة (انظر ألفبائيا) ولم تذكر.!!

وإذا حاولنا الكشف عن سر هذا التوزيع في المساحة داخل هذا المعجم، فإننا لا نملك إلا توجيه عدة أسئلة : لماذا كان الحظ الاوفر في المساحة لمنظمة التحرير الفلسطينية؟ لماذا كان العدد الأكبر من الأسطر لتونس (أما الإمارات فالذي كثر اسطرها هو أسماء الإمارات السبع) وفلسطين؟ على أي اساس خصص لمصر والسعودية والسودان والصومال وموريتانيا ثلاثة أسطر، وللجزائر وسوريا والمغرب

أربعة؟ هل وزعت المساحة في المعجم على أساس المساحة التي تشغلها الدولة؟ هل روعي تاريخ الدولة؟ هل....؟

أسئلة لا جواب لها إلا أن نقول : لقد جانب التوفيق لجنة المعجم الأساسي في هذا الجانب!

الأمر الثاني : هو الأساس الذي قام عليه التعريف بكل دولة.

ومن نظرتنا النقدية استطعنا الوصول إلى الحقائق التالية :

* غفل محررو المعجم في مادة (العراق) فكتبوا عنها في (ص ٨٣٥) تعريفا أساسه بيان الحدود فقالوا : قطر عربي يحده غرباً سوريا والأردن، وشرقاً إيران، وجنوباً المملكة العربية السعودية والكويت، وشمالاً تركيا، عاصمته بغداد (ملحوظة: الفواصل من عندنا وليس في هذه المادة فاصلة واحدة).

وهذا تعريف غريب بقطر من أكبر الأقطار العربية، وكأنه أرض مطلوب تحديد حدودها الأربعة!!

وللإنصاف، وتسجيل الغفلة في الوقت نفسه، نقول: إن المعجم كتب عن (العراق) في موضع آخر، حيث وضع في مادة (عرق) (ص ٨٣٠) وهو التعريف الذي علقنا عليه آنفاً. ووضع (العراق) في ترتيبه الألفبائي وعرفه تعريفا مغايراً هو : «العراق (أو الجمهورية العراقية) جمهورية عربية في غربي آسيا، عاصمتها بغداد، من أهم مدنها: البصرة والموصل وكركوك». فمحا هذا التعريف الثاني ما جاء في التعريف الذي يعتمد على الحدود.. ولكنه اثبت الغفلة على منسقي المواد لذكرهم (العراق) مرتين في ترتيبين!!

* انفرد محرو مادة (الشارقة) بذكر القبيلة التي تنتمي إليها الأسرة الحاكمة في هذه الإمارة وهي (القواسم) ولم يصنع مثل ذلك في (أبوظبي) ولا (دبي) ولا (عجمان) ولا (أم القيوين) ولا (رأس الخيمة) ولا في (الفجيرة).

* ذكر المحرر اسم الأسرة الحاكمة في دولة قطر وهي أسرة آل ثاني، ولم يصنع مثل ذلك في البحرين، ولا في الكويت، ولا في عمان.

ثالثاً : الإخـراج :

تناولنا في وصفنا لهذا المعجم ما يتصل بإخراجه. ونركز هنا في نقد هذا الإخراج على جانبين :

* الجانب الأول : أن هذا المعجم المؤلف في العقد الأخير من القرن العشرين، ولطلاب يتعلمون العربية، لا يشتمل على أية صورة أو رسم توضيحي، على الرغم مما كان مقرراً لهذا المعجم أن يشتمل على هذه الصور والرسوم، كما قال أحمد العابد أحد مؤلفي هذا المعجم في كتاب (في المعجمية العربية: ٥٩٤). على حين أن المعجم الوسيط اشتمل على ستمائة صورة، واشتمل (القاموس الجديد) التونسي على ١١٥٤ صورة. بله الصور التي اشتمل عليها (المنجد) والتي بلغت عند صدوره ألف صورة..!

وإذا أضفنا خلو المعجم الأساسي من الصور إلى خلوه من الرموز الكاشفة عن أصول الكلمات المعربة والدخيلة والمولدة والمحدثة والمجمعية، فإن هذا المعجم يكون قد فقد عنصرين أساسيين من عناصر الإخراج المعجمي المعاصر.

* الجانب الثاني : الأخطاء المطبعية. وقد كشفنا منها عدداً لا يستهان به في معجم لغوي يفترض خلوه من الأخطاء، ومع هذه الأخطاء نذكر الاضطراب في طريقة الكتابة.

وفيما يلي أهم الأخطاء التي جمعناها من المعجم :

١ – من سمات المعجم الجيد الانسجام في طريقة الكتابة، ولكن هذا المعجم اضطرب في كتابة صوت الـ G الإنجليزي فكتب مرة بالجيم العربية. ومرة بالغين، وجمع بينهما في مواضع أخري.

* فمثلاً في مادة أمريكا الوسطى[٧٩] كتب (غواتيمالا) و(نيكارغوا) بالغين.
* واقتصر على كتابة الجيم بالغين في (لاغوس)[٨٠] .
* واقتصر على الكتابة بالجيم في (أكسجين)[٨١] .
* وجمع بين الجيم والغين في كتابة: غرام / جرام (مادة : أقة) ومادة (كيلو) ومادة (هيمجلوبين/ هيمغلوبين).

٢ - وقع في المعجم خطأ في القرآن الكريم في مادة (ف)[٨٢] حيث كتبت الآية ١٧ من سورة الرعد هكذا (وأما الزبد...) والصواب:فأما.

٣ - من العيب في المعجم أن تترك كتابة همزة القطع مما يوهم أنها همزة وصل، ومن ذلك كلمات : اشارة (ص ٤٩٠) وبالاضافة (ص ٩٩٨) وانثى (ص ١١٢٦) وكذلك: لاقامة المسافرين (ص ٩٥١) ولارشاد السفن (ص ٩٥١).

وليس للمشرفين على طبع المعجم أن يدعوا عدم وجود الهمزة التحتية، فإنها موجودة في المعجم، مثل (إذاعة).

٤ - في مادة (الصحاح) قيل : معجم لغوي لابي مضر. والصواب : لأبي نصر.

٥ - في مادة (الصومال) قيل : انضمت إلى جامعة الدول العربي. والصواب: العربية.

٦ - مادة (غ) في أول الباب (ص ٨٨٤) قيل : صوت مهجور والصواب: مهجوز

٧ - في المدخل (مزاوجة) (ص : ٥٩٢) كتبت : مزواجة. والصواب : مزاوجة.

٨ - في النظام الصرفي للغة العربية (ص ٣٥) وفي صياغة المقصور والممدود، قيل : في المصدر على وزن تَفعال من الفعل الناقص مثل : تعداد. وليس في كلمة تعداد قصر ولا مد وليس فعلها ناقصا. والصواب : تعداء.

٩- في المدخل (آسيا) ص ٦٤ كتب: والميحطان. والصواب: والمحيطان.

١٠- في المدخل (حرشف) ص ٣٠٧، ضبطت الفاء بالفتحة كان الكلمة فعل، وهي اسم.

١١ - في المدخل (مرأ) ص : ١١٢٦ قيل صار كالمرأة. ووضعت فتحة على التاء وهو خطأ طباعي. وفي المدخل نفسه : مرىء بكسر الميم. وهو خطأ

١٢ - في المدخل (يقل) ص ١٦٨ قيل: الخضروات بغير ألف، والصواب : الخضراوات.

١٣ - في المدخل (الزبيدي) ص : ٥٦٨ قيل : «معجم تاج العروس في شرح جواهر القاموس» والصواب : «تاج العروس من جواهر القاموس».

١٤ - في المدخل (لتلتة) قيل : اشتغال بأمور زائدة عن المقصود. والصواب - كما جاء في الوسيط الذي نقل عنه الأساسي : «اللتلتة : الاشتغال بالأمور الزهيدة عن المقصود (مو)».

فالزهيدة في الوسيط، كتبت (الزائدة) في الأساسي.

١٥ – في المدخل (مقطع) ص ٩٩٨ قيل: «في علم اللغة» وحدة صوتية تتكون من صائت واحد على الأقل بالإضافة إلى احتمال وجود صائت أو أكثر قبل الصائت او بعده أو قبله وبعده (مثاله لا، لن).

والصواب : « بالإضافة إلى احتمال وجود صامت أي Consonant وبهذا يفهم تعريف المقطع.

١٦ – من أخطائهم في الضبط : جاء في المدخل (زعفران) ص ٥٧٦ كلمة (الحلويات) مضبوطة هكذا (الحَلَوِّيات) كما ينطقها العامة. والصواب : الحلْويات.

١٧ – كذلك وقع الخطأ في ضبط لقب (خير الدين الزركلي) مدخل (الزركلي) ص ٥٧٥ هكذا (الزِرْكلي) أيّ بكسر الزاي وسكون الراء. وهذا خطأ. والصواب بكسر الزاي والراء وسكون الكاف، والزركلي نفسه هو الذي ضبط لقبه صحيحاً في «الأعلام» جـ ١٠.

الهوامش

١ – د. محيي الدين صابر: مقدمة المعجم:٩

واللجان الخمس التي شارك أعضاؤها في وضع المعجم وإعداده هي : (١) لجنة التأليف وتضم كلا من الاساتذة والدكاترة: احمد العابد، أحمد مختار عمر، الجيلاني ابن الحاج يحيى، داود عبده، صالح جواد طعمه، نديم مرعشلي. و(٢) لجنة التنسيق أ. د. علي القاسمي و(٣) لجنة التحرير : أ. د. أحمد مختار عمر. و (٤) لجنة المراجعة أ. د. تمام حسان عمر، أ. د. حسين نصار، نديم مرعشلي. وتضم لجنة الإعداد الفني والإشراف الإداري سبعة من الفنيين والإداريين.

٢ – صدرت منه حتى الآن ثلاث طبعات: الأولى : ١٩٦٠ والثانية : ١٩٧٢ والثالثة : ١٩٨٥ وانظر ما كتب عن (المعجم الوسيط بين المحافظة والتجديد) في كتابنا (في النقد اللغوي).

٣ – هي بالترتيب : (المرجع) لعبد الله العلايلي – ١٩٦١، (الرائد) لجبران مسعود – ١٩٦٥ (لاروس – المعجم العربي الحديث) لخليل الجر – ١٩٧٨، (القاموس الجديد) – ١٩٧٠، (المعجم الوجيز) لمجمع اللغة العربية – ١٩٨٠.

٤ – رتبت مواد المعجم أو الجذور التي يشتمل عليها في أبواب بعدد حروف الهجاء، حسب حرفها الاول. ثم رتبت مواد كل باب وفقا للحرف الثاني فالثالث. واعتمد في ذلك تسلسل الحروف الهجائية من الهمزة إلى الياء. والأعلام، والأسماء غير العربية (المعربة أو الدخيلة) تطلب في ترتيبها دون الرجوع إلى الجذر.

وقد حافظ المعجم على المسلك الذي سلكه مجمع اللغة العربية في الوسيط وهو مراعاة الأصول الاشتقاقية خلافا للمعجمات الحديثة التي لا تراعي الأصول الاشتقاقية بل تضع الكلمة في ترتيبها الألفبائي دون الرجوع إلى جذرها، ومن ذلك المعجمات: (المنجد الأبجدي) و(الرائد) و (لاروس – المعجم العربي الحديث) و(القاموس الجديد) و(المورد – عربي إنجليزي) وعليها مآخذ كثيرة في هذا الترتيب.

٥ – د. محيي الدين صابر: مقدمة المعجم: ٨.

٦ – د. . إبراهيم انيس وآخرون : مقدمة الطبعة الثانية للمعجم الوسيط.

٧ – راجع : د. عبدُ العزيز مطر : في النقد اللغوي : ٦٥.

٨ – ص : ٥٩.

٩ – يخالف هذا الترتيب ترتيب المعجم الوسيط والمعجم الكبير اللذين يقدمان مكسور العين على مضمونها (راجع مقدمة الوسيط).

١٠ – يقدم المعجم الوسيط والمعجم الكبير (أفعل) على (فاعل) وعلى (فعل).

١١ – هذا الترتيب يخالف ترتيب المعجم الوسيط والمعجم الكبير اللذين يرتبان المزيد بحرفين وثلاثة على النحو الآتي : افتعل – تفاعل – تفعل – افعل – استفعل – افعوعل – افعال – افعول.

١٢ – مقدمة المعجم : ٩.

١٣– المعجم : ٦٨.

١٤ – نفسه : ٦٢٢.

١٥ – نفسه : ٨٠٨.

١٦ – نفسه : ٨٤٨.

١٧ – نفسه : ٨٤٩.

١٨ – نفسه : ١١٤٥ ولم يذكر المعجم أن كلمة مقدونس دخيلة، واقتصر على تونس كعادته في بيان شيوع اللفظ بنطق معين فيها. ولعل السبب أن المعجم مؤلف في تونس (مقر المنظمة).

١٩ – نفسه: ١١٤٤.

٢٠ – المعجم الوسيط : ٨٧٩.

٢١ – المعجم الأساسي : ٤٧٤.

٢٢ – المعجم الأساسي : ٥٢٥.

٢٣ – نفسه : ٩٢٥.

٢٤ – نفسه : ٦٢٣.

٢٥ – نفسه : ٤١٣.

٢٦ – نفسه : ١٢٤٦.

٢٧ – نفسه : ٩٨.

٢٨ – نفسه : ٩٨.

٢٩ – نفسه : ٩١.

٣٠ – نفسه : ١٣٩١ وقوله (مج) رمز لما اقره مجمع اللغة العربية، وهذه من المرات القلائل التي ذكر فيها

المعجم هذا الرمز مع كثرة ما أخذ مما اقره المجمع، كما يتبين ذلك في نقدنا الآتي بعد الوصف.

٣١ – نفسه : ٧٤١.

٣٢ – عبدالعزيز مطر : في المعجمية العربية المعاصرة (بحث: المعجم الوسيط) ٥٠٢.

٣٣ – أحمد العابد : في المعجمية العربية المعاصرة (بحث: هل من معجم عربي وظيفي؟) : ٥٦٦ ، ٥٩٤.

٣٤ – ينتهي عصر الرواية في عام ٢٠٠ هـ في الحواضر وفي عام ٣٥٠ هـ في البوادي.

٣٥ – قارن المعجم الوسيط : ١٦/١ والأساسي : ٦١.

٣٦ – المعجم الأساسي : ٦١.

٣٧ – نفسه : ١٠.

٣٨ – راجع الهامش رقم (٣٤).

٣٩ – من تصدير الطبعة الأولى للمعجم الوسيط (ص ١٠) وقد حذفنا من صيغة السؤال كلمة (خطأ) بعد قولهم: أقيمت خطأ، إذ لا ضرورة لها في السؤال، ونذكرها هنا تحقيقاً للأمانة.

٤٠، ٤١ – د. محيي الدين صابر: مقدمة المعجم : ٩

٤٤ – كتبوا (محدثة) كاملة دون رمز كما جاء في المعجم الوسيط. ولم يكتبوا الرمز (مح) كما حددوا في مقدمة المعجم.

٤٥ – راجع الهامش رقم (٤) من هذا البحث.

٤٦ – راجع منهجية المعجم : ص ٥٩ (المعجم الأساسي).

(٤٧) يمكن التثبت من ذلك بمراجعة شروح المداخل التي أوردناها في القسم (أ) من المادة اللغوية.

٤٨ – كان يمكن مثلاً أن يقتبسوا التعريف من القاموس المحيط الذي قال : جيب القميص : طوقه. وهذا يثبت عليهم اللجوء إلى الوسيط دون إشارة.

٤٩ – الخليل بن أحمد : كتاب العين : ٤٥٢/٧.

٥٠ – ذكر المعجم مادة (القانون) معرفة بأل خلافاً لمنهجه في المداخل حيث ذكرت منكرة.

٥١ – ص ١٠٧٣.

٥٢ – ١٣١/٦.

٥٣ – ٢٨٨/١.

٥٤ – ٨١٥/٢.

٥٥ – المعجم ص : ٢٠٩.

٥٦ – نفسه : ٤٧٦.

٥٧ – نفسه : ٨٠٨.

٥٨ – نفسه : ٤٩٢.

٥٩ – نفسه : ١٠٦٥.

٦٠ – نفسه : ١١٦٥.

٦١ – نفسه : ٦٣.

٦٢ – جان كانتينو : دروس في أصوات العربية – ترجمة : صالح القرمادي : ٢٥.

٦٣ – الكتاب : ٤٠٥/٢.

٦٤ – إبراهيم أنيس : الأصوات اللغوية : ٩٠.

٦٥ – المعجم الوسيط : ١.

٦٦ – ص : ٢٧٧.

٦٧ – ص : ١٢٧٢.

٦٨ – ص : ٢٧٣.

٦٩ – ص : ١٩٩.

٧٠ – المعجم الوسيط : ١/٨٥.

٧١ – المعجم الأساسي : ١٠٥٧.

٧٢ – نفسه : ٦٦٥.

٧٣ – نفسه : ١١٢٩.

٧٤ – نفسه : ٦٤.

٧٥ – المعجم الوسيط : ١.

٧٦ – نفسه : ٢/٨٦٣.

٧٧ – مقدمة المعجم : ٩.

٧٨ – كتب المعجم عن العراق في موضعين بأسلوبين مختلفين : ص ٨٣٠ في الترتيب الألفبائي وفي سطرين. وكتب عنها مرة أخرى في ص ٨٣٥ (مادة عرق) في سطرين وربع.

٧٩ – المعجم الأساسي : ١٠٧.

٨٠ – ص : ١٠٦٧.

٨١ – ص : ٩٩.

٨٢ – ص : ٩١١.

بين التحليل الجمالي والتحليل النفسي

دراسة لموقف من شعر المتنبي

ماهر حسن فهمي
أستاذ بقسم اللغة العربية

هل يمكن حقيقة أن نعزل النص عن كل المؤثرات الاجتماعية والنفسية حين نحلله، ثم نكتفي بهذا التحليل مقتنعين أن التحليل الجمالي أو الأسلوبي كاف للدلالة على كل أبعاد النص؟

وإذا كان الجمال(١) في معنى من معانيه هو الانسجام والتناسق والتوازن. في العمل الفني الذي يتكون من بناء، ينبغي أن نبحث فيه عن كل ذلك من خلال العلاقات بين أبعاد العمل المختلفة التي يوحي بها النص(٢) ، فان بعض الأعمال الفنية الكبيرة ربما احتاجت إلى أن نستفيد من جهود المدارس النقدية المختلفة لكي نحللها أو نحاول فهمها.

وسوف نتوقف عند قصيدة «العيد» للمتنبي، لنرى أن الزمن في القصيدة قد اكتسب معنى المطلق، فليس الحديث عن لحظة معينة إلا انطلاقاً لشحنة من الايحاءات تفجرها الكلمة، لتوحي لكل فرد منا ايحاء خاصا، كلما كانت له آمال، وكلنا ضاعت منه أحلام، ودورة الزمان، تذكرنا بالماضي، بما تحقق وما لم يتحقق، بالمستقبل وما يصاحبه من أمل حينا وقلق حينا آخر، إن ميلاد الأمل في أول القصيدة يظل يصارع الفراق

---

١ - الاحساس بالجمال لجورج سانتيانا ص ١١٩ - ١٣٢.

٢ - في معرفة النص يمني العيد ص ٣٢.

واللقاء، والوجود والفقد، حتى يسعى الأجل إلى الأمل. إن قيمة المقابلة أو الطباق قيمة كبيرة بما تصنعه من هذا التوازن في عالمنا بين الجمال والقبح.

ولكن هل يمكن أن نفهم القصيدة دون إدراك زمانها ومكانها من حياة الشاعر؟ ودون إدراك موقعها من الكافوريات كلها؟ من الممكن أن نقتطعها من الكافوريات، وأن نشير إلى أنها آخر قصيدة قالها المتنبي في مصر لأن الاشارة إلى مصر واردة في القصيدة، ومن الممكن أن يكون تحليلنا لها تحليلا يمكن تطبيقه على الكافوريات كلها باعتبارها تمثل مرحلة زمنية ونفسية ومكانية من حياة الشاعر.

بقيت ظاهرة تحتاج إلى وقفة وإلى تعليل؟ لماذا ظهرت «الأنا» هذا الظهور الواضح في كل شعر المتنبي منذ صباه مرورا بمرحلة السيفيات إلى مرحلة الكافوريات، ثم إلى ما بعدها؟

وهناك ظواهر أخرى إذا وازنا بين السيفيات والكافوريات، هل المعمار واحد؟ إن السيفيات تعتبر من أجمل ملاحم الحرب - بالمعنى العام للكلمة - في الشعر العربي، بينما الكافوريات تعتبر من أرق ما قاله المتنبي على الاطلاق، وهي أشبه بآهات حزينة تخرج من صدر الشاعر، فيحيلها أعمالاً فنية، فهل ما يزال البناء واحداً؟ ربما يكون قد تغير، ويبقى السؤال، فلم تغير؟ اليست البيئة التي غيرته؟ كل هذا لا ينفي أن القصيدة عمل فني جمالي بالدرجة الأولى، ولكن الأعمال الجمالية قد تحتاج إلى اكثر من وجهة نظر لتجلية أبعادها.

بين الشاعر والقصيدة

التناقض سر مسير الحركة ومن الموجب والسالب يتولد التيار. والصراع في الحياة من أجل البقاء صراع أزلي، تطور حتى أصبح صراعا بين الخير والشر والجمال والقبح والحق والباطل.

والصراع في القصيدة الحية طبيعي لأنه صراع من أجل النمو ومن اجل استمرارية الحياة، حتى تكتمل القصيدة فيتم وجودها. ومفتاح هذه القصيدة ما فيها من تناقضات تدفع حركتها إلى الأمام فتنمو من الداخل. فكلمة العيد تستدعي الفرح

والطرب، ولكنها هنا موقف بين الماضي المستقبل (بما مضى؟ أم لأمر فيه تجديد؟) يتحول العيد إلى رمز معاكس، فمادام الأمل بعيدا، فكيف يقترب العيد، أو مادام الأمل بعيدا، فهل يقبل اليأس؟

العيد يذكر الشاعر بعدم قدرته على تحقيق الآمال، ولكن اليأس كلمة ثقيلة، لا يقبلها الشاعر الثائر، فيرتد إلى الأمل مرة أخرى متشبثا به «لولا العلى» ولولا حرف امتناع لوجود، فامتناع الاستقرار يعني الرحلة من أجل الهدف، ومادام الهدف موجودا فالرحلة مستمرة والحياة مستمرة ايضا. وتزداد حدة الصراع بين الموت والحياة كأن النقيض يستدعى نقيضه، فالسيف فيه معنى الحياة والموت، الحياة لحامله والموت للآخرين، ولكنه بصورة عامة صنع لكي يقطر دما، فهو في مدلوله العام يعنى الموت، بينما المرأة تعني استمرارية الحياة، ومن هنا كان الجمع بينهما في بيت واحد، الحياة الوادعة، والحياة المغامرة، وعشق المغامرة من أجل السيادة.

ولكن المغامرة واقتحام الحياة أو صلته إلى ماهو فيه، إلى تحليل مذاق الحياة، فلم يعد يذوق في كأس الحياة شرابا سائغا، وإنما نوب له الزمن الهم والسهاد بدلاً من النشوة، إنه صراع نفسي، يحيله صخرا، ولكن صخر امرئ القيس كان يتحرك (كجلمود صخر حطه السيل من عل) أما هذا الصخر فلا يهتز، وأغاريد الدنيا من حوله والعيد يأتيه والنشوة أمامه، لأن الوجود والعدم يصلان بالصراع النفسي إلى القمة، وجود اللذة المادية وفقدان الأمل المحرك لمعنى السعادة ولمعنى الحياة. ويستمر التناقض بين الشكوي من ناحية والحسد من ناحية ثانية، والغنى من ناحية والمواعيد التي لا تتحقق من ناحية ثانية، والحراس موجودون ولكنهم نائمون، والضيوف موجودون ولكنهم لا يكرمون ولا يتركون حتى يرحلوا. ثم تنتهي آلام المخاض بشرب الموت وترك حياة الذل، لان كأس الموت عندما يكون فيه الخلاص، عذبة المذاق وكأس الذل مرة كالعلقم، إن الخلاص هنا هو الحرية، الانعتاق من كل أسر، وميلاد الحرية، قد يعني موت الشاعر من أجل الهدف الأسمي والمبدأ الذي ينبغي أن يعيش ويكبر ويعيه الناس، وكأنما كان يتنبأ بموته مرفوع الرأس، حينما ذكره مولاه بقوله: (الخيل والليل والبيداء تعرفني، والسيف والرمح والقرطاس والقلم) فقاتل حتى قتل.

هذا الخط الذي يخترق القصيدة لابد منه قبل الدخول إلى عالمها، كأنه صراع بين الجمال والقبح، وبين الخير والشر، ومحاربة الشر بالكلمة، بالفن، أو مقاتلته حتى النهاية.

قالها يوم عرفه سنة خمسين وثلاثمائة، قبل مسيرة من مصر بيوم واحد.

المدخـــل :

عيـد بأيـة حـال عـدت ياعيـد؟	بمـا مضى؟ أم لأمـر فيك تجديـد؟
أما الأحبـة فالبيــداء دونهـم	فليـت دونـك بيـدا دونهـا بيـد
لولا العلى لم تجب بي ما أجوب بها	وجنـاء حـرف ولا جـرداء قيـدود
وكـان أطيـب من سـيفي معانقـة	أشـباه رونقـه الغيـد الأمـاليـد

المفتاح في كلمة «عيدِ» التي جاءت نكرة، كأنها تماثل بقيةِ أيامه النكرات لدى كافور، والولوج إلى عالم المتنبي النفسي يحتاج إلى هذا المدخل، فإذا كان العيد رمزا للبهجة ونسيان الأشجان، فهو عند المتنبي حجر يلقى في الماء... مثيرا للشجن، كأن العيد وكافور يتبادلان الصور والمكان. وكلمة «عيد»؟ نلمح فيها مدلول الاستفهام الانكاري المصاحب لشيء من الدهشة، لان العيد يأتي مصحوبا بالمسرات التي لايراها، ومن هنا يأتي التساؤل : بأية حال عدت يا عيد؟ بما مضى؟ والعيد من العود لأنه يعود كل عام، لذلك فالتساؤل يشعر بحالة الركود والرتابة التي يحياها الشاعر، و«يشخص العيد» كأنه قد بدأ يعرفه مادام يأتي كل عام بهمومه، ويدير حواراً معه، وبذهنه أطياف بعيدة من أيام خصبة مليئة بالحياة المتدفقة والصراع الخارجي والانتصارات المدوية، ولكن شعاعا من الأمل يخترق هذا اليأس في ختام التساؤلات المتلاحقة» أم لامر فيك تجديد» أتراك جئت بأمر جديد؟ إنه الأمل الذي جعله يبدأ البيت بكلمة «عيد» ويختتمه بكلمة «جديد».

وسوف نلاحظ ثلاث ظواهر :

(أ) الاستفهام : وهو مع التمنى والنداء من الأساليب الانشائية التي تصور الانفعالات والحالات الشعورية لأن الأسلوب الخبري تقريري نثري إلى حد كير.

(ب) صيغ الجمع : البيد – الغيد – الكؤوس – الاغاديد – كذابين – الرجال – الايدي – النواطير – الثعالب – العناقيد –. وهي صيغ تعطي معنى المبالغة أو التكبير.

(جـ) الطباق والمقابلة : أخمر أم هم وتسهيد – الوجود والفقد – الشاكي والمحسود – جوعان ويأكل. وكلها تأكيد لمعنى الصراع.

يعود المتنبي إلى واقعة فكلمة العيد ذكرته بأمرين: كافور الحاضر والمسرات قديما، ذكرته بأحبابه الذين فارقهم، وكلما أتى ذكرهم لذعته الحسرة (أما الاحبة فالبيداء دونهم) ونشعر بالرغبة في الفرار من هذا الحاضر (فليت دونك بيدا دونها بيد)، والرفض لهذا الواقع. وهو احساس كرره مرة ومرات حين قال في قصيدة أخرى، يوازن بين حاله وحال الناس في يوم عيد :

يضاحك في ذا العيد كل حبيبه إزائي وأبكي من أحب وأندب

وهي أبيات تثير قضية المديح التي لهج بها المشتشرقون حين طعنوا في شعر المديح باعتباره شعر استجداء. والواقع أن الذي يقرأ شعر المتنبي يجد الاكبار الصادق من الشاعر لممدوحه القديم حتى بعد ان فارقه، ويجد الفخر بنفسه أمام الممدوح، فأي استجداء؟ الموقف هنا شبيه بموقف الرسامين الغربيين في العصور الوسطى حين رسموا الملوك والأمراء، ممن رسمهم رفائيل أو دافنشي أو مايكل انجلو، فهل يسمى هذا استجداء، لقد كان المديح تسجيلا لقيم عليا، وعرفانا بالجميل لرعاة الفن.

والتمنى ثم صيغة الجمع هنا (فليت دونك بيدا دونها بيد) فيها لذعة الاحساس بالضعف، والرفض القاطع لهذا الموقف.

وتأتي انتفاضة الشاعر، حين يشعر أن كبرياءه قد مست (لولا العلي لم تجب بي ما أجوب بها) فالرحلة الدائبة التي كان يرحلها البدوي من أجل الكلأ أو وراء الحياة. يرحلها الشاعر من أجل الحياة أيضا ولكن بمعناها الأشمل، الذي لا يبحث عن القوت الضروري، بقدر ما يبحث عن الرفعة والمجد، وكأنما أصاب فرسه وناقته عدري الطموح، فهي تجوب به كما يجوب بها (وجناء حرف أي ناقة ضامرة من طول الرحلة، ولا جرداء قيدود : أي فرس طويلة العنق دليل الاصالة والقدرة على التحمل).

والعلاقة الحميمة بين الشاعر وناقته، وبين الشاعر وفرسه، توضح موقفاً إنسانياً يربط الانسان بالحيوان في إطار من الوحدة الكلية للطبيعة، وذلك منذ عنترة في أبياته التي يمسح بها جراح حصانه :

فازور من وقع القنا بلبانه ... وشكا إلى بعبرة وتحمم

لو كان يدري المحاورة اشتكى ... ولكان لو علم الكلام مكلمي

بل وأبيات الفرزدق التي يعامل فيها الذئب معاملة الفارس للفارس (وبت أقد الزاد بيني وبينه)، ولذلك فالمتنبي عندما يقول (وما الخيل إلا كالصديق قليلة، وإن كثرت في عين من لايجرب). لا يقصد التشبيه بالصديق من حيث القلة فحسب، ولكن أيضا من حيث التعاطف الموجود بين كليهما. وكذلك الشأن عندما يردد (إني لأضحك إبلي كلما نظرت، إلى من اختضبت أخفافها بدم) فهو يشفق عليها من طول الرحلة في الارض المليئة بالحصى، والتي جعلت أخفاقها تسيل دما يخضبها، من أجل الوصول إلى الممدوح، ولكنه في النهاية يشاركها الضحك حين يجد ان الممدوح لم يكن يستحق هذا العناء كله. فأضحكها وأبكاها وشاركها الضحك والبكاء، وهذا العرض التاريخي يسمى بنسب المعنى.

ولكنه هنا يتحدث عن العلى والمجْد ودويه والمشقة في سبيله، ولولا كل ذلك، لاستراح من مفاجآت السفر، وعناء الترحال الذي لا يهدأ، وعاش حياة وادعة كما يعيش الناس، مع زوجة جميلة (وكان أطيب من سيفي معانقة) ومعانقة السيف كناية عن توقع الخطر، في حياة الفروسية والمغامرة التي يحياها، (أشباه رونقه، الغيد الاماليد)، لكنه يعود ثانية إلى طبيعته الغلابة، ومجرد الخاطر يرتد عنه مكملا معنى الحيرة بين حياة الدعة ومشقة الطموح وحلم السيادة، «فأشباه رونقه» في البياض والنقاء والبريق الذي يسعد النظر، فالغيد هي التي تشبه السيف في هذه الصفات المحبوبة، السيف هو الاصل والمرأة الظل، لأنه رمز العزة، أليس القائل (والمشرفية لازالت مشرفة، دواء كل كريم أو هي الوجع). إن العلاقة بين الحب والحرب في شعر المتنبي علاقة حميمة، وهي حميمة لدى الشعراء الفرسان منذ عنترة حين كان يردد:

فوددت تقبيل السيوف لأنها ... لمعت كبارق ثغرك المبتسم

ولكن عنترة هنا كان عاشقا، ولذلك فالاصل ثغر محبوبته المبتسم، ولكن المتنبي عكس الصورة لأنه عشق السيف حين عشق المجد، ولا مجد إلا للمقاتلين في عصره، ويصبح السيف رمزاً للقوة وللطموح (تركنا لاطراف القنا كل شهوة).

المشهد : إلى هنا ينتهي المدخل، العيد، الاغتراب بعيداً عن الأحباب، مشقة الرحيل الدائب. ثم ينتقل إلى المشهد في وسط القصيدة، وفيه العرض الدرامي والصراع النفسي الذي يشدنا :

لم يترك الدهر من قلبي ولا كبدي شـيئا تتيمـه عيـن ولا جيـد

الحزن المشبوب بالحنين يطور القصيدة إلى حركة صاعدة. يقال كبد حرى وكبد رطبة في حالي الغضب والهدوء، وتضرب إليه أكباد الابل، وأكباد صادية، فالاحساس هنا مادي. ويقال كبد مقروح وقلب مجروح ، وهي توحي بالمعاناة المادية والمعنوية معا، وهذا ما يشير إليه المتنبي وهو ينشد هذا الغناء الحزين. عيون المها وأجياد الغزلان،هكذا كان يردد الشاعر في لحظات صفائه (وأجياد غزلان كجيدك زرنني) (عيون المها ولا كعيون)، وهو لا يستطيع أن يصف أكثر من هذا لأنه لا يرى أكثر من الوجه والجيد في الفتاة العربية أو البدوية، وإلى الآن لايزال الشاعر العربي في الخليج لا يصف سوى العينين : (عيناك غابتا نخيل ساعة السحر) (عيناك في الصباح والمساء كالالق، كواحتين دونما حدود) ولكنه اليوم يقول: لم يترك الدهر من قلبي ولا كبدي شيئا إلا أصابه بالجراح وبالسهام (فصرت إذا أصابتني سهام، تكسرت النصال على النصال)، ولم يترك الدهر من قلبي ولا كبدي شيئا حتى أستطيع أن استمتع بما يستمتع به الناس من الجمال في الحياة، والناس دائماً تتحدث عن القلب باعتباره مكمن المشاعر وعن الكبد أيضاً بهذا الاعتبار، وهو صراع مع الدهر ولذلك فالغالب هو الزمان، لأنه يحارب من لايراه (ولو برز الزمان إلى شخصاً، لخضب شعر مفرقه حسامي).

ثم يبلغ الانفعال قمته في هذه الصرخة التي تعقبها استفهامات متلاحقة كأننا أمام أحد أبطال شكسبير، في صراع نفسي يعبر عن الحيرة والمرارة والأمل الضائع :

(ياساقيى أخمر في كؤوسكما؟ أم في كؤوسكما هم وتسهيد؟)

الساقيان هنا لابد أن يكونا النهار والليل، لان أحدهما يذوب له الهم والثاني يسقيه السهاد. أخمر في كؤوسكما؟ إنه لم يشرب الخمر، ولكنها توحى هنا بطيب مذاق الحياة ونسيان الهموم، وتأتي «أم» محولة المعنى إلى النقيض : كلما ازددت شرباً تجرعت هما وعرفت سهاداً.

وتستمر الحيرة في صيغة تساؤل (أصخرة أنا؟)، وتزداد حدة الصراع النفسي ببروز الانا، إن تشبيه الشاعر الحساس بالصخرة دليل خلل في طبيعة الحياة، لان الذي لا يعرف طعم السعادة والاغاريد من حوله والمتعة أمامه، وكل مباهج العيد تصدح، لابد أن تكون أعماقه تقطر أسى، فلا يستطيب طعم الحياة بكل مادياتها، كأن السعادة النفسية هي مفتاح التوافق والمصالحة مع الحياة. فإذا أراد المتعة الحسية وجدها، وعند كلمة الوجود قد نتوقف لأننا نتصور أكثر الناس يسعون وراء المتع الحسية وماديات الحياة، ولكن المفاجآة في القسم الاخير (وحبيب النفس مفقود)، فالسعادة الحقيقية هي الرضى الداخلي، وهو ما يفتقده الشاعر معبراً عنه بحبيب النفس (بالأمل الضائع، أو بالطموح الغلاب).

(يامن يعز علينا أن نفارقهم، وجداننا كل شيء بعدكم عدم) هكذا صرح في قصيدة أخرى فالصراع بين الوجود والعدم يتمثل في وجود من نكره وفراق من نحب، وجود الطرب وافتقاد السعادة النفسية، وجود الأيام الرتيبة وافتقاد الآمال العريضة، الصراع بين الحياة نفسها وبين الموت، لان كل يوم يمضى ينقص من حياتنا (وصلينا نصلك في هذه الدنيا، فإن المقام فيها قليل).

(ماذا لقيت من الدنيا؟) نقمته تتعدى الموقف الخاص إلى الموقف العام، ولكن الموقف الخاص، المناسبة، هي التي فجرت الازمة، فالأثر الخارجي هو الذي حرك العالم الداخلي، وبذلك لم نعد نطرح قضية شعر المناسبات باعتبارها صيغة نهائية للشعر الضعيف، لأن أسلوب التناول هو المهم.

هنا نجد التناقض المدهش، فما يشكو منه الشاعر هو نفسه موضع الحسد، وتظهر

«الأنا» ثلاث مرات في مواقف متشابهة: الدهشة: أصخرة أنا؟ أني بما أنا باك منه محسود، أنا الغني وأموالي المواعيد.(أمسيت أروح مثر خازنا ويدا، أنا الغنى وأموالي المواعيد) وأمسيت فيها ظلال المساء، كأنه في نهاية الامنيات التي ضاعت مع النهار، صار اكثر الاثرياء إحساساً بالراحة «أنا الغنى» ترى هل استراح من الفقر ومعاناته؟ إنه يفجؤنا بقوله : (وأموالي المواعيد) وهكذا ينقلنا من النقيض إلى النقيض، لان أمواله مواعيد كافور، وهي لا تحتاج إلى أن تقبضها يد وتظل تعدها، أو أن يحفظها خازن ويظل قلقا عليها. ولكنه يرفض الدعة، ويرفض الاستسلام لليأس.

الختـــام :

ترك الغناء الحزين والصراع النفسي الذي برزت خلاله «الانا» مغلفة بعذاب التناقضات ومرارة الشكوى، والتفت إلى الآخر، إلى كافور، يهجوه، إلى كل كافور، إلى كل من يحول بين الإنسان وطموحاته. «أني نزلت بكذابين ضيفهم، عن القرى وعن الترحال محدود». لما قال: «وأموالي المواعيد» كان الوصف صاحب المواعيد التي لا تتحقق بالكذب، لكنه يستخدم صيغة المبالغة، وهو في الشطر الثاني يعود إلى المدلول نفسه ولكن بعرض جديد (ضيفهم عن القرى وعن الترحال محدود) وقرى الضيف واجب الكرام، فما بالنا إذا كان الضيف محروما من القرى ممنوعا من الرحيل، إنه ضيف اللئام. وهو المعنى نفسه الذي عبر عنه عندما حم بقوله:

يقول لي الطبيب اكلت شيئا — وداؤك في شرابك والطعـام
ومـا في طبـه أني جـــواد — أضـــد بجسمـــه الجمــام
تعـود أن يغبر في الســرايا — ويدخـــل من قتــام في قتــام
فأمســك لايطــال له فيرعى — ولا هو في العليق ولا اللجام

ثم يعود مفصلا القول : (جود الرجال من الأيدي، وجودهم من اللسان، فلا كانوا ولا الجود) الجود هنا لا تعنى الكرم فحسب، بل تعنى التقدير بكل معانيه، ومن هنا ندرك قول المتنبي في قصيدة أخرى:

وما رغبتي في عسجد أستزيده — ولكنهـا في مفخـر استجـده

وإذا كان مقابل الجود البخل، فإن الرجال لها ما يقابلها أيضاً، وجود الرجال من الأيدي، كأن الأيدي تتسابق إلى الجود، وهذا هو مدلول صيغة الجموع في الرجال والأيدي، و«جودهم من اللسان» فهي صياغة أخرى لجود المواعيد التي لا تتحقق أبدا، وهو المعنى الذي أشار إليه في مديحه لفاتك:

واجز الأمير الذي نعماه فاجئة   بغير قول ونعمي الناس أقوال

ثم يأتي الرفض لهذا الموقف الجارح (فلا كانوا ولا الجود)

نامت نواطير مصر عن ثعالبها   فقد بشمن وما تفنى العناقيد

غفل الحراس والقادة والزعماء والسادة، فانطلق الاراذل والجشعون ينهبون حتى أتخموا، وما يكفون عن النهم : الكنايات هنا اشارات بلاغية تؤدي مهمتها الفنية في توصيل الدلالة، فنوم الحراس كناية عن الغفلة، وهي ليست غفلة السوقة، ولكنها غفلة المسئولين، وهي غفلة ثمنها حياة الأمم، لأن الثعالب تعيث فساداً في الأرض وهي آمنة حتى يصيبها البشم، والثعالب كناية أخرى عن نهازي الفرص، عن المفسدين في الارض، عن كافور، والعناقيد كناية ثالثة عن الاموال المتروكة دون حراسة، الدانية القطوف، وهذه إشارات تجرح ولكنها لا تسيل الدماء لأنها ممكنة الحدوث في الواقع.

(جوعان يأكل) أن التناقض نفسه ملفت للنظر، ولكن سر التناقض ينكشف حين يأكل من زاده (معنى التهكم والسخرية) ويمسكه عنده ليمدحه. والسخرية هنا نابعة من هذا العرض فبعد أن كان يمنيه الأماني، إذا به يمد يده ليأكل ما لدى الضيف. وهي صورة تهكمية أراد بها استمطار اللعنات لأنه في الأبيات السابقة يصفه بالثعلب المتخم.

(ويلمها خطة) هنا يعود الانفعال فيبلغ درجة كبيرة، وهو يرفض هذا الموقف الذليل، الذي لانجاة له منه إلا بالرحيل، وهذا التضعيف في ثلاث كلمات متتالية أول البيت أعطى هذا الايحاء الانفعالي، ثم جاء المد في كلمة «قابلها» ليعطي مدلول التحمل الطويل لهذا الموقف، وعندما تأتي الابل «المهرية القود» ويبرق خاطر الرحيل، يهدأ الانفعال، على الرغم من أن الرحلة مجازفة قد تكلفه حياته. (وعندها لذ طعم الموت

شاربه، إن المنية عند الذل قنديد) ولكن مقارنة سريعة بين الموت والذل، تطوف بخاطره فيفضل الموت، بل هو يستلذ طعم الموت، والموت هنا ليس موقفا وحسب إنه متعة الخلاص. وهو قريب من قول قطري بن الفجاءة (فما في تساقي الموت في الحرب سبة، على شاربيه فاسقني منه واشربا).

وشرب الموت هنا فيه معنى البطولة، وهو يوحي بمواقف انسانية عبر تاريخ طويل بداية من سقراط إلى كيلوباتوا حتى هتلر، كلهم أبوا الذل، قد ينضم إلى كوكبتهم شاعرنا، فهو يحيل الموت شراباً محبباً، لا وحشاً كاسراً أو شبحاً مفزعاً.

وإذا كانت القصيدة قد بدأت بالعيد الحزين فقد انتهت برفض الذل، وبحلقه طعم معسول، مزيج من خمر وعسل، وإباء وكبرياء.

وقد رفع مشكلة الموت والحياة عن مستوى العيش، فصعدها إلى مستوى الحياة بمعناها الفاعل، كأن الطموح الانساني هو حلو الحياة ومرها، كي يكون للإنسان قيمة باقية وذكر خالد. إنه ينطق عن خواطرنا، كما كان يقول ابن الأثير.

(أ) يستخدم الشاعر في بنائه حجراً خاصاً في معمار القصيدة - بيت الحكمة - ولكنه حجر أملس، بمعنى أننا لا نشعر وسط المشاهد والصراع بنوعية هذا الحجر، وباقتدار واضح تنمو القصيدة.

(ب) المشهد لا الصورة محور البناء في شعر المتنبي.

(أ) البيت الأول من الحكمة، ونحن مازلنا نتمثل به إلى الآن، فهو حقيقة ينطق عن خواطر الناس، وقد يكون بيت الحكمة تجربة خاصة، ولكنه ربط بينها وبين المعنى العام، وهذا هو الشأن في البيتين الثاني والثالث، تحولهما من تجربة خاصة إلى حكمة عامة. وربما قطر لنا تجربته هذه وكثف بناءها، بحيث أصبحت قضية الانسان في كل زمان ومكان، عندما تحاربه الأيام، وكإنما اتخذ الآسى الشعر لساناً له يعبر به عن خيبة الانسان في صراعه مع الايام، في مثل هذا الغناء الحزين (لم يترك الدهر من قلبي ولا كبدي، شيئا تتيمه عين ولا جيد) وقد يزداد المدلول كثافة فتقع الحكمة في شطر واحد مثل قوله في النهاية : (إن المنية عند

الذل قنديد). والحكمة فلسفة الخاصة ولذلك هي في الاغلب بيت من الشعر، بينما المثل فلسفة العامة ولذلك في الاغلب عبارة نثرية.

(ب) المشهد لا الصورة محور البناء في شعر المتنبي، حتى في الموقف الوجداني الملاحظ في هذه القصيدة، فالمشهد واضح في محاكاة الفعل أو الحركة وعرض الصراع وتجسيم الانفعالات والتركيز على الأسلوب الانشائي. شخص العيد وخاطبه، ثم استمر «المونولوج» بعد ذلك يكشف حدة الصراع النفسي، ونحن نتعاطف مع هذا الإنسان الذي حرم نفسه لذات الحياة من أجل الطموح، ثم نشفق عليه ونحن نرى حزنه الحائر أو حيرته الحزينة ثم ثورته العارمة في النهاية، وربما كرهنا كافوراً باعتباره شريراً يقيد الشاعر ويمنيه الوعود الكاذبة، ويدمره نفسيا.

(جـ) إن الامتداد من البداية الهادئة الحزينة الموجعة للقلب تستمر إلى ذكر الأحباب الذين فارقهم، وتجوال الشاعر الذي لا ينتهي والذي لا يعرف معه الراحة والاستقرار، وفي الاستقرار معنى السكن والزوجة، والقناعة وترك التحديات تغتال الآمال.

ثم يبدأ الخط البياني للانفعال في الصعود حينما تظهر الأنا أو تظهر الأنا حين يبدأ الخط البياني للانفعال في الصعود ، ويستمر التوتر، وتستمر الأنا في الظهور، ثم يهدأ الانفعال حين تبدأ الكناية بالنواطير عن الحماة والسادة، والثعالب عن المستغلين، والتهكم في الطباق حين يردد (جوعان يأكل من زادي)، ولكن الانفعال يعود مرة اخرى إلى الصعود حين تلوح له الناقة رمز التجوال والخلاص، ويستهين بالموت وكأس المنية، يلذ طعمها ولا يتجرع الذل، وتنتهي القصيدة، فيتطهر الشاعر من الاحساس بالهوان.

على أن هناك قضية تستدعي الوقوف عندها، ونحن نتأمل هذه القصيدة، التي تصور الصراع بين الحلم والحقيقة، بين الأمل والواقع، وهي أننا نجد ألفاظ الحب تتردد هنا وهناك، فالشاعر يشكو بعاد الأحباب واقتراب العيد، ويتحدث عن عناق السيوف فيذكر عناق الغيد، ثم يذكر فقد الحبيب مع وجود المتع المادية الأخرى.

وهذه الملاحظة تتسع لتمثل ظاهرة في شعر المتنبي، فقد التفت الثعالبي إلى استعماله ألفاظ الغزل والنسيب في أوصاف الحرب، ورأى ذلك راجعاً إلى جودة التصرف واللعب بالكلمات (والطعن عند محبيهن كالقبل) (قد صبغت خدها الدماء كما، يصبغ خد الخريدة الخجل).

ويعقب عبد الرحمن شعيب على ما قاله الثعالبي في «يتيمة الدهر» بأنه لم يحاول ان يكشف لنا عن منابع هذه الخاصية في نفس المتنبي، ولو حاول لفتح باباً واسعاً للدراسات النفسية والنقدية.

ثم حاول هو أن يفسر هذه الظاهرة فرأى أن الحرب التي كان يخوضها سيف الدولة كانت حرباً مقدسة ولذلك فهي جديرة بأن يعشقها الشاعر[١] .

وهذا التفسير غير مقنع، لان القضية لا تتصل بالحرب وحدها، بل تتسع لتصبح ظاهرة اشمل فهو يستخدم ألفاظ الغزل حين يتحدث عن السيوف دون حرب، وحين يتحدث عنها باعتبارها وسيلة للعلا ونيل الأماني، ويذكر الحب مقرونا بالفقد.

وهذا ينقلنا إلى موقف علم النفس من الابداع الفني، ففكرة التسامي عند فرويد تعني أن الفنان قادر على السمو بالغريزة وإحلال غاية أخرى محلها. «إن الفن يحل لدى الفنان محل ما حرم منه في الواقع، فالحرمان يذكي الخيال، كما أن الارتواء يضعفه.. فهذا الغنى الداخلي، إنما هو نتيجة الفقر الخارجي، ورب فنان ممتاز تأفل ملكاته متى اصبح في يسر ودعة ورخاء، أو متى شفاه التحليل النفسي من اضطرابات روحه وصالحه مع العالم الخارجي..

كذلك يصبح الحب لدى الفنان مركز إبداعه، وكما لا يحتاج الإنسان الحر إلى التغنى بالحرية، كذلك لا يحتاج الإنسان المرتوي إلى التغنى بالحب. إن السعادة والسلام الداخلي لا يتفقان مع الابداع الفني، وكل حلم هو تعبير عن اندفاع ممنوع، وعن فكرة غير قابلة للتحقيق وهو يمثل تسوية في الصراع بين الرغبة والواقع»[٢] .

---

١ - المتنبي بين ناقديه ص ١٠٤/١٠٦.

٢ - راجع علم النفس والأدب ص ٢٢٧ - ٢٣٤.

وقد رفضت مدرسة يونج هذا التفسير، إلا أنه يظل التفسير الاقوى، وقد يؤيد هذا التفسير أن المتنبي لم يعرف عنه اهتمامه بالمرأة فقد ترك زوجته عندما توجه إلى مصر، ثم عندما رحل إلى بني بويه، ثم هو القائل:

وللخلـود منى ساعـة ثم بيننـا   فـلاة إلى غير اللقــاء تجــاب
تركنا لاطراف القنا كل شهوة   فليـــس لنـــا إلا بهـن لعـــاب

هذا الانصراف عن المرأة اتخذ مسارب في الشعر، بمعنى أن التسامي في الغريزة اندفع هنا إلى الفن وإلى المجد الأدبي الذي يتحقق عن طريق الفن، ثم هو يصل إلي التطهير الذي يتحدث عنه النقاد حين نجد هذه التغييرات الدالة على التعويض والابدال.

وإذا كان الإنسان المرتوي لا يحتاج إلى التغنى بالحب، فإن عمر ابن أبي ربيعة يعتبر ظاهرة هو الآخر، وهذا هو سر تفوقه في مجاله الفني، فالحديث عن الفراق مفهوم، أما أن تكون التجربة تجربة تتناول اللقاء فهذا هو سر تفردها، ثم يستمر عمر بن أبي ربيعة في ديوانه كله متحدثا عن تجربة اللقاء، فهي تجربة واحدة مكررة، في صور فنية مختلفة، وإن كان غزلاً معكوساً أقرب إلى النرجسية.

فالحب مركز الابداع لدى الشاعرين أما عمر فتناول الموقف الايجابي منه، وعبر عن إنسان يعيش واقعه ويتعايش معه ويتصالح، ويتناول تجربة اللقاء مرة ومرات. واما المتنبي الشاعر الوقور، فهو لا يستطيع أن يكون مثل عمر، ولكنه يستطيع أن يتسامى بغرائزه، وهذا التسامى الذى تحقق في الفن وحقق به غزواته مع التجارب الفنية، تسربت إليه ألفاظ الحب، في مواقف الحياة المختلفة حتى في الحرب وحتى في أدوات القتال، لتوضح أن هذا الصراع الخارجي صورة لصراع داخلي لا سلام فيه مع النفس، فقد ترك لأطراف القنال كل شهوة، ورأي الطعن كالقبل.

وقد نقبل هذا التفسير أو نرفضه، ولكنه كما قلت يبقى أقوى التفسيرات التي توضح هذه الظاهرة في شعر المتنبي.

بقيت ظاهرة «الأنا» التي تحتاج هي الأخرى إلى تفسير. وهي ظاهرة عامة في شعر المتنبي وواضحة ايضا في هذه القصيدة. يقول فرويد «الأنا هو القوة التي تنكر

وجود اللاشعور، وتفرض عليه الكبت... فنحن نعرف أن كل ما يمكن أن يخبرنا به الانا من شأنه أن يورطنا في الخطأ.... أما الذين لا يكترثون لهذا التحذير فيأخذون ما يقول به الانا على ظاهره»[١] . ولا تكاد تظهر الأنا في شعر المتنبي إلا في مواقف الضعف، تظهر لكي تغطى على هذا الضعف والاحساس بالهوان، تظهر لكي تطفيء الثورة العصبية، تظهر ليرتد إليه التوازن بين اللاشعور والشعور، أو بين إحساسه الدفين بالضعف، ورفضه لهذا الواقع وكبته حتى لا يطغى. (أنا الذى نظر الاعمى إلى أدبي.. وأسمعت كلماتي من به صمم) متى قالها؟ قالها وهو يصرخ في مطلع القصيدة (واحر قلباه ممن قلبه شبم) وهو يرى سيف الدولة يزور عنه، وهو يرى أبا فراس يكيد له، ويهاجمه، وهو يرى مكانته تتراجع، فتظهر الانا كي تكبت الاحساس بالضعة.

وهكذا الشأن في هذه القصيدة، تظهر الأنا بعد أن اجتاحه الآسى (عيد بأية حال عدت يا عيد) وأحس أنه أسير وأنه مداح، وذهبت آماله في الولاية سدى، وضاعت أحلامه في المجد، كان عند سيف الدولة (وما أنا إلا سمهرى حملته.. فزين معروضا وراع مسدداً)، أو هو والأمير سواء (شاعر المجد خدنه شاعر اللفظ كلانا رب المعانى الدقاق) هكذا خاطب أبا العشائر، أما اليوم فهو لم يعد السمهري، فقد وضع السيف في قرابه منذ ترك سيف الدولة، وأصبح مداحا لكافور، وهو ما يشعره بالضعة، ولكنه يكبت هذه الاحاسيس كلما حاولت أن تظهر :

أمسيت أروح مثر خازنا ويدا   أنا الغنى وأموالي المواعيد

أعتقد أن هذا التفسير يمكن أن يكون مقبولا، حين نتحدث عن بروز الانا في شعر المتنبي من حين إلى حين. وهكذا يمكن أن تكون المواقف النفسية مفاتيح للعمل الفني، وأن تثرى بالدراسة النقدية مهما طال وقوفنا عند التحليل الجمالي. فالصراع هنا صراع لا قبل لأحد به، فما بالنا بالمتنبي «أني بما أنا باك منه محسود»، فالأنا تظهر لتخفي فشله مع كافور، وفشله من قبل مع سيف الدولة، وفشله قبل ذلك كله في الطريق الذي اتخذ لنفسه.

---

(١) محاضرات تمهيدية في التحليل النفسي سجمند فرويد ترجمة عزت راجح ص ٤٢٠ - ٤٢١.

حتى رجعت وأقلامي قوائل لي   المجد للسيف ليس المجد للقلم

وفلتات اللسان من حين إلى حين يمكن أن تكون هي الأخرى مفتاحاً للنفس، للاشعور الخبيء في أعماق النفس، وهو في هذه القصيدة قد كنى بالفحول البيض عن سيف الدولة وبدلا من أن يذكر فشله في رحاب سيف الدولة، ذكر عجز الفحول البيض عن الجميل، ولكن هذا الموضوع له حديث آخر، لانه يحتاج إلى إشباع.

المراجع

١ - الاحساس بالجمال لجورج سانتيانا ترجمة محمد مصطفى بدوي، القاهرة - مؤسسة فرانكلين.

٢ - علم النفس والأدب، سامي الدروبي، القاهرة - ١٩٨١.

٣ - في معرفة النص، يمنى العيد، بيروت - ١٩٨٣.

٤ - المتني بين ناقديه، عبد الرحمن شعيب، القاهرة - ١٩٦٨.

٥ - محاضرات تمهيدية في التحليل النفسي فرويد، ترجمة عزت راجح، القاهرة - ١٩٦٧.

الطريق إلى مصر الفاطمية

دراسة في دوافع ناصر خسرو للارتحال إلى القاهرة

الدكتور

محمد السعيد جمال الدين

أستاذ الأدب الفارسي بقسم اللغة العربية

تمهيد :

في أوائل القرن الخامس الهجري بدا العالم الاسلامي منقسماً على نفسه أشد ما يكون الانقسام، فلقد كانت الخلافة العباسية في بغداد تعاني من الضعف ومن ضياع الهيبة السياسية للخلفاء، الذين لم تعد لهم من سلطة تذكر على حكام البلاد الخاضعة للنفوذ العباسي، أما الخلافة الفاطمية في القاهرة فكانت تمتلك من الفتوة والقوة المذخورة ما يحسب له العباسيون وأنصارهم ألف حساب.

كيف لا والفاطميون يزعمون أنهم أحق بالخلافة من غيرهم، وأن العباسيين ليسوا إلا مغتصبين لحقهم. يظلمون الأمة حين يحولون بينها وبين هداتها الحقيقيين.

ولقد أعلن الفاطميون أن خلفاءهم الناجمين بمصر ما هم إلا عترة النبي - صلى الله عليه وسلم - قد صحت نسبتهم إليه أباً عن جد، في تسلسل واضح وتتابع مستمر، دون أي انقطاع.

كان الفاطميون (وهم على المذهب الإسماعيلي) قد اتفقوا مع الشيعة الإمامية على صحة إمامة الأئمة الستة الأول، من علي بن أبي طالب إلى جعفر الصادق - رضي الله عنهم. لكن الخلاف وقع بين الفريقين حول أيٍّ من أبناء جعفر أحق من أخيه بالإمامة : موسى الكاظم، أم إسماعيل؟ وقد تابع الشيعة الإمامية موسى، بينما تابع الإسماعيلية إسماعيل، فنُسبوا إليه وسموا بالإسماعيلية تارة وبالفاطمية تارة أخرى.

ولقد كان لهم اتجاه عقائدي متطرف يباعد بينهم وبين عقائد الشيعة الإمامية وتقاليدها المحافظة، وبدت بوادر هذا الاتجاه المتطرف في حياة الإمام السادس جعفر الصادق نفسه، إذ هاله أن يرى جمعاً من أصحاب الفرق الغالية يلتفّ حول ابنه إسماعيل، وعدّ ذلك نذير شؤم[1] .

وقد تحققت نبوءة الإمام الصادق، فضّمت الإسماعيلية بعد نشأتها سائر القيادات المتطرفة في التشيع، وغدت استمراراً لحركات الغلو[2] ، وظهر هذا الغلوّ واضحاً جلياً في حركة «القرامطة» الإسماعيلية.

ويبدو الافتراق واضحاً بين الإسماعيلية والإمامية في مسألة أصولية هي الإمامة نفسها. فالإسماعيلية لا يذهبون مذهب الإمامية في «غيبة الإمام» وإنما يقولون بأن الأرض «لن تخلو قط من إمام حيّ قاهر، إما ظاهر مكشوف، وإما باطن مستور»[3] . فقد يكون الإمام – عندهم – ظاهراً، وقد يكون مستوراً، لكنه في كلا الحالين موجود حيّ لا يغيب.

وزعم الإسماعيلية أن دور «الستر» بدأ بإسماعيل، وأن هذا الدور قد انتهى بظهور عبيد الله المهدي، في بلاد المغرب (سنة ٢٩٦هـ)، حيث أقام بها الدولة الفاطمية، التي ما لبثت أن اجتاحت مناطق النفوذ العباسي الواحدة تلو الأخرى وبسطت سلطانها على الجناح الغربي من العالم الإسلامي.

لقد أصابت الدولة الفاطمية أكبر قدر من النجاح في أقل مدة من الزمن، وكان

---

(١) راجع الكشي : أبو عمر بن عبد العزيز، معرفة الرجال، طبع بومباي ١٣١٧هـ، ص ٢٠٦-٢٠٧. النوبختي: أبو محمد الحسن بن موسى، فرق الشيعة، طبع النجف ١٩٣٦م، ص ٦٩ وما بعدها. القمي : سعد الدين عبد الله خلف الأشعري، كتاب المقالات والفرق، تحقيق محمد جواد مشكور، طهران ١٩٦٣م، ص ٨٢. الشهرستاني : محمد بن عبد الكريم. الملل والنحل، طبع مصر (مطبعة الأزهر)، ١ : ٣٨٢. البغدادي : أبو منصور عبد القاهر، الفرق بين الفرق، تحقيق محمد بدر، مصر ١٩١٠م، ص ٢٤٢. الجويني : علاء الدين عطا ملك، تاريخ جهانگشاي، الترجمة العربية لكاتب هذه السطور، مصر ١٩٧٥م، ص ١٥٧. برنارد لويس: أصول الاسماعيلية، الترجمة العربية لخليل أحمد جلو وجاسم الرجب، مصر ١٩٤٧م، ص ١١١.

(٢) انظر كتاب دولة الإسماعيلية في إيران، لكاتب هذه السطور، مصر ١٩٧٥، ص ٢٤.

(٣) الشهرستاني : الملل والنحل، ١ : ٤٢٥.

دخول مصر في قبضتهم (سنة ٣٦٢هـ) بداية عصر جديد تجدد فيه طموحهم لبسط نفوذهم على العالم الإسلامي كله. فتحركوا في تنظيم محكم دقيق لبث دعاتهم في المناطق الشرقية الخاضعة اسمياً للخلافة العباسية - وبخاصة بلاد الفرس - يدعون الناس بها إلى اعتناق مذهبهم، والدخول في طاعتهم، والخضوع بالتالي لنفوذ الخلافة الفاطمية.

غير أن الدعوة الفاطمية لم تلق منذ بدايتها في عصر المعز لدين الله الفاطمي (٣٤١-٣٦٥)(٤) النجاح المنتظر لها في البلاد الفارسية، فلقد كان لها العديد من الخصوم في العقيدة والسياسة على السواء، وكان هؤلاء الخصوم يقفون لها بالمرصاد فتعرضت لكوارث متلاحقة على يد السامانيين ثم الغزنويين من بعدهم. إلا أن تلك الدعوة ما لبثت أن انتعشت هناك في ظل حكم المستنصر بالله الخليفة الفاطمي (٤٢٧-٤٨٧)، فنشط الدعاة في تلك البلاد نشاطاً ملحوظاً، وتمكنوا من دفع مجموعة من الشخصيات الفارسية الفذّة إلى القاهرة لكي يُلَقَّنوا أصول المذهب الإسماعيلي، ويتحققوا بأنفسهم من عظمة الخلافة الفاطمية كما تتجلى في حاضرتها العامرة، ثم ليعودوا بعد ذلك إلى بلادهم وقد ملأهم الحماس للعمل من أجل رفع راية الفاطميين فوق الأرض الفارسية رغم كل التحديات والمصاعب.

كان من بين تلك الشخصيات الفذّة الشاعر والرحالة المعروف «ناصر خسرو» الذي انطلق من بلده خراسان في سنة ٤٣٧هـ، باحثاً عن النموذج الأمثل للحكومة الإسلامية، فما وجده بعد طول عناء - كما يزعم هو - إلا في الأئمة والخلفاء الفاطميين، وما شاهد من مظاهر العلم والعدل والرخاء والنعمة في طول الأقطار وعرضها مثلما شاهد في عاصمة الفاطميين وبلادهم.

وعاد إلى بلاده وقد قلّده الفاطميون منصب كبير دعاتهم في خراسان، ولكنه

(٤) راجع في هذا الشأن نص الوثيقة التي حفظها لنا المقريزي في كتابه : «اتعاظ الحنفا في أخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء»، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال، مصر، ١٩٤٨، ص ٢٦٠، والوثيقة عبارة عن رسالة بعث بها المعز إلى الحسن القرمطي حول تنظيمات الدعوة الفاطمية في أرجاء المعمورة. وانظر أيضاً : المسعودي : التنبيه والإشراف، طبعة دى خويه، ليدن ١٨٩٣م، ص ٣٩٥.

غادرها مضطراً، واتخذ من جبال «يمگان» مقراً لبث دعاته ونشر دعوته، فأصاب قدراً لا بأس به من النجاح حتى توفي في سنة ٤٨١هـ.

وكانت مجموعة من الآراء التي انتهى إليها عدد من كبار الدارسين للآداب الفارسية حول البواعث التي أملت على ناصر خسرو التوجه إلى القاهرة، قد استقرت وأصبحت وكأنها حقائق مسلّمة لا تقبل المحاجّة والجدل. بيد أن هذه الآراء بدت لنا منذ مدة - ونحن نعدّ دراستنا عن تاريخ الدعوة الفاطمية في إيران (بين سنتي ١٩٦٣ و١٩٦٧) - بحاجة إلى إعادة نظر في ضوء ما أسفرت عنه الأبحاث الحديثة من معلومات حول مسار دعوة الفاطميين في البلاد الفارسية، وعلى هدى من دراسة نصّية متعمقة لبعض أشعار «ناصر خسرو» التي كشف فيها عن جانب من دوافعه للقيام بهذه الرحلة وسلوك الطريق إلى مصر الفاطمية.

فهذه الدراسة بمثابة رؤية جديدة وإعادة فحص للظروف والملابسات التي دفعت هذا الشاعر الرحّالة إلى مغادرة دياره في إقليم خراسان، والقيام بجولة واسعة في شرق العالم العربي، ثم توجهه إلى مصر، حيث ألقى فيها رحاله، وأقام بها زمناً لُقّن خلاله أصول الدعوة الفاطمية، ثم عاد إلى موطنه لكي يقوم بدور «حُجة خراسان» أي الداعية الأكبر للفاطميين بذلك الإقليم الهام من الأقاليم الفارسية.

١ - ناصر خُسرو : تعريف أوّلي :

ولد أبو معين ناصر خُسرو القباديانـي - كما يقول هو في ديوانه - في شهر ذي القعدة سنة ٣٩٤هـ[٥] (أغسطس ١٠٠٤م)، بقرية «قُباديان» - من أعمال «بَلخ»[٦] وهي قرية لم تكن في القرن الرابع الهجري مجرد منطقة زراعية فحسب، بل كانت مركزاً صناعياً وتجارياً أيضاً بسبب وقوعها بالقرب من المعبر الرئيسي لنهر جيحون[٧] .

(٥) انظر : ديوان ناصر خسرو، باهتمام نصر الله تقوي ومجتبى مينوي، طبع طهران ١٣٠٧هـ . ش، مقدمة الديوان.

(٦) انظر : ديوان ناصر خسرو، ص ٢٩٧، ص ٢٣.

(٧) انظر : آي، ي، برتلس : ناصر خسرو وإسماعيليان، الترجمة الفارسية، طهران ١٣٤٦ هـ . ش، ص ٢٦٨.

ونشأ ناصر خسرو - كما يبين من أقواله في مؤلفاته - في أسرة غنيّة من أسر مالكي الأراضي الفرس، وكانت أسرته تمتلك أراضي ومزارع وفيرة، كما كان بعض إفرادها يشغلون الوظائف الحكومية والمناصب الديوانية.

والواقع أن الفترة الأولى من حياة ناصر خسرو، منذ صغره حتى بلغ الثانية والأربعين، حينما حدث التحوّل الكبير في حياته، تعد غامضة إلى حد كبير لا نستطيع أن نتبين منها إلا لمحات خاطفة من خلال الإشارات التي أوردها عرضاً في أشعاره ومؤلفاته. وإذا نحن عمدنا إلى جمع هذه الإشارات وتصنيفها وترتيبها زمنياً، استطعنا أن نكّون تصوّراً مجملاً لما كان عليه حال الشاعر في تلك الفترة الغامضة من حياته.

كان «ناصر» عندما غادر قُباديان متوجهاً إلى بلخ - في ريعان الشباب. ويبدو أن الحياة التي عاشها في تلك المدينة الكبيرة كانت حياة هانئة وادعة رخيّة، فكثيراً ما كان يتذكر - وهو في شيخوخته - ديار بلخ ويشكو بعده عنها[٨] .

ويبدو أن «ناصرا» قد أوتي منذ صغره موهبة شعرية ملحوظة، لكنه لم يحسن استخدامها على النحو الأمثل، إذ قصَر شعرَه[٩] - في تلك الفترة المبّكرة من حياته - على شعر الغزل والمدح. وها هو ذا يعرب في إحدى قصائده عن ندمه أشد النّدم على ما ارتكبه - في شبابه - من ذنب في حق الشعر، حين أوقف موهبته الشعرية على : «وصف النؤابة المعلّقة التي يداعبها الهواء، والتغني بسحر العيون الزُّرق، والشَّعر الأسود الفاحم»[١٠] .

ويشير في قصيدة ثالثة إلى أنه كان إذا أعوزه المال لجأ إلى باب السلطان

---

(٨) اي بادِ عصر، اكركذرى بر ديارِ بلخ — بگذر بخانهء من، وآنجاى جوىْ حال
بنكر كه چون شد است پس از من ديارِ من — با اوچه كرد دهر جفا جوى بد فعال
(الديوان : ٢٥٣-٢٥٤).

(٩) لم ترد هذه الأشعار في ديوان ناصر خسرو، ويبدو أنه عرض عن إثباتها في ديوانه، ومن ثمّ فإن الديوان لا يشتمل إلا على الأشعار التي نظمها بعد التحول الكبير الذي حدث في حياته.

(١٠) با پشت چو حلقه چند كوئى — وصفِ سرِ زلفكِ مُعلَّق
يكچند بزرق شعر كفتى — بر شَعرِ سياه وچشمِ ازرق
(الديوان : ص ٢٣٦)

مستخدماً براعته لمدحه والثناء عليه، علّه يجد فيه ملجأ وملاذاً من الدّهر. وكان عليه أن يقدّم فروض الطاعة للسلطان مائة مرّة آملاً من وراء ذلك كله أن يحظى عنده بالرضا والقبول، ولكنه لم ينل من ذلك كله إلا التعب والعناء(١١) .

وليس معنى هذا أن ناصر خسرو كان شاعراً محترفاً من شعراء الديوان، وإنما كان - كما أشار بنفسه في كتابه «سفر نامه» - يشغل وظيفة إدارية ذات صلة بالحسابات والأموال(١٢) ، وقد كان - كما يبدو من كتابه سفرنامه - ملماً بالقدر الضروري من العلوم المتداولة في عصره، لكن اهتمامه كان منصباً في تلك الفترة من حياته على إتقان المحاسبة والرياضيات والنجوم (الفلك)، وهو ما يدخل في نطاق اهتمامات عمّال الديوان والكتّاب(١٣) . كما كان شاباً جلداً قوياً حسن الطلعة فارع الطول لطيف المعشر، وجهه مشرباً حمرة، لا يكاد من يراه في شيخوخته يعرفه لكثرة ما لحق بهيأته وشكله من تغيّر وتحوّل(١٤) . لهذه الأسباب كلها، وبفضل أصله الطيب وأسرته الغنية وقريحته الشعرية التي كانت تجود - بخاصة - في مجالس الشراب والسمر، وجد «ناصر» سبيله إلى بلاط السلطان.

وكثيراً ما أشار في أشعاره إلى أنه كان يجالس الأمراء والوزراء والأعيان فلا يخلو مجلسهم منه ولا يحلو ناديهم إلا به(١٥) .

فمن هؤلاء الأمراء الذين كان ينادمهم ناصر خسرو في تلك الفترة؟ يقول في كتابه سفرنامه : «لقد شاهدت بنفسي بلاط ملوك العجم وسلاطينهم، مثل السلطان محمود

---

(١١) ديوان ناصر خسرو، ص ٢٧٢.

(١٢) انظر : سفرنامهء ناصر خسرو، تحقيق دكتر محمد دبير سياقى، تهران ١٣٣٥، ص ٨٤.

(١٣) انظر : سيد جعفر شهيدى، أفكار وعقايد كلامي ناصر خسرو، دانشگاه فردوسي، مشهد ٢٥٣٥، ص ٣١٦-٣٤٠، وانظر أيضاً : برتلس : ناصر خسرو وإسماعيليان، ص ٢٨٠. وغلام حسين يوسفي، ديداري با اهل قلم، طهران ٢٥٣٥، ١ : ٥٤-٥٥.

(١٤) اي برادر گر ببيني مر مرا باورت نايد كه من آن ناصرم
چون دگر گون شد همه احوال من گر نشد ديگر بگوهر عنصرم

(١٥) انظر الديوان : ص ١٥٦، ١٩٠، ٢٧٠.

الغزنوي وابنه مسعود»[١٦]. ونحن نعرف أن السلطان محمود الغزنوي وابنه مسعود كانا يتخذان من «بلخ» عاصمة ثانية لهما بعد «غزنة»، ويحبان أن يقضيا فيها أوقاتاً كثيرة، بل كان السلطان محمود يقضي فيها أحياناً فصلاً من فصول السنة بأكمله[١٧] .

ويبدو أن ناصر خسرو قد التقى بالسلطان محمود وابنه مسعود في مدينة بلخ التي كان قد هاجر للإقامة فيها بعد أن ترك «قباديان». بل ربما كان - كما يقترح المستشرق الروسي «برتلس» - قد حظي بمكانة رفيعة بديوان الغزنويين زمن حكم السلطان مسعود، قبل أن يداهمه «السلاجقة» ويطردوه من خراسان[١٨] .

وعندما قام السلاجقة وبسطوا سيطرتهم على البلاد الفارسية بأسرها، نصبوا لكل إقليم حاكماً من بينهم، ودرجوا - لعدم إيلافهم مواقع السلطة والحكم - على الاستعانة بأبناء البلاد الأصليين من الفرس في إدارة شئون دولتهم المترامية الأطراف، وقد ندب السلاجقة ناصر خسرو للعمل في الديوان، يقول في «سفرنامه» : «كنت رجلاً أصطنع الكتابة حرفة، وكنت من بين المتصرفين في الأموال والأعمال السلطانية، واشتغلت بالأعمال الديوانية حيناً من الدهر، وما إن باشرت هذا العمل مدة حتى نلت شهرة بين الأقران. وفي ربيع الآخر سنة ٤٣٧هـ (١٠٤٥م) حين كان أمير خراسان هو «سليمان چغري بيك داود بن ميكال بن سلجوق»، خرجت من «مرو» كرسيّ الملك، ونزلت «پنج ديه» بمنطقة مرو الرود...»[١٩] .

ويبدو من كتابه «سفرنامه» أن ناصر خسرو لم يكن قانعاً بوظيفته الصغيرة عند أمراء السلاجقة، ولكن حقيقة مشاعره تجاه السلاجقة تتبدى بوضوح في الديوان، حيث بدا وكأنه كان يمقتهم من كل قلبه، ويتمنى زوال ملكهم ويرى أنهم ليسوا أهلاً لأن

---

(١٦) سفرنامه، ص ٧٠.

(١٧) انظر : عبد الحي الگرديزي، زين الأخبار، تحقيق عبد الحي حبيبي، طبع طهران ١٣٤٧هـ. ش، ص ١٧٨، ١٨٢، ١٨٦، ١٩٦.

(١٨) انظر : برتلس، ناصر خسرو وإسماعيليان، ص ١٧٦.

(١٩) سفرنامه، ص ١.

يكونوا سادة وحكاماً، فقد سماهم «ذئاب الصحراء»، وهو يأسف على أيام السامانيين والمجد الذي نالته منطقة خراسان على عهدهم، بينما أصبحت خراسان في عهد السلاجقة مكاناً للأخسّاء والأنذال، وأصبح الأوباش والسِّفلة سادة وحكاماً له(٢٠) .

٢ - تحوّل في حياة الشاعر :

كان ناصر خسرو قد بلغ الأربعين من عمره، وبدأت نظرته للحياة من حوله بمختلف مظاهرها السياسية والاجتماعية والفكرية، تتحدد وتتبلور، فشعر بكثير من الضيق واليأس لما شاهده من مظاهر التدمير والخراب الذي لحق بخراسان في أوائل حكم السلاجقة، وعجزهم عن إقرار الأمن بين الأهلين، واشمأزّت نفسه من فرط جهلهم وأمّيتهم، وقسوتهم البالغة(٢١) .

على أن التدهور الذي لاحظه «ناصر خسرو» في مظاهر الحياة السياسية والاجتماعية عقب تسلط السلاجقة على بلاده لم يكن السبب الوحيد فيما انتابه من ضيق وضجر في تلك الفترة من حياته، بل استبد به الضيق من حياته الخاصة نفسها، فقد أشار في إحدى قصائده إلى حياة اللهو واللعب التي كان يحياها قبل أن يفيق من غيّه، وأعرب عن أسفه على تلك الفترة الضائعة من حياته، والتي قضاها في الذنوب والآثام، ولم يكن له من همّ حينذاك إلا الأكل والشرب، ويشبّه نفسه في تلك الفترة بأنه كان كالحمار الذي يرعى الكلأ والحشائش، وأنه كان يلبس الحرير ويتزين بالديباج، لكن أذنيه كانت صمّاء لا تستمع لصوت العقل لفرط الانشغال بالدنيا. وأنه كان مغروراً، يظن أن لا مثيل له بين الناس كنديم في مجالس السمر وكشاعر مبدع وكاتب

---

(٢٠) خراسان زآل سامان چون تُهی شد — همه دیگر شد است احوال وسامان
زبس دستان وبی دینی بماند است — بزیرِ دستِ قومی زیر دستان
بصورتهای خوب مرد مانند — بسیرتهای بد گرگ بیابان
(الديوان : ص ٣٢٦، وانظر أيضاً ص ٣٢٩ من الديوان).

(٢١) مرا دونان زخان ومان براندند — گروهی از نمازِ خویش ساهون
خراسان جای دونان شد، نگنجد — به یك خانه درون آزاده دون
نداند حال وکار من جز آنکس — که دونانش کنند از خانه بیرون
(الديوان : ص ٣٢٩).

لا يُشق له غبار. ويشير إلى أنه طالما شرب الخمر مع الحاكم المطاع للبلاد، وأنه مع ذلك كان مهاباً لدى الجميع بمن فيهم الوزير، بل كان الأميْر نفسُه يعدّه سيداً ذا شأن وخطر. كما يصرّح بأن عينيه كانت معلقة على الدوام بيد الأغنياء انتظاراً لعطاياهم وهداياهم، ولم يكن يمدّ يداً يساعد بها الأيتام من أقاربه ولا الفقراء من جيرانه ومعارفه، ومن ثم يتحسر على ما بدر منه، ويحدث نفسه قائلاً : «لو ذكرت ما اقترفت من آثام، لا سودّ وجهك ولأظلم ضميرك»(٢٢) .

من أجل ذلك كله أراد «ناصر» أن ينفض يده من الوتيرة التي سارت عليها حياته الخاصة والعامة جميعاً، فأشاح بوجهه عن الحياة الديوانية، وانصرف عن بيع شعره عند الملوك والحكام، وحدّثته نفسه بالتوبة إلى الله والرجوع إليه، فاندفع نحو علماء الدين في «بلخ» يتلمس عندهم سبل الرشاد، فرحبوا به وطمأنوه على أنه سينجو من براثن الجهل والضلال(٢٣) .

كان الغزنويون والسلاجقة من بعدهم على مذهب الإمام أبي حنيفة أو مذهب الإمام الشافعي - رضي الله عنهما - وكان أهم ما ينبغي أن يتوفر في عمالهم والمحيطين بهم والمخالطين لهم أن يكونوا على واحد من مذاهب أهل السنة، لا يعدلون عنها إلى غيرها من المذاهب بعامة وإلى مذهب الفاطميين الإسماعيلية بخاصة(٢٤) . وكان الأعيان والأشراف من أهل خراسان نفسها على المذهب الحنفي أو الشافعي(٢٥) . ومن ثم لا يبعد أن يكون «ناصر خسرو» قد ظل حتى تلك الفترة الحاسمة من حياته على واحد من مذاهب أهل السنة الغالبة بين الأعيان في «بلخ»، وأنه لجأ ثمّت إلى فقهاء مذهبه يستفتيهم ويأخذ عنهم ويتعلم منهم.

---

(٢٢) زاوّل چنانت بود گمانی كه در جهان | كاريت جز خور نه قليلست ونه كثير
بانـاز وبی نيـاز ببيـداری وبخـواب | بر تن حرير بودت ودر گوش بانگِ زير

(٢٣) انظر : الديوان، ص ٢٧٢.

(٢٤) راجع مثلاً : قصة مقتل الوزير «حسنك» أحد المقربين للسلطان مسعود بتهمة القرمطية (الفاطمية) في كتاب تاريخ البيهقي.

(٢٥) انظر : تقي زاده، مقدمة ديوان «ناصر خسرو»، ص يا.

ولكن ما لبث «ناصر» بعد فترة من الوقت أن أدرك أنه ما جني شيئاً باندفاعه نحو رجال الدين في بلده، فهو قبل أن يتجه إليهم لم يكن ينقصه الإلمام بأصول الدين وشعائره بقدر ما كان ينقصه المُعين على العمل به والسير على نهجه. غير أنه أمضى بينهم - كما يقرر بنفسه - من عمره بضع سنين في القيل والقال والمقالات المختلفة والخلافات بين الفرق والمذاهب، وعاين بنفسه ما هم عليه من تقاضيهم للرشوة ومراءاتهم للناس، فشعر بأنه - عندما فرّ من السلطان ولجأ إلى الفقهاء - كان كمن يلقي بنفسه في فم التنّين هرباً من النّمل(٢٦) . ولذلك أعرض عنهم مغضباً يائساً، قد طوى قلبه على الضجر والملال من افتعال أهل الزمان، وتظاهرهم الكاذب بالتقوى والإيمان. فاعتزلهم ونأى بنفسه مبتعداً عنهم مبايناً لهم في الأقوال والفعال، وأعرض عن مألوف عادته في مخالطتهم والركون إليهم.

ويبدو أن فكرة السفر والارتحال عن خراسان - التي قصُرت الحياة الفكرية فيها عن أن تروى ظمأه - قد خامرته في تلك الفترة.

تحدث ناصر خسرو - في كتابه النثرى «سفرنامه» - عن تحوّله الذي بدأ في سنة ٤٣٧هـ، وهو في الثالثة والأربعين من عمره، فذكر أنه رأى رؤيا غريبة، كانت السبب المباشر في مغادرته البلاد والقيام برحلة طويلة استغرقت زهاء سبع سنوات. فلقد رأى فيما يرى النائم رجلاً يقول له: «إن الوعي أفضل من الغفلة وشرب الخمر»، وعندما يسأله ناصر كيف يمكن تحصيل هذا الوعي، يرد عليه الرجل بقوله : «من جدّ وجد»، وأشار تجاه القبلة، ولم يزد على ذلك وانصرف. ولقد تركت هذه الرؤيا أثراً بالغاً في

---

(٢٦) وز مال شاه ومير چو نوميد شد دلم ... زى اهل طيلسان وعمامه وردا شدم
كفتم كه راه دين بنمائيد مرمرا ... زيرا كه ز اهل دنيا دل پر جفا شدم
كفتند شادباش كه رستى زجور دهر ... تا شاد كشت جازم واندر دعا شدم
كفتم چو نامشان علما بود وكار جود ... كز دست فقر جهل چو ايشان رها شدم
تا چون بقال وقيل ومقالاتِ مختلف ... از عمر چند سال ميا نشان فنا شدم
كفتم چو رشوه بود وريا مال وزهد شان ... اى كرد كار بازيچه مبتلى شدم
از شاه زى فقيه چنان بود رفتنم ... كز بيم مور در دهن اژدها شدم
(الديوان : ص ٢٧٢-٢٧٣).

نفس ناصر خسرو، فقلت لنفسي : «لقد صحوت من نوم البارحة فجدير بك أن تصحو من نوم الغفلة التي استغرقت حياتَك كلها»(٢٧) .

سافر «ناصر خسرو» في إثر ذلك مباشرة إلى العاصمة «مرو» حيث قدّم استقالته إلى رئاسته هناك، وخرج مما كان له من مال وضياع وعقار، ولم يُبق لنفسه إلا «القليل الضروري»، وانطلق في طريقه معلناً أمام الناس أنه إنما يريد الحج. وقد غادر بلده مصطحباً معه أخاه الأصغر وغلاماً هندياً (٢٨) . بدأت الرحلة في جمادى الآخرة سنة ٤٣٧هـ، لكن ناصراً لم يؤد فريضة الحج من عامه ذاك، وإنما قضى نحو سنة وبضعة أشهر جائلاً في البلدان، ثم انطلق إلى الحجاز حيث قضى حجته الأولى في موسم سنة ٤٣٩هـ.

لقد كان أداء فريضة الحج إذن هو الهدف المعلن الظاهر لرحلة ناصر، وهو الهدف الذي عبّر عنه في كتابه النثرى «سفرنامه»، لكن هدفاً خفياً آخر كان يدفع الرجل - منذ الوهلة الأولى - للقيام برحلته الطويلة الشاقة، وهو البحث عن أمر أعيته الحيلة في العثور عليه في وطنه، فمضى هائماً على وجهه يبغي الوصول إليه حيثما وجده.

والذي يرجح أن أداء فريضة الحج لم يكن هو هدفه الرئيسي من هذه الرحلة، هو أنه عندما انطلق من بلاده لم يشأ أن يخرج مع قافلة الحجيج التي كانت تنطلق من البلد كل عام، بل ابتعد عن القافلة، ولم يسلك طريق الحج المعروف المتجه إلى الغرب مباشرة نحو العراق وبغداد، وإنما سلك طريقاً متعرجاً، فاتجه إلى الشمال الغربي، ثم انحدر من آذربايجان إلى الجنوب الغربي نحو الشام وفلسطين، فبدا وكأنه قد تفادى المرور في العراق - موطن الخلافة العباسية - كلية. وعندما انتهى موسم الحج لم يعد إلى بلده كما يفعل الحجاج إذا ما أتموا مناسكهم، بل اختار اتجاهاً معاكساً تماماً، فولى وجهه شطر «مصر» فوصلها في سنة ٤٣٩هـ. فهل كان الذهاب إلى مصر في خاطره عندما عزم على الارتحال من بلده؟ وبعبارة أخرى، هل خضع قبل سفره لدعاة

---

(٢٧) سفرنامه : الترجمة العربية، لأحمد حامد البدلي، الرياض ١٩٨٣، ص ٢٦.

(٢٨) انظر : سفرنامه، ص ٣.

الفاطميين في خراسان وأجاب دعوتهم للانضواء تحت راية الخليفة الفاطمي؟

اختلفت آراء الباحثين وتناقضت مذاهبهم في هذه القضية ووقفوا منها موقف المؤيد تارة، والمعارض تارة أخرى.

فالمستشرق الروسي «إيڤانوف» يذهب في كتابه عن ناصر خسرو إلى أن الرجل قد ذهب للحج كأي مسلم سني عادي، ثم صادف دعاة الفاطميين وهو في طريقه إلى مكة فنصحوه بالذهاب إلى مصر التي عاد منها إلى موطنه كداع إسماعيلي كبير في مرتبة «الحُجة». لكن «إيڤانوف» يعود في موضع آخر من نفس الكتاب(٢٩) ، ويقول إن من المحتمل أن يكون ناصر قد اعتنق مذهب الإسماعيلية وهو في خراسان عن طريق اتصاله بواحد من صغار الدعاة، ثم توجه إلى القاهرة حيث تم قبوله للعمل في خدمة الدعوة بعد تدريبه لمدة بلغت السنوات الست، وعاد إلى موطنه وهو في تلك المرتبة ليتولى الدعوة للفاطميين. وإلى هذا الرأي نفسه يذهب الأستاذ الدكتور يحيى الخشاب والمستشرق الفرنسي «هنري كوربان»(٣٠) . أما رشيد الدين فضل الله - المؤرخ الإيراني الكبير في العصر المغولي - فيشير في كتابه «جامع التواريخ» إلى أن الخليفة الفاطمي «المستنصر بالله» دعا ناصر خسرو للقدوم إلى مصر مثلما دعا الحسن بن الصباح فيما بعد(٣١) .

علينا الآن أن ننظر في مدى ملائمة هذه الآراء التي انتهى إليها هؤلاء الباحثون الكبار لما كتبه «ناصر خسرو» عن نفسه، وفي ضوء الأساليب التي انتهجتها الدعوة الفاطمية في البلاد الفارسية، فهل يا ترى كانت مصر الفاطمية هي الهاجس الخفي والباعث الحثيث الذي دفع ناصراً إلى الارتحال عن خراسان والانطلاق في الطريق إلى القاهرة؟

---

(٢٩) راجع : Ivanow, W., Nasiri Khusraw and Ismailism, Bombay, 1947, p. 12, p. 32

(٣٠) انظر : يحيي الخشاب، مقدمة سفرنامه، الترجمة العربية، مصر ١٩٤٥، ص : ن، و.
Henry Corbin, Nasiri-i-Khusrau and Iranian Ismailism, The Cambridge History of Iran, Vol. 4 pp. 520-542.

(٣١) نقلاً عن الدكتور يحيى الخشاب، مقدمة سفرنامه، ص : ن.

أم أنه - كما حاول هو أن يوهمنا في كتاباته - قد خرج من بلده باحثاً عن أمر ما، يحدوه الأمل في أن يراه واقعاً ملموساً في مكان غير محدد وبلد غير معين، ومن ثم كانت البلدان كلها عنده متكافئة، ولم تكن مصر بذاتها منذ البداية مقصده، وإنما كانت كغيرها من البلدان ليست أكثر من مجرد مكان قد يجد فيه طَلِبَتَهَ ويحقق فيه بُغيته، وقد لا يجد؟

٣ - بـوادر جدليــة :

لقد بدا ناصر بعد إحساسه بالندم على ما بدر منه من تفريط في حق نفسه فيما مضى من حياته قبل بلوغه الأربعين، بدا شخصاً من الصعب احتواؤه أو التأثير عليه، فلقد عرك الحياة وأنضجته التجارب، ولم يكن من السهل أن يقتنع برأي لا تسنده الحجة ولا يدعمه البرهان. ولكن ذلك لا يعني أنه كان - كما يقول المستشرق الروسي برتلس - عالماً متبحراً في الفلسفة وعلم الكلام وعلم الملل والنحل، فهناك من القرائن التي أثبتها ناصر بنفسه في كتابه «سفرنامه» ما يدل على أن بضاعة الرجل من هذه العلوم كانت محدودة للغاية(٣٢) . إن التجاءه إلى رجال الدين في بلخ ثم إعراضه عنهم في النهاية لا يعني أنه كان أكثر منهم علماً في أمور الدين والشرع، إنما هو قد لجأ إليهم ليبحث عندهم عن شيء لا يسلّمون به أو يعتقدونه، فما هذا الشيء الذي كان يبحث عنه؟

يشتمل ديوان ناصر خسرو على قصيدة(٣٣) من أهم القصائد التي تعين الباحث على إدراك طبيعة التحوّل الذي طرأ على الشاعر في تلك الفترة من حياته، فلقد صرح فيها بالكثير مما كان حريصاً على إخفائه وتغييبه في كتابه «سفرنامه» عن تحوله، وباح

---

(٣٢) انظر في «سفرنامه» عجزه عن مناقشة أبي منصور محمد دوست بدليل عقلي فلسفي، واعتذاره عن قبول دعوة وزير ملك الأهواز لإحساسه بقلة بضاعته من العلم، راجع أيضاً : سيد جعفر شهيدي : أفكار وعقايد كلامي ناصر خسرو.

(٣٣) نظمها ناصر خسرو في بحر الهزج المثمّن المكفوف المحذوف، وتقع في ١٢٨ بيتاً، ومطلعها :

اى خوانده بسى علم وجهان گشته سراسر   تـو بر زمى واز بـرت اين چـرخِ مـدوّر

(ديوان ناصر خسرو : ص ١٧٢-١٧٧).

فيها بمشاعره، وأفصح عما اعتمل في نفسه من هواجس، وما تردد في وجدانه من شكوك، وعن دوافعه الحقيقية في السفر والارتحال، وبلوغه غايته عند وصوله إلى مصر، التي وصفها وصفاً رائعاً بديعاً.

يُظهر الشاعر - في بداية القصيدة - مدى الجزع والحسرة على ما فاته من سنين بلغت أربعين سنة، بدا فيها كالنائم الذي لا يعقل، يبين أنه قد استقر على أمر متيقّن ومسلّمة بدهية لا تقبل الجدل عنده، وهي بدهية ما سلّم بها إلا بمحض النظر العقلي وحده. ثم مضى يبحث لها عن سند لدى أهل الفرق المختلفة في زمانه. وهي أنه لا بد من وجود واحد أفضل من الناس جميعاً :

«گفتم ز همه خلق كسى بايد بهتر»، ومعناها : قلت يجب وجود شخص أفضل من سائر الخلق. ويضيف في قصيدته أن الذي حمله على هذا اليقين هو التفاضل المشاهد في الكون والتفاوت في الشرف بين الكائنات، فلا بد من وجود رتبة عالية في كل نوع من الأنواع : «كالصقر من الطيور، والجمل من الحيوانات، والنخل من الأشجار، والياقوت من الجواهر، والقرآن من الكتب، والكعبة من الأبنية، والقلب من الجسد، والشمس من الأفلاك»(٣٤) .

وهو يعني بهذا أنه إذا كان هناك تفاضل بين الأجناس والأنواع فهناك أيضاً تفاضل في النوع الإنساني، ولا بد من وجود فرد من أفراد هذا النوع يفضل سائر الأفراد. والإشارة صريحة هنا إلى أن «ناصراً» قد سلّم بمقولة ليست من مقولات أهل السنة والجماعة (وقد كان على الأرجح منهم)، وهي القول بوجوب الإمامة وبضرورة وجود إمام «حيّ قائم» أفضل من سائر البشر، وقد بدا له هذا الوجوب عقلياً لا شرعياً، فالعقل - عنده - يقول به ويوجبه.

---

(٣٤) چون يافتم از هر كس بهتر تن خودرا — گفتم زهمه خلق كسى بايد بهتر
چون باز ز مرغان وچو اشتر زبهائم — چون نخل زاشجار وچو ياقوت ز جوهر
چون فرقان از كتب وچو كعبه ز بناها — چون دل زتنِ مردم و خورشيد ز اختر

٤ - تعسف ظاهر :

كان ناصر خسرو مقتنعاً - كما صرح هو بنفسه - بهذا المبدأ، مسلّماً به كل التسليم حين انطلق إلى علماء أهل السنة في بلده بلخ، لا ليلتمس عندهم الهداية والرشاد في أمور الدين، بل لينظر فيما إذا كانوا يقولون بما قال هو به من وجوب الإمامة، فوجدهم لا يقولون به ولا يعتقدونه، ولو كان ناصر على شيء من الدراية بأمور الدين وعلوم المللْ والنحل - كما يزعم برِتْلس - لكان قد أدرك أن الإمامة - حسب مفهومه هو - ليست من مقولات أهل السنة، ولما كلف نفسه كل هذا العناء. ويبدو أنه سألهم عما انتهى إليه - بمحض نظره العقلي كما يزعم هو - من وجوب وجود الإمام، لكنه لم يجد عندهم ما يؤكد عقائده فأعرض عنهم يائساً غاضباً، يقول :

«اعتراني الغم من الفكر واستغرقت روحي في التأمّل، وشَرَعتْ هذه النفسُ المفكِّرة تبحث عن مُفكِّر. فبحثنا عند الشافعية والمالكية وفي مقالات الحنفية عمن اختاره الله كقائد وزعيم. ولما طلبت «كيف؟ ولماذا؟» والبرهان القاطع، تخبطوا جميعاً فصار هذا أعمي وذاك أصمّ».

وهكذا بدا موقفه من أصحاب هذه المذاهب ظاهر التعسف لدخوله عليهم بفكرة مسبقة يحكم بمقتضاها على أجوبتهم عن مسألته. فكان يشبه من ذكرهم الإمام أبو حامد الغزالي بقوله إنهم في الواقع «لا يطلبون الحق، بل يطلبون طريق الحيلة في نصرة ما اعتقدوه... فإن صادفوا في نظرهم ما يؤكد عقائدهم قالوا : قد ظفرنا بالدليل، وإن ظهر لهم ما يضعف مذهبهم قالوا : قد عرضت لنا شبهة؟!... وإنما الحق ضدّه، وهو أن لا يعتقد شيئاً أصلاً، وينظر إلى الدليل ويسمي مقتضاه حقاً، ونقيضه : باطلاً»(٣٥) .

ومن حقنا أن نتساءل : هل كان بوسع ناصر خسرو - على قلة بضاعته في الفلسفة والعلم - أن يصل وحده إلى مسلّمة عقلية يتمسك بها كل هذا التمسك دون إيعاز من خارج؟

---

(٣٥) الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد : الاقتصاد في الاعتقاد، طبع مصر، ص ٩٨، ٩٩.

وبعبارة أخرى هل وقع «ناصر» خلال تلك الفترة تحت تأثير بعض دعاة الفاطميين الذين نشطوا في تلك المناطق بعد وفاة ألد أعدائهم «السلطان محمود الغزنوي»، وذهاب ريح الغزنويين عن خراسان؟

٥ - تأثير دعاة الفاطميين :

إن نظرة منا إلى مراتب الدعوة الفاطمية ودرجات الدعاة(٣٦) تجعلنا نرجح أن الشاعر قد تأثر ببعض صغار الدعاة الذين كانوا منبثين هنا وهناك في أرجاء خراسان لا يعلنون عن أنفسهم ولا عن مذهبهم. وإنما حسبهم أن يجتذبوا إلى هذا المذهب - خفية - من يلمسوا عنده استعداداً لقبول دعوتهم من أتباع المذاهب الأخرى.

ولقد كانت أدنى درجة الدعاة الفاطميين هي درجة الداعي «المُكاسِر» (أي الذي يكسر عقائد المستجيبين ويشككهم فيها)، فيبدأ الداعي أول ما يبدأ بزلزلة عقائد المستجيب، فيعمد ثمت إلى إثارة مجموعة من الأسئلة الغامضة حول العبادات والمعاملات، موهماً إياه أن الدين أمر مكتوم وأن أكثر الناس به جاهلون، فهو صعب مستصعب وعلم خفي غامض، ويقول : «ما سبعة أبواب النار، وما ثمانية أبواب الجنة؟. ولم جُعلت السماوات سبعاً والأرضين سبعاً والمثاني من القرآن سبع آيات؟ وما معنى قول الفلاسفة : الإنسان عالم صغير، والعالم (الطبيعة) إنسان كبير؟».

ثم يبين الداعي بعد ذلك أن الله - عز وجل - «حكيم غير مجازف وأنه فعل جميع ذلك لحكمة، وله فيها أسرار خفية». فإذا ما أيقن الداعي أن نفس المستجيب قد تعلّقت به في طلب الجواب عن هذه الأسئلة أخذ عليه العهد «بألا يفشي لهم سراً ولا يظاهر

---

(٣٦) راجع في مراتب الدعاة كتاب الداعي الإسماعيلي حميد الدين الكرماني (توفي بعد سنة ٤١١هـ)، المسمى بكتاب «راحة العقل»، تحقيق محمد كامل حسين ومحمد مصطفى حلمي، طبع مصر ١٩٥٢، ص ١٣٠-١٣٨. وقارن أيضاً : النويري : نهاية الأرب، النسخة المصورة بدار الكتب المصرية ٥٤٩ معارف عامة، ج ٢٣، ورقة ٥٨ وما بعدها. وابن الدواداري : كنز الدرر وجامع الغرر، النسخة المصورة بدار الكتب المصرية ٢٥٧٨ تاريخ، ج ٦، ورقة ٦٧. والمقريزي : الخطط، طبع مصر ١٣٢٤هـ، ٢ : ٢٣٤-٢٣٥. وانظر أيضاً :

Browne, E, G, A litrary History of Persia, London 1919, vol. 1 p. 410.

عليهم أحداً ولا يطلب لهم غيلة ولا يكتمهم نصحاً ولا يوالي لهم عدواً»[٣٧] .

ثم ينتقل الداعي بالمستجيب إلى مرتبة أخرى يعلمه فيها أن فرائض الدين لا تؤدي إلى مرضاة الله إلا إذا كانت عن طريق «أئمة نصبهم للناس وأقامهم لحفظ شريعته». وهنا يستبد الشك بنفس المستجيب، وتتراءى أمامه كل العلوم والمعارف التي اكتسبها سراباً، لكونها قد انتقلت إليه من طرق أخرى غير الطريق الصحيح الذي اعتقده هو.

وفي حالة «ناصر خسرو» فقد كانت هذه هي نفس المسلّمة التي انتهى إليها، وحاول أن يتحقق من توافرها في عقائد الفرق والمذاهب السائدة في خراسان، فأخفق.

وربما كان ناصر خسرو - بتكوينه الشخصي - هدفاً ينطوي على إغراء لمثل هؤلاء الدعاة، فلقد كان ناصر خسرو ناقماً على السلاجقة، يستنكف أن يكون هو ومواطنوه من الفرس رعية لهؤلاء الغزّ الأجلاف الأخسّاء، وساءه أن يذل مواطنوه الأحرار لهؤلاء الأراذل من الترك[٣٨] . وكان بالتالي يتطلع إلى التخلص منهم. كذلك كان ناصر موظفاً بديوان السلاجقة. وكان يشعر - كما أسلفنا - بأن طموحاته أكبر من هذه الوظيفة. والحق أن دعاة الإسماعيلية كانوا في تلك الفترة قد غيّروا من طريقتهم وأخذوا يوجهون دعوتهم إلى طبقات الموظفين والفلاحين والعمال بعد أن ظلوا ردحاً من الزمن يقصرون دعوتهم على الطبقات الحاكمة وحدها[٣٩] . ولعلهم كانوا يتخيرون

---

(٣٧) احتفظ النويري في «نهاية الأرب» وابن الداواداري في «كنز الدرر وجامع الغرر»، والمقريزي في «الخطط»، بصورة كاملة للعهد الذي يأخذه الداعي على المستجيب.

(٣٨) زشت بود بودن آزاده را   بنده طوغان وعيالِ ينال

ومعناه : قبيح بفارسي حرّ أن يكون عبداً لطوغان وعيالا لينال. راجع الديوان ص ٢٥٣، وينال لقب من ألقاب الترك، أما الغزّ فاسم جامع استخدمه ناصر خسرو في ديوانه لمجموعات القبائل التي كانت تهاجر من تركستان والقبچاق وتستقر مدة في بلاد ما وراء النهر حتى تستجمع قوّتها ويكثر محاربوها فعند ذاك تعبر نهر جيحون إلى خراسان للاستقرار النهائي فيها، وكان هذا صنيع السلاجقة أنفسهم.

يقول ناصر في ديوانه ص ٣٢٩ :

نبات پُربلا غز است وقبچاق   كه رستستند بر اطراف جيحون

ومعناه : الغز والقبچاق نبت شيطاني خبيث، قد نما واعشوشب على أطراف جيحون

(٣٩) راجع كتابنا : دولة الإسماعيلية في إيران، ص ٣٩، ٨٧ وما بعدها.

أهدافهم من بين الموظفين أو العمال الناقمين على الحكومة السلجوقية، فوجدوا طَلِبَتهم في «ناصر» الذي كان إلى جانب ذلك كله شاعراً فصيحاً بليغاً، وبدا قبوله للدعوة الفاطمية يمثل كسباً كبيراً لها.

٦ - تداعي المسلّمات وتلاحقها :

والذي يرجحّ أن ناصراً كان خاضعاً لسيطرة بعض هؤلاء الدعاة في تلك الفترة من حياته ذلك التدرج في الانتقال من فكرة إلى أخرى في الطريق المؤدية في النهاية إلى الانقياد للخليفة الفاطمي باعتباره إماماً مؤهلاً لحل المشكلات العويصة التي تعترض الفكر والعقل. وهذا التدرج يتبدى حين يتقدم «ناصر» خطوة أخرى بإزاء خصومه في الفكر والاعتقاد، فيزداد موقفه تعسّفاً وتعنّتاً، حين لم يكتف بمجرد إلزامهم لأول وهلة بمقولته الخاصة بوجوب الإمامة، بل اشترط شرطاً آخر مبنياً عليها قد رآه لازماً لصحة التدين عنده، وهو أن يكون هناك دائماً إمام حيٌّ قائم يبسط يده للمؤمن كي يبايعه، مثلما بايع الصحابة النبي - صلى الله عليه وسلّم - بيعة الرضوان، يقول ناصر :

«قرأت ذات يوم من القرآن آية البيعة، فقد قال المولى في القرآن : (يد الله فوق أيديهم). هم القوم الذين بايعوا تحت الشجرة، كجعفر والمقداد وسلمان وأبي ذَرّ. قلت : أين تلك الشجرة، وكيف تكون اليد، أنّي لي أن أبحث عن تلك اليد والبيعة، وذلك المحضر؟!»

«قالوا : لم يبق ثمّت شجر ولا يد، لقد تلاشت اليد، وتبدّد الجمع وانتثر. هم كلهم صحابة الرسول، وثمت جنة مخصصة لتلك البيعة، وهي للأخيار من الخلق».

«قلت : واضح في القرآن أن أحمد، بشير ونذير وسراج منوّر. لو يريد الكافر أن يطفئه بفمه، ينيره الله ولو كره ذلك كل كافر. كيف إذن لم يبق اليوم من القوم أثر. ليس إلا الحقَّ ما قاله الملكُ العلام الأكبر. ها نحن أولاء نبسط أيدينا فأين بيعة الله، أم أن ما حظِيَ به السابقون لا يناله رجل مؤخرٌ. ماذا جنينا نحن إذ لم نولد في ذلك العصر، ولماذا نبقى من النبي بين محروم ومضطر. استحال وجهي من ألم الجهالة كوردة

صفراء، وانحني هذا القوام عندئذ وانطوي كأنما قد كُسِر»[٤٠] .

وهذا يعني أن ناصراً لم يسلّم بوجوب الإمامة وضرورة وجود إمام حيّ لكل زمان فحسب، بل بوجوب مبايعة الإمام كذلك. ولم يطق البقاء طويلاً على حالته تلك حين شعر بأنه إن لم يصل إلى جواب شاف عن الأسئلة التي تلح على خاطره، فقد قيمته واعتباره وأصبح من سقط المتاع[٤١] . يقول : «ومن ثمّ نهضت من مكاني، وانطلقت معتزماً السفر، لم أبال بأهل ولا مال، لم أعبأ بروضة أو منظر. وطلبت هذه الحاجة وسألت بإلحاح، فلم أعف أحداً من السؤال : سواء كان فارسياً أو عربياً أو هندياً، تركياً أو سندياً، رومياً أو عبرياً، فلسفياً أو مانوياً، صابئياً أو دهرياً»[٤٢] .

حمل ناصر هذه الأسئلة وغيرها، وأخذ يجوب الأقطار ويجتاز الفيافي والقفار، وكم لاقى من تعب ونصب. يصف متاعبه تلك وصفاً أخّاذاً بالغ الروعة بقوله :

«كثيراً ما جعلت من الحجر وسادة وفراشاً، وكثيراً ما جعلت من السحاب خيمة ولحافاً. تارة أهوي في وديان عميقة فأجاور السمك في اليم، وتارة أرقي جبلاً يعلو على الجوزاء. تارة أنطلق إلى أرض : الماء فيها جمد كالمرمر، وتارة أذهب إلى عالم : أرضه من الحرارة كجمر ذي شرر. أمرّ تارة ببحر، وتاره بتلّ، وتارة أسير على غير هدى. تارة جبل، وتارة حصى، وتارة نهر، وتارة جدول. تارة أضع حبلاً على رقبتي كالجمّال، وتارة أضع حملاً على ظهري كدابة من الدواب. مضيت سائلاً من مدينة إلى مدينة، طفت باحثاً من بحر إلى برّ»[٤٣] .

٧ - العقل والشرع :

كان ناصر كلما طرح على الناس أسئلته، «قالوا : إن موضوع الشريعة ليس بالعقل، لأن الإسلام ما تقرر إلا بحدّ السيف، فقلت : لماذا إذن لم تفرض الصلاة على

---

(٤٠) الأبيات الفارسية مثبتة في الديوان، ص ١٧٣-١٧٤.

(٤١) الديوان، ص ١٧٤، س ١٠، ١١.

(٤٢) أيضاً : س ١٢، ١٤.

(٤٣) الديوان، ص ١٧٤، س ١٥-١٩.

الأطفال والمجانين. وما دام الأمر كذلك فلماذا لا يصبح العقل مُخَيَّراً»[٤٤] ويغدو كل شيء قابلاً للمناقشة، وكل أمر من أمور المعاش أو المعاد مطروحاً للتساؤل والمعالجة العقلية.

ولسنا هنا بصدد الردّ على ناصر خسرو أو على المذهب الإسماعيلي، وإنما حسبنا أن نتوقف قليلاً لنتأمل ما يعنيه بقوله هنا بالاستناد على العقل والاعتداد به، فهو قول ينطوي - في الواقع - على مخاتلة، لأن الأسئلة التي رأينا بعضها في الصفحات السابقة تبدو معدّة بعناية، وهي أسئلة نمطية استخدمها دعاة الفاطميين في سائر أقطار الأرض، والهدف منها التعجيز ليس إلا، وهي وإن كانت عقلية - ليست مقصودة لذاتها، ولا لتأكيد صلاحية العقل في الإجابة عنها بقدر ما هي مطروحة للدلالة على أن هناك من يستطيع حلّها وحل كل معضلة سواها، ألا وهو إمام الزمان. دون أن تكون في حله مخالفة للشرع أو تناقض معه.

كما أن موقف ناصر خسرو هنا لا يخلو - في الواقع - من مفارقة، لأنه ما زاد على أن وقف موقف خصومه الذين انتقدهم أشد الانتقاد لجهلهم وضلالهم، وبعدهم عن مقتضى التأمل العقلي والنظر البرهاني، فهم قد ردوا عليه بأن الأمور الشرعية لا دخل فيها للعقل، وأنها أمور مفروضة من قبل الله - عز وجل - الذي خلق الإنسان ويعلم ما يصلحه وما يفسده، فسنّ له الشرائع التي تؤدي إلى صلاح حاله في الدنيا والآخرة إذا هو أقدم على تنفيذها، فليس ثمت مجال لتدخل العقل في هذه الشرائع، ومن ثمّ عدّ هؤلاء الخصومُ طرح هذه الأسئلة أمراً غير ذي موضوع، بل هي سفسطة كلامية، ومضيعة للوقت، ولا يسعهم إلا التسليم بما أمر الله به، وجاء على لسان نبيه - صلى الله عليه وسلم. كذلك ناصر خسرو حين استمع في مصر إلى ردّ تأويلي (لا عقلي) على هذه الأسئلة ما وسعه إلا التسليم، والتسليم في كلتا الحالتين تسليم ليس عقلياً بقدر ما هو اعتقادي، لكن شتان بين الاعتقاد بالتنزيل الصريح والتأويل المنحرف.

---

(٤٤) أيضاً : س ٢٠، ٢١.

٨ - ناصر خسرو : بين التصريح والصمت :

يقول ناصر بعد أن ذكر ردّه على من توجه إليهم بأسئلته في المدن التي مرّ بها في رحلته، وأوضح في هذا الردّ مدى اعتداده بالمزاوجة بين العقل والشرع، وإلا لما سقطت الصلاة عن الأطفال والمجانين، يقول : «لم أقبل التقليد ولم أُخْف الحجة، لأن الحق لم يشهر وينتشر بالتقليد»(٤٥) . لقد ردّ عليهم بكل صراحة وأعرب لهم عن رأيه دون مواربة. ثم انطلق، لعله يجد عند غيرهم إجابة على أسئلته.

ولكن ما بال ناصر قد أعرض - في قصيدته هذه التي اتسمت بكل الصراحة، والتي نظمها كما يرجّح إيڤانوف سنة ٤٥٦هـ(٤٦) - عن الإشارة إلى أنه خضع منذ البداية لتأثير دعاة الفاطميين في خراسان؟ وما باله حرص على أن يبين أنه ما أفاق من غفلته أو غفوته التي استمرت أربعين عاماً إلا على تحذير قوي من أعماقه، وعلى مسلّمة بدهية لا تقبل الشك عنده، انتهى إليها بالنظر العقلي المجرد دون أن يكون هناك هاتف من خارج يعينه على التوصل إليها لا من دعاة الفاطمية ولا من غيرهم؟ يبدو أنه لم يفصح عن أثر أولئك الدعاة عليه لسبب جوهري يتعلق بمدى نجاح الدعوة الفاطمية وانتشارها في المنطقة التي غدا هو مسئولاً عن نجاح الدعوة فيها، بعد عودته من مصر بتكليف من الخليفة الفاطمي المستنصر، وهي منطقة خراسان. فلو أنه صرّح بذلك لاتّخذه كل المستجيبين الجدد من مواطنيه في خراسان ويمگان وغيرهما قدوة ومثلاً لهم، ولأبدوا تمنّعاً على التسليم بمقولات مذهبه والانضواء تحت لوائه ما لم تتح لهم فرصة السّفر إلى القاهرة ليُلقّنوا الدعوة من هناك، مثلما فعل ناصر خسرو نفسه. وإذن لأصبحت الرحلة إلى القاهرة شرطاً لازماً لقبول الدعوة، ولكان هذا الشرط نفسه سبباً في إعراض كل من لا قبل له بالسفر إلى القاهرة، ولأدى ذلك إلى فشل الدعوة فشلاً ذريعاً في تلك المنطقة، في وقت كان هو يريد لها أن تنجح وأن يأذن الخليفة

(٤٥) الجويني : علاء الدين عطا ملك، جهانگشاي، الترجمة العربية لتاريخ الإسماعيلية لكاتب هذه السطور، ص ١٩٠-١٩١. الديوان أيضاً، ص ١٧٤، س ٢٣.

(٤٦) Ivanow, Nasiri Khosraw and Ismailism, pp. 17.

المستنصر بضم مناطق أخرى إلى نفوذه كداعية كبير (حجة)، مثل منطقة السند(٤٧)

لقد رجح عنده – فيما يبدو – أن يسكت في قصيدته عن الإشارة بصراحة إلى تأثير دعاة الفاطميين عليه في خراسان قبل رحلته، فربما استطاع بذلك أن يوحي إلى قارئه أن النهج العقلي الذي سار عليه قد أفضى به في النهاية – بعد طول بحث وعذاب – إلى التسليم بوجود إمام حي قائم، هو إمام الزمان المستنصر بالله الفاطمي الناجم هناك بالقاهرة، وأن كل من سار على هذا النهج العقلي لابد أن ينتهي إلى التسليم به حتي دون عون من الدعاة.

أجل، كل الدلائل تشير إلى تأثره بالدعوة الفاطمية قبل مغادرته خراسان، حتى وإن لم يصرّح به.

٩ – متى أصبح ناصر خسرو إسماعيلياً ؟

لكننا لسنا مع الرأي الذي شاع بين المؤرخين والباحثين(٤٨) ، والدين انتهوا فيه إلى أن ناصراً كان قد أصبح إسماعيلياً حتى قبل أن يغادر بلده خراسان في بداية رحلته. فالذي يتضح من أشعاره في هذه القصيدة بالذات أنه – وإن خضع لتأثير دعاة الفاطمية وسلّم ببعض مقولاتهم المبدئية – لم يقبل المذهب الإسماعيلي إلا حين وصل إلى مصر والتقي بداعي الدعاة «المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي»، كما يقرر هو في نهاية قصيدته.

ولو كان ناصر قد قبل المذهب الإسماعيلي حقاً قبل مغادرته «بلخ» لكان موقفه بإزاء أصحاب الفرق الأخرى موقف المُناظر لا موقف السائل، فالمُناظر لا يُخفي انتماءه

---

(٤٧) يخاطب «ناصر خسرو» الخليفة المستنصر بقوله :

بنده ای را سند بخشی پیشکاری را طراز

کهتری رابر زمینِ خاوران مهتر کنی

(الديوان، ص ٤٣٣). وترجمته : امنح عبدك بلاد السند وزيّن خادمك بها، واجعل من الصغير عظيماً لبلاد المشارق.

(٤٨) راجع الإشارات المدونة بالهوامش المرقمة : ٢٩، ٣٠، ٣١، وانظر أيضاً : برتلس : ناصر خسرو وإسماعيليان، ص ١٧٨.

وانحيازه إلى مذهبٍ بذاته ينافح عنه ويدافع، أما السائل فهو من لم يكوّن بعد في مسألة رأياً نهائياً يعينه على الوقوف موقف الخصم من الآراء المعارضة ويجعله ينحاز إلى هذه الناحية أو تلك انحيازاً واضحاً حاسماً أضف إلى هذا أن أتباع الفاطميين - في البلاد الفارسية الخاضعة لسلطان السلاجقة المتعصبين لمذاهب أهل السنة، والذين يشعرون بولاء شديد وانصياع كامل للخلافة العباسية وبكراهية مفرطة لأعدائها - لم يكونوا في حالة تسمح لهم بالإعلان عن أنفسهم أمام الملأ من الناس، فضلاً عن محاجّتهم ومناظرتهم، وإلا كان جزاؤهم الإعدام الفوري(٤٩) . وليت ناصر خسرو قد توجه بأسئلته إلى أتباع مذهب واحد، وإنما سأل عنها - كما قرر هو بنفسه - كل أصحاب المذاهب المعروفة في زمانه، بل جاوز أصحاب المذاهب الإسلامية إلى أصحاب الأديان والملل الأخرى كاليهود والهندوس والصابئة وغيرهم، وهو ما تنتفي معه صفة التخفّي والسرية التي كان يتعين على من يتّبع المذهب الإسماعيلي أن يتحلى بها في البلاد الفارسية بخاصّة. وكان من أهم مبادىء المذهب الإسماعيلي مبدأ الستر والظهور، وهما مبدآن ينتظمان سياسة الدعوة بعامة، ويتعلقان بحالة «إمام الزمان» نفسه، «فإذا كان الإمام مستوراً فلا بد أن يكون حجته ودعاته ظاهرين» (٥٠) فالعلاقة بين الإمامة والدعوة علاقة منعكسة، بمعنى أن ظهور الإمام يوجب (في بعض البلدان) ستر الدعوة، والعكس بالعكس. ولقد كانت الإمامة حينذاك في طور الظهور، والإمام معروف مشهور بين الناس، وهو الخليفة الفاطمي المستنصر (٤٢٧-٤٨٧هـ).

ففضلاً عن دواعي السلامة والأمن كانت مبادىء المذهب تملي على الدعاة والأتباع البقاء متخفين مستورين لا يُعلنون عن أنفسهم ولا يكشفون عن هويّتهم. ولو كان ناصر خسرو قد قبل المذهب الإسماعيلي - كما يقولون - قبل وصوله إلى القاهرة وصار بالفعل واحداً من هؤلاء الأتباع وسلّم بكل مقولات ذلك المذهب لما جرؤ على طرح هذه الأسئلة بهذا القدر الكبير من الإلحاح وعلى هذا النّطاق الواسع من العلانية والإفصاح،

---

(٤٩) أورد نظام الملك الطوسي في كتابه : «سياست نامه»، طبع شفر، انجي ١٨٩١م، ص ١١٨-١٩٣، تفصيل النكبة التي حدثت للإسماعيلية في بلاد ما وراء النهر وخراسان على يد الأمير نوح بن نصر الساماني. راجع أيضاً كتابنا : دولة الإسماعيلية في إيران. ص ٧٢ وما بعدها.

(٥٠) الشهرستاني : الملل والنحل، جـ ١، ص ٤٢٥.

ولما استطاع أن يبيّن مدى اعتداده بالعقل بهذا الوضوح، وهي أسئلة يبدو أنه كان يطرحها لعلها تصادف اتفاقاً مع بعض المسلّمات التي استقرت في ذهنه ووجدانه.

كل هذا يؤدي بنا إلى القول بأن ناصر خسرو لم يقبل المذهب الإسماعيلي إلا بعد أن وصل إلى القاهرة، حاضرة مصر الفاطمية، وأن حظّ دعاة الفاطميين في خراسان من التأثير عليه كان محدوداً بزعزعة اعتقاده وإثارة ثائرته على تقليد أترابه ومواطنيه، وإخضاعه لجاذبة معنوية خفية، تدفع به رويداً رويداً في الطريق نحو مصر والقاهرة، وتهيّئ له أنه لن يعثر على ضالّته أو يجد راحته إلا في «إمام الزّمان»، فهناك سيلقي برحاله، ويزيح عن كاهله عبء أسئلته، التي لم تكن في حقيقة الأمر وواقع الحال إلا وسيلة لدفعه إلى العرين.

السوفسطائيون
ومنزلتهم في الفكر اليوناني

الأستاذ الدكتور فتح الله خليف

أستاذ ورئيس قسم الفلسفة

كان الاعتقاد السائد بين الفلاسفة ومؤرخي الفلسفة حتى الربع الأول من هذا القرن هو أن أفلاطون على حق في معركته مع السوفسطائيين. فأفلاطون هو الفيلسوف الحق، المحب للحكمة، أما السوفسطائيون فهم سطحيون، هدامون، مموهون، وهم منبع السفسطة بمعناها الشائع بين الناس اليوم.

ولكن منذ عام ١٩٣٠ رأينا حركة قوية تؤكد أن السوفسطائيين هم أبطال التقدم والتنوير. فكارل پوپر Karl Popper يعتبرهم الجيل العظيم(١) ، أما هفلوك Havelock فيقرر بأن السوفسطائيين هم الذين أيقظوا الشعور بالتحرر في السياسة اليونانية، وهم الممثلون للفكر الديموقراطي الحر في اليونان الذي عمل على هدمه بكل قواه أفلاطون وأرسطو(٢) .

ورأينا في الوقت نفسه تحولاً مفاجئاً من المحبة إلى الكراهية نحو أفلاطون باعتباره قمة الرجعية والطغيان. ففي عام ١٩٥٣ قال الأستاذ الأميركي ليفنسون Levinson بأسى شديد : إن أصدقاء أفلاطون اليوم من الأساتذة والطلاب الدارسين له لا يرون فيه سو أنه الجد الأكبر للنازية الألمانية، ولكل حكومات الطغيان في أوروبا التي ساعدت على قيام الحرب العالمية الثانية. لقد كان هدف الحزب النازي الألماني - كما جاء في برنامج الحزب الرسمي - هو إعداد الشباب النازي وتربيتهم على مثال الحراس بالمفهوم الأفلاطوني. بل إن هناك من يرون أفلاطون شخصاً مصاباً بالجنسية المثلية، لا يقوى على كبح غرائزه(٣) .

كذلك تبدو السوفسطائية في نظر شخص معاد لها ومعاصر لنشاطها مثل أرسطوفان الروائي المشهور على أنها علامة على الانحدار، ويرى أن أيام اليونان العظيمة هي أيام الحرب الفارسية حين كان الرجال رجالاً. كانت الشجاعة، والخشونة، والبساطة في الحياة، والمستوى الخلقي الرفيع صفات الأجيال السابقة. أما اليوم، فقد انتهى كل ذلك، لم يعد أحد قادراً على التمييز بين الحق والباطل، وإن استطاعوا التمييز فإنهم يختارون الباطل بغباء، ويحتقرون الحق. فالأجيال الشابه في أيامنا هذه تعشق الرفاهية، وتميل للتخنث والجبن والوضاعة. انظر إلى الدراما، فلن تجد اليوم مسرحيات تؤكد الرفعة والنبالة في السلوك والحياة جميعاً مثلما كان يفعل أسخيلوس. وبدلاً من ذلك لدينا اليوم يوربيدس بمسرحياته عن الزنا والخداع وزواج المحارم، وتعقبه للحقراء والوضعاء وتمويهاته التي لا تنتهي. ويعتقد أرسطوفان أن كل ذلك مصدره اتباع الفكر الملحد، وتعاليم السوفسطائية(٤) .

وفي مقابل هذا فإن فيلسوفاً مثل كارل جويل Karl Joel يرى أن التحول الفكري الذي قاده السوفسطائيون ليس إنحداراً، ولكنه قفزة إلى أعلى، فهم طموحون كالشباب، مقنعون، ثائرون في كل اتجاه، وأن بلاغة جورجياس السوفسائي العظيم نهر متدفق، في عصر تجري فيه دماء شابه، بحيوية وقوة كاسحة(٥) .

واختلاف الناس على هذا النحو في منزلة السوفسطائيين بين محب مفرط ومبغض مفرط يدل على أن السوفسطائيين من أنبه الناس وأبعدهم أثراً في الفكر اليوناني. لقد شهد القرن الخامس قبل الميلاد الذي عاش فيه كبار السوفسطائية من أمثال بروتاغوراس وجورجياس تحولاً عميقاً من النظر في الكون إلى النظر في الانسان. فأصبحنا مع السوفسطائية لم نعد نتساءل عما إذا كانت الأرض مستديرة أم مسطحة، أو أن أصل العالم هو الماء أو النار، إنما اتجهت الفلسفة إلى الاهتمام بالانسان في واقعه المعاش. فتساءلوا عن العدل والظلم، والصواب والخطأ، وبحثوا في نسبية القوانين الخلقية والأعراف والتقاليد والنظم السياسية. فالمعايير الخلقية والقوانين التي فرضتها الجماهير ليست من وحي الآلهة. إنها أشياء فرضها الانسان على أخيه الإنسان، أو على أحسن تقدير وجدت باتفاق بين الناس.

وكشفت السوفسطائية عن الأسس الفلسفية العميقة للقوانين والقواعد الأخلاقية والنظم السياسية التي تنظم حياة الانسان. فعند النظرة السطحية قد نجد فروقاً سياسية بين الملكية والجمهورية، والديموقراطية والأرستقراطية. ثم نتساءل: السيادة لمن: هل هي لرجل واحد، أم لطبقة أرستقراطية. أم للجماهير.

ولكن تحت هذه التساؤلات يوجد مستو من الأفكار أمعن في التجريد والتنظير حول الطبيعة الانسانية: فيصبح التساؤل: هل الناس جميعاً متساوون، وهل وجود الحكام والمحكومين، والأسياد والعبيد، مجرد مسألة مواضعات اجتماعية، أم أنها ترجع إلى اختلاف طبائع البشر؟ والمتأمل في كل هذه المسائل يجد أنها جميعاً ترجع إلى موضوع أعم وأشمل هو طبيعة العالم وموقف الانسان منه.

فالحكومة التي تدعى أنها تحكم بإرادة الآلهة، في مقابل الحكومة التي تنشأ بإرادة البشر، تقابل العالم الذي يخضع أفراده لسلسلة منتظمة من الأوامر والنواهي، تعارض المجموع، الذي تكون بدون سابق ترتيب.

وأوضح مثال على ذلك الحرب الأهلية البريطانية في القرن السابع عشر. ففي الظاهر كانت تبدو صراعاً بين عاملين متنافسين: الملك والبرلمان، من منهما الذي يحكم؟ ولكن يكمن وراء ذلك تساؤل: هل الناس بطبيعتهم منقسمون إلى طبقات؟ طبقة عليا، وطبقة سفلى؟ وهل هذا الانقسام بإرادة الله، وهل هذا الانقسام شائع في الكون كله، وفي الطبيعة. ففي الكون نجد على رأس العالم الله، الحاكم الأعلى، يليه الملائكة، ثم الانسان، وهو بدوره سيد الحيوان، الذي يأتي بعده النبات، وأخس الموجودات جميعاً الجمادات. فالله تعالى هو المنظم للعالم على هذا النحو، وهو الذي أراد أن يكون الوجود مراتباً، عليا ودنيا، وهو الذي أراد أن لا تخرج المجتمعات البشرية عن هذا النظام.

في مثل هذا النظام الكوني الآلهي تجد الملكية المطلقة تأييداً وسنداً، كما يبدو الانقسام الطبقي متسقاً مع طبيعة العالم ونظامه. وبالرغم من أن تعاليم الديانات تؤكد بأن الناس متساوون عند الله، فإن النظام الكوني الآلهي بعكس ذلك تماماً.

فالقضية هنا هي مسألة قياس نظام المجتمع البشري بنظام الطبيعة، وتصور العالم أو الكون باعتباره منظماً تنظيماً إلهياً. وهذا التصور يرجع إلى أفلاطون. وبنفس القوة يتأصل في الفكر اليوناني المعارض الذي نجده عند السوفسطائيين الذين يرون أن النظام الاجتماعي كله من خلق الجماعة. فالعلاقة بين الحاكم والمحكوم تقوم على هذا المفهوم الذي يوزع الالتزامات بين الطرفين، فالحاكم ملتزم بإزاء المحكومين، وهم ملتزمون بإزاء الحاكم، وذلك كله نشأ بين الناس باتفاقهم وتراضيهم لتدبير الحياة دون تدخل من سلطة عليا، لا تخضع لأي التزام، إلهية كانت أم ملكية. فليس هناك أحكام إلهية، ولكن يوجد فقط تراض إنساني خالص أو اتفاق بين الناس، وأن الناس لهم الحق في معارضة الحاكم وخلعه إذا نقض الاتفاق، كما أن للحاكم الحق في معاقبة المحكومين الذين لا يمتثلون للقوانين المخول بإصدارها(٦).

وفكرة اعتبار القانون مجرد اتفاق عقد بين الناس وبتراضيهم هي أصل فكرة العقد الاجتماعي عند فلاسفة العصر الحديث من أمثال جون لوك وجان جاك روسو، كما أنها هي جوهر النزعة الانسانية في الفلسفة السوفسطائية، والتي لخصها بروتاغوراس أقدم السوفسطائيين وأشهرهم بقوله: الانسان مقياس الأشياء جميعاً.

هذه النزعة الانسانية التي كانت السمة الغالبة على ثقافة العصر، أي على ثقافة القرن الخامس قبل الميلاد يمكن أن نلتمس أصولها البعيدة عن الطبيعيين الأوائل الذين يفسرون العالم تفسيراً مادياً محضاً برده إلى مادة أولى هي أصل الأشياء جميعاً. ففي بداية التفلسف لم تر العقلية اليونانية مبرراً لوجود علة إلهيه أو نصف إلهية للعالم. إن آلهة اليونان على قمة الأولمب وإن كانوا لم يخلقوا العالم ولكنهم على الأقل يسيرونه وينظمونه. ولكن نظريات الفلاسفة الطبيعيين لم تترك أي دور لزيوس في سقوط المطر وإحداث البرق والرعد، ولا لبوسيدون في السيطرة على البحر.

لقد كان أثر الطبيعيين الأوائل على المذهب الانساني كبيراً لأنهم لا يفسرون الطبيعة بردها إلى قوة فوق الطبيعة، بما فيها طبعاً الانسان ونظمه السياسية والاقتصادية.

وهناك عامل آخر أنمى النزعة الانسانية في هذا القرن هو إتساع أفق الصلات مع العالم الخارجي بسبب الحروب والرحلات وتكوين المستعمرات. وقد أدى ذلك بوضوح إلى اعتبار العادات وأنماط السلوك التي كانت تعتبر عامة ومطلقة ودستوراً إلهياً، أدى إلى اعتبارها محلية ونسبية. فالعادات التي يعتبرها اليونانيون قبيحة ومحرمة مثل زواج الأخ بأخته تعد عند المصريين من الأمور الطبيعية والفضائل الدينية.

ويقص هيرودوت في تاريخه أحداث منتصف القرن وعادات الناس من الفرس والمصريين والهنود، ويبين اختلافها عن العادات اليونانية.

ولم يعد ممكنا قبول الأعراف والتقاليد بدون فحص لا سيما بعد الحرب الفارسية، وانتصار اليونان على الفرس. فقد ايقنوا أنهم انتصروا على أعدائهم بغير عون إلهي، وأنهم وقفوا وحدهم. فإن سألتهم: كيف كان ذلك؟ قالوا: إنه قانون الطبيعة، الغلبة للأقوى، والهزيمة والدمار للأضعف.

كان اليونان القدامى يعتقدون أن القوانين التي تحكمهم قد أوحى بها الإله أبولو للمشرعين، وأنطق بها كاهنة معبد دلفى. ولكنهم اليوم قاموا بمناقشة القوانين واستبعدوا منها فكرة الوحي بها من أبولو.

أما الرافد الثالث الذي أمد النزعة الانسانية بتيار متدفق في القرن الخامس قبل الميلاد فهوتقدم المخترعات والتقنيات البشرية. فإن ما حققه الانسان في هذا المجال كان موضع تقدير لا يقل عن تقدير ما حققه الانسان في فهم الكون وفي ميدان الفلسفة والعلم. وأشاد الفلاسفة من أمثال انكساغوراس وديموقريطس وبروتاغوراس السوفسطائي وكتاب التراجيديا بهذا التقدم في المخترعات والتقنيات.

فعند سوفوكليس لا توجد إشارة إلى موجودات عليا، فجوقة انتيجون لسوفوكليس تمجد الانسان الماهر، الانسان بمهاراته المتعددة أعظم الموجودات في عالمنا. كان تقدير المهارات عند مثل هؤلاء الفلاسفة والكتاب عظيماً، فأصبحت الخطابة والقراءة والكتابة، والصيد في البحر والبر والجو، والزراعة واستئناس الحيوان واستخدامه في وسائل النقل، والمعمار، والطبخ، والتعدين، وصناعة السفن، وارتياد البحار، والغزل والنسيج،

والصيدلة، والطب، والحساب، أصبحت كل هذه الأنشطة الإنسانية موضع تقدير واحترام[٧]

ومع نمو الديموقراطية في أثينا بدأ أصحاب هذه الحرف المشاركة في الحياة العامة، وخصصوا بعض الوقت للاشتغال بالسياسة والتشريع. وكان من حقهم الكلام والتصويت في الجمعية التشريعية التي تسن القوانين، وتعلن الحرب، وتنشئ المعاهدات.

وهكذا فتحت الديموقراطية الأثينية الطريق أمام كل مواطن يوناني للمشاركة في الحكم، حداداً كان أم نجاراً، صياداً كان أم نساجاً، غنياً كان أم فقيراً، فإن آراء الناس جميعاً في السياسة جديرة بالاعتبار.

فكيف يمكن أن يقال: إن الحضارة اليونانية كانت تحتقر أربان المهن اليدوية والحرف والصناعات! وكانت تمجد فكرة العلم للعلم بصرف النظر عن مدى نفعه.

هذه الأحكام العامة وقرت في نفوسنا أمداً طويلاً، ثم تبين أخيراً لمؤرخي الفلسفة أنها من اختراع أفلاطون وأرسطو. يقول الأستاذ هفلوك Havelock أن تاريخ اليونان السياسي قد تم تدوينه في العصر الحديث كما أراده أفلاطون وأرسطو[٨] .

كذلك نحن لا نكاد نعرف شيئاً عن السوفسطائيين إلا ما أراد أفلاطون أن نعرفه عنهم. جاء أفلاطون بعد بروتاغوراس وجورجياس أشهر السوفسطائيين بستين عاماً ليكتب عنهم خمس محاورات كاملة اختار لها عناويناً تحمل أسماءهم. فلدينا محاورة بعنوان بروتاغوراس ومحاورة بعنوان جورجياس، ومحاورتان بعنوان هبياس وهو من أكبر سوفسطائي القرن الرابع الذين أدركهم أفلاطون، ومحاورة بعنوان سوفيسطوس. هذا فضلاً عن مناقشاته المتصلة لآرائهم في محاورة فيدروس وتيتياتوس ومينون. فكأن مذهب أفلاطون ليس سوى رد فعل لآراء السوفسطائيين ومذهبهم.

قبل أن نمضي في عرض آراء السوفسطائية نقف قليلاً عند لفظ سوفسطائي لنتعرف على حقيقة مفهوم هذا اللفظ وماصدقه عند اليونان قبل أن يلحقه التحقير على أيدي أفلاطون.

كلمة سوفيسطوس مأخوذة في الأصل من الكلمة اليونانية Sophia أو Sophos وتترجم بالحكمة أو بالحكيم. والحكمة معناها الأصلي عند اليونان هي المهارة في حرفة ما. فنقرأ في إلياذة هومير أن المثال والعراف وسائق العربة الحربية ومرشد السفن كلاً منهم Sophos أي حكيم في حرفته وصنعته. فالحكيم أو الـ Sophos هو الذي يعرف أشياء نافعة. وفي هذا السياق استخدمت كلمة Sophos أيضاً للاشارة إلى المعارف العقلية والروحية ومنها جاءت كلمة فلسفة ومعناها فيلاسوفيا أي محبة الحكمة. وبهذا المعنى أطلقت كلمة سوفوس Sophos على الحكماء السبعة، ويذكر أن طاليس آخر هؤلاء الحكماء السبعة، وأول الفلاسفة. وكانت حكمتهم عبارة عن أمثال مأثورة، أو أقوال قصيرة، تنصب على تدبير أمور الحياة العملية.

ولم يكن هناك فرق بين لفظ Sophos ولفظ Sophist ، فاللفظان متساويان عند هيرودوت الذي يطلق على فيثاغورس وسولون ومؤسسي ديانه ديونسيوس لفظ سوفسطائي، ويقول: إن كل سوفسطائيي اليونان زاروا عاصمة ليديا. ونعرف من أرسطو وإشوكرات بطل محاورة فيدون أن لفظ سوفسطائي أطلق على الحكماء السبعة. كما نعلم من يوربيدس أن لفظ سوفسطائي أطلق على الشعراء والمغنيين والموسيقيين والكتاب.

فالسوفسطائي إذن هو من يمتلك مهارة خاصة أو خبرة خاصة أو المتقن لحرفة ما يقدمها ويمنحها ويعلمها لتلاميذه أو صبيته ومن يأتمنهم على أسرار حرفته. من كل ما تقدم نرى أن لفظ سوفسطائي متعدد المفهوم واسع الماصدق، لكنه لا يراد به في أي مفهوم معني مخجل أو قبيح(٩) .

والإجماع منعقد بين مؤرخي الفلسفة على أن لفظ سوفسطائي قد لحقه التحقير على أيدي أفلاطون وأرسطو. فالسوفسطائي عندهم معلم مأجور يتصيد الأثرياء من الشبان، ويجمع الثروة من تعليم الحكمة الباطلة. أي أن السفسطة عندهم هي التمويه والخداع، وهذا هو المعنى الشائع بين الناس اليوم. أما سقراط فقد كان يرى أن المعلم المأجور كالبغي، إذ ليس هناك فرق عنده بين أن يبيع الواحد فكره للآخرين أو يبيع جسده. كذلك فإن المعلم الذي يتقاضى أجراً يتنازل عن حريته، لأن عليه أن يعلم كل من

يدفع له، وكل من يقدر على الدفع، بينما يقول سقراط إنه حر في مناظرته وتعليمه، يختار من يناظره ويبصره بالحكمة. إن الحكمة في رأي سقراط يجب أن تكون متاحة بحرية بين الأصدقاء. ولم تكن الحكمة هي المتاحة بين الأصدقاء فقط، ولكنه الايروس أيضاً الذي هو أساس الجنسية المثلية المتسامية بين سقراط وأفلاطون

ويتناول إشوكرات بطل محاورة فيدون التغير الذي طرأ على لفظ سوفسطائي فيقول : إنه ليحزنني أن أرى التمويه والخداع أفضل من الفلسفة. كان لفظ سوفيسطوس يطلق على حكمائنا السبعة، فأصبح في أيامنا يطلق على غير الشرفاء منا. من كان في الماضي يتوقع ذلك. لقد كان كل الرجال فخورين بهذا الاسم. كان أجدادنا يجلون أولئك الذين يسمون سوفيسطائية ويطلبون رفقتهم ومودتهم. وأعظم دليل على ذلك هو اختيارهم لسولون - أول مواطن أثيني يحمل لقب سوفسطائي - ليحكم المدينة(١٠) .

أما موقف جمهور الأثينيين من احتراف السوفسطائية للتعليم فإنه يدعو للعجب والدهشة. فنحن تعودنا أن ننظر للتعليم على أنه مهنة محترمة لكسب العيش، ولم يكن هناك عند اليونان أي مأخذ على ذلك، أي أن يعيش الانسان من كسب قوته من التعليم. وكان أصحاب الحرف من الشعراء والفنانين، والأطباء والنحاتين، والمهندسين والنجارين وسائر أرباب الحرف والصناعات يتقاضون أجوراً لمزاولتهم حرفهم وفنونهم، أو لتعليمهم تلك الحرف للآخرين. كذلك لم تعرف اليونان عن السوفسطائية أنهم كونوا ثروات، أو أنهم كانوا يعيشون عيشة مترفة. بل إن جورجياس لم يتزوج، ولم تكن له أي أعباء عائلية. وكان يعيش عيشة متواضعة.

يلوح أن تعاليم السوفسطائية هي التي أثارت جمهور المحافظين من أمثال أفلاطون وأرسطو ضدهم.

سئل بروتاغوراس : ماذا تعلم تلميذك؟ قال: العناية بأموره الشخصية، ليكون أفضل من يدبر منزله، وأمور دولته، ليصبح قوة حقيقية في الدولة كمتكلم وكرجل دولة. وفي محاورة مينون جاء على لسان سقراط أن السوفسطائيين هم أفضل الناس لتعليم الحكمة التي تؤهل المتعلم لإدارة ضيعة، وحكم دولة.

كانت السياسة إذن هي هدفهم الأعظم في التعليم ومحور اهتمامهم. والبلاغة أو فن إجادة العبارة والكلام هي الطريق إلى النجاح في السياسة. سئل جورجياس، من هو السوفسطائي؟ قال: إنه المهيمن على الفن الذي يخلق المتحدث الذكي. فأتقن السوفسطائية فن صناعة الكلام. وزاولوه، وعلموه، وألفوا فيه الكتب. وليست البلاغة هي الفصاحة في القول، ولكنها الاستخدام الصحيح للغة بوجه عام، وتقدير قيمة الكلمة وأثرها.

كتب جورجياس مقالة عن طبيعة الكلمة قال: إن الكلمة حاكم شديد البأس مستبد The word is a mighty despot. لها من القهر ما يفوق قهر الطاغية، ولها سلطة مطلقة على العقل، إن قوتها لا تقاوم. وعلي ذلك فلو زيّنا للمرأة الزنا، وزنت، فإنها تكون كالمرأة التي اغتصبت، لا ذنب لها.

إن الكلمة يمكنها أن تفعل خيراً عظيماً، وتزيل خوفاً وحزناً، وتشيع فرحاً ومرحاً، وتمكنك من إقناع المحلف في المحكمة، وعضو الشيوخ في مجلس الشيوخ. يقول جورجياس: هذا ما نريد تعليمه للناس، وليس شيئاً غير ذلك. ولا لوم علينا لو أن التلاميذ الذين يتعلمون منا استخدموا علمهم في غايات شريرة، مثلما لا يلام معلم الملاكمة لو أن تلميذه ذهب إلى والده وضربه ضربة قاضية.

إن البلاغة هي علم الوسائل وليست علم الغايات، وأن تعليمها له آثار مختلفة على التلاميذ بحسب سلوكهم وأخلاقهم.

فالبلاغة هي طريقنا للنجاح في السياسة، والنجاح في التشريع وسن القوانين لخير البشر[١١] . كان الاعتقاد السائد عند اليونان قديماً هو أن القوانين من صنع الآلهة، وأن عدم الامتثال لها كفر، وأن الانسان الذى يتولى التشريع، وسن القوانين فإنه يفعل ذلك بإذن الآلهة وبوحي منهم. فالإله أبولو هو الذي أملى على ليكورجوس دستور اسبرطه بكل تفاصيله في مدينة دلفى. ثم عاد الناس بعد ذلك ليقولوا بأن ليكورجوس هو الذي وضع دستور اسبرطه، ثم ذهب إلى دلفى يطلب موافقة الآلهة عليه. ثم جاء هيرودوت ليقول بأن ليكورجوس استمد دستوره من دستور كريت، وأن دستور كريت بدوره من وحي الإله زيوس.

أما في القرن الخامس فإن الاعتقاد الذي ساد بين الكتاب والشعراء والفلاسفة وعلى رأسهم السوفسطائيين هو أن القوانين كلها من صنع البشر، وأنها وجدت لمواجهة متطلبات الحياة العملية، وأن القوانين ليست دائمة ولا مقدسة، وأن الأصل في القوانين هو الاتفاق بين الناس على تنظيم حياتهم وفقاً لرغباتهم. ففي رأي بروتاغوراس لا يستطيع الانسان أن يحيا في مدينة دون مراعاة حقوق الآخرين، وفور أن نلتفت إلى أن للآخرين حقوقاً تنشأ المجتمعات السياسية. فحاجة الناس إلى العدل وكبح جماح النفس هي أصل القوانين. إن تطور المجتمعات من حالة البداوة حيث كان الكل في حرب ضد الكل، وحيث كان كل واحد لا يلتفت إلا لنفسه قد حملت الإنسان – حين أدرك استحالة حياته على هذا النحو – على كبح جماح غرائزه من أجل المواجهة الجماعية لعدوان الطبيعة عليه. ومادامت القوانين نتيجة اتفاق، فإن المواطنين ليسوا ملزمين بطاعتها في كل الظروف. ولكن في الظروف الملائمة تصبح طاعة القانون واجبة.

يقول يوربيدس: ليس للمدينة من عدو مثل طاغية يحكم وحده، ويضع القانون في خدمته وحوزته، ولا يسمح بقوانين عامة مشتركة. لنفرض وجود سوبرمان قُدَّ من صلب، لا إحساس له، فإن مثل هذا السوبرمان لا يمكن أن يستمر في طغيانه بدون خوف، لأن كل الناس سيصبحون أعداء له، ولو استمسكوا بالقوانين واتحدوا، فإن الغلبة ستكون لهم. فليست قوة الطاغية وعنفه هما اللذان يمكنانه من السلطة كما يعتقد معظم الناس، ولكنها غفلة المواطنين أنفسهم، فإن المدينة التي تفقد احترامها للقانون والنظام هي التي تسقط في يد الطاغية.

فالثقة المتبادلة بين الناس ثمرة من ثمرات طاعة القوانين واحترامها. وفي ظل مثل هذه الثقة، تزدهر التجارة، وتثرى البلاد، وينعم الناس بهدوء البال، والحرية في القول والعمل.

وكل الناس عند السوفسطائيين سواسية أمام القانون. فالمساواة هي العروة الوثقى بين الناس، تربط الصديق بالصديق، والمدينة بالمدينة، والحليف بالحليف. فعند بروتاغوراس المساواة بين الناس عدل، والعدل هو أساس النظام في المدينة، وهو الذي يخلق روابط الصداقة والوحدة. ويؤكد المشرعون على معنى الصداقة وأهميته في المدينة

باعتباره أساس العدل، ذلك لأن الأصدقاء يراعون العدل مع بعضهم، من المستبعد أن ينشأ الظلم بين الأصدقاء. فالعدل والصداقة عند السوفسطائيين شيء واحد.

ومن العدل أن تتوزع الثروة بقدر متساو بين الناس. فينادي السوفسطائيون في القرن الخامس قبل الميلاد بإعادة توزيع الثروة، لأن تضخم الثروات في أيدي قلة من الناس هو أصل البلاء، وأهم دوافع الإجرام. وكانت اليونان قديماً تعتبر الثروة عطاءً إلهياً، وأننا مكلفون برعايتها، والحفاظ عليها، وتنميتها، فهي وديعة إلهية لا نأخذها معنا عند الموت، وللآلهة أن يستردوها وقتما يريدون. ومادامت الثروة عطاءً إلهياً فليس لبشر أن يعترض على مشيئة الآلهة، أو على ثراء الأثرياء وفقر الفقراء.

أما مشكلة الرق فلم تحظ من السوفسطائيين سوى ببعض العطف على العبيد. وكل ما ورد عنهم على لسان أحد تلاميذ جورجياس أن الله خلق الناس أحراراً، ولم تجعل الطبيعة من الانسان عبداً. كانت العبيد في اليونان تقوم بالخدمة في المنازل، والعمل في المصانع والمناجم، وكان الأذكياء منهم يقومون بأعمال السكرتارية والصرافة. وكانوا يتمتعون في أثينا بحرية الكلام والملبس، ويصعب أن تميز بينهم وبين الأحرار في شوارع أثينا. ولكن يبقى بعد ذلك أن العبد يباع ويشترى.

هذه هي اهتمامات السوفسطائيين وتساؤلاتهم التي أثاروها في السياسة، ونظم الحكم، وفلسفة القوانين(١٢) .

أما في المعرفة فإن الفلسفة التي بدأها بارمنيدس وطورها أفلاطون قد لعبت دوراً هاماً في غرس الثقة المطلقة في قوى العقل الإنساني، تلك الثقة التي تقوم على أن العقل الانساني والإلهي متماثلان. لقد رفض بارمنيدس الادراك الحسي كلية. أما أفلاطون فلم ير في الادراك الحسي سوى أنه نقطة بدء يتركها العقل وراء ظهره فوراً. إن المعرفة تستحق أن تسمى معرفة لو كانت مطلقة وعامة Absolute and universal ، ولكي نصل إلى مثل تلك المعرفة، فلا بد من التعالي عن التجربة، مخترقين حجاب الادراك الحسي، وموغلين في الحقائق الكامنة في العقل كمون النار في الحجر، فالعقل ملكة فطرية، ونور داخلي، وهو كاف بذاته، بمعنى أن الحدس العقلي يمكن أن يعطينا، ويوفر لنا فهماً دقيقاً للحقائق الكونية.

ولقد ظلت أفكار أفلاطون في المعرفة مهيمنة على العقل البشري إلى أن جاء فرنسيس بيكون وأدار دفة المعرفة إلى اتجاه آخر. فبيكون يعد بحق هو المؤسس الحقيقي للطرق التجريبية، وللفكر التجريبي. وهو على وعي تماماً بالتيارين المتعارضين في المعرفة: التجريبي والعقلي. والتعارض بينهما مثل التعارض الذي كان قائماً من قبل في العالم اليوناني بين ديموقريطس الذي يمثل الفلسفة التجريبية، وبين أفلاطون الذي يمثل الفلسفة المثالية.

كان ديموقريطس يرى أن العالم بكل ما فيه من أجسام وأنفس وآلهة يتألف من ذرات مادية، وأن الكل يخضع للقانون العام، أي للفساد بعد الكون، واستئناف الدور، على حسب ضرورة مطلقة، ناشئة من المقاومة والحركة والتصادم دون أية غاية. وليس هناك أي قوة خارجة عن العالم المادي تتدخل في شئون العالم وقوانينه. والمعرفة الحقة في العقل، ولكن العقل خاضع تماماً لمعطيات الحس والتجربة.

وقد تبنى السوفسطائيون وعلى رأسهم بروتاغوراس صديق ديموقريطس هذه الآراء التي تصدى لها وعارضها أفلاطون وأرسطو.

والخلاف بين المثالية الأفلاطونية والتجريبية السوفسطائية هو جوهر الصراع بين التيارين الموروثين في المعرفة عند اليونان.

إن العلم يقوم على افتراض مقولة أساسية، هي أن هناك حقيقة موجودة، وأنه يمكن اكتشاف تلك الحقيقة. ولكن أي ضمان عندنا لذلك الاعتقاد. فمعايير الصواب والخطأ، والحق والباطل، والخير والشر تختلف من شخص إلى شخص ومن بلد إلى بلد، وتتغير من لحظة إلى أخرى.

إن المسألة التي شغلت بال السوفسطائيين هي طبيعة الحقيقة وعلاقتها بالظاهرات الحسية، أو بعبارة أخرى: العلاقة بين الحقيقة والظاهر. وقد ظلت هذه القضية هي الأساس المكين، لكل الفلسفات المتعارضة.

فمن جهة، لدينا مجموعة من الآراء المعقدة التي يمكن أن نوجز أساسها في مصطلحات مثل : الأمبيريقية Empiricism والوضعية Positivism ، والظاهرية

Phenomenalism ، والفرديـــــة Individualism ، والنسبيـــــة Relativisim والإنسانيـــة Humanism .

فما يظهر لنا في الوجود يتغير من لحظة إلى أخرى، ومن شخص إلى آخر، وهؤلاء أنفسهم هم الذين يعبرون عن الحقيقة الوحيدة. وهذا الموقف في الأخلاق يعني أن الأخلاق مجموعة من القواعد الآنية العملية، لا شأن لها بقواعد عامة أو مبادىء دائمة. هذه القواعد الآنية العملية أو المبادئ يمكن أن تظل صحيحة لو كانت وحياً من عند الله، أو معتقدات دينية، ولكننا في هذه الحالة لا نستطيع مناقشتها بأدلة وضعية.

مثل هذه المسائل الآنية المتغيرة، يعارضها الاعتقاد في مبادئ عليا مطلقة، ودائمة، وغير متغيرة، ولا تخضع لأي تأثير حسي، أو إدراك حسي، أو أهواء فردية. ويمكن أن نستخدم في وصفها المصطلحات الآتية : مطلقة Absolute ، مثالية Ideal ، متعالية Transcendental . وهذا الاتجاه نجد أصوله في تعاليم سقراط، ولكنه ترعرع بعد ذلك في نظرية المثل عند أفلاطون.

أما الاتجاه الأول، أي الاتجاه الأمبيريقي أو الوضعي أو النسبي أو الانساني فقد لخصه بروتاغوراس بقوله المشهور: الانسان مقياس الأشياء جميعاً، مقياس النفع والضر، والخير والشر، والعدل والظلم، والحق والباطل.

وبعد، هل نعود مرة أخرى إلى كارل جويل لنقول معه إن التحول الفكري الذي قاده السوفسطائيون ليس إنحداراً، ولكنه قفزة إلى أعلى، فهم طموحون كالشباب، مقنعون، ثائرون في كل اتجاه، وأن بلاغة جورجياس السوفسطائي العظيم نهر متدفق، في عصر تجري فيه دماء شابة بحيوية وقوة كاسحة(١٣) .

أم نقف الآن مع الفلاسفة الذين أطلقوا على هذه الفترة، التي سادت فيها تلك الأفكار : عصر التنوير في اليونان: Enlightment in Greece ثم في أوروبا بعد ذلك بثلاثة وعشرين قرناً، أي في القرن الثامن عشر، والتي بدأت في ألمانيا بفيلسوفها العظيم كنط الذي نحى الميتافيزيقا من مجال المعرفة الإنسانية، وعلق فعل العقل على ما يتلقاه من إمدادات حسية.

كانت مهمة الفلسفة إذن عند السوفسطائيين في القرن الخامس قبل الميلاد ثم عند كنط في العصر الحديث: هي التنوير. وقد عبرت فلسفة التنوير عن نفسها في اتجاهين:

أولاً : التصميم على الاعتقاد فقط في كل ما هو معقول، ومقبول فكرياً، ثم الميل نحو التوحيد بين العقل والتجربة وتقدم العلوم الطبيعية.

ثانياً : الاهتمام الحقيقي بالانسان، وإصلاح الحياة الإنسانية وتحسينها، والقضاء على العنف والضرر، وكل أشكال الاستغلال، وتأسيس حياة الإنسان على أسس إنسانية خالصة، نقية من كل شوائب الظلم والقهر والاستعباد، وأسس نسبية، لأن الأسس المطلقة تضمر سلطة فوقية هي أصل القهر، والعنف، وكل الشرور.

* * *

مراجع البحث و مصادره

أنظر :

1 - Popper, Sir K., The open Society and its Enemies, Vol. 1, 5th. ed,. London 1966.

2 - Havelock, E. A, The Liberal Temper in Greek Politics, London, 1957.

3 - Levinson, R. B., In Defence of Plato, Cambridge, Mass., 1953.

4 - Guthrie, W. K. C. A History of Greek Philosophy, Vol. 3, P. 49, Cambridge University press, 1975.

5 - Ibid, p. 49.

6 - Ibid, pp. 3-13.

7 - Ibid, pp. 14-26.

8 - Havelock, E.A., The Liberal Temper in Greek Plitics, pp. 15-29.

9 - Guthrie, pp. 27-34., Burnet, Greek Philosophy, pp. 107-110, macmillan, London, 1962.

10 - Ibid, pp. 27-34.

11 - Ibid, pp. 35-48.

12 - Ibid, pp. 55-79.

13 - Ibid, p. 49.

مستقبل الثقافة في مصر لطه حسين
دراسة وتحليل

دكتور أحمد زكريا الشّلق
أستاذ مساعد بقسم التاريخ
جامعة عين شمس

- خلفية فكرية
- تحليل مضمون
- نظرة نقدية

-١-

يبدو جلياً أن من سمات العقل والفكر العربيين معاودة طرح مشكلات النهضة والتحديث بين الحين والآخر، حتى ما كان منها قد لقى اهتماماً، وربما حسماً، من جيل النهضة الأول، وكأنه ليس بمقدورنا أن نكمل من حيث انتهى ذلك الجيل، لنفرغ لمستجدات زماننا. وخير دليل على ما نقول قضية الهوية والانتماء الحضاري، التي على أساسها يكون التوجه، فقد شغلت هذه القضية المثقفين والمفكرين المصريين، منذ انفتحت أبواب مصر على معطيات الحضارة الحديثة في بداية القرن التاسع عشر، والتقى «الأنا بالآخر».. وها نحن على أعتاب القرن الحادي والعشرين نعيد صرح القضية، كما أعادها طه حسين عام ١٩٣٨، وأن كنا نعيد طرحها هنا في أطار تاريخ الفكر المصري، لنحاول أن نتلمس إلى أي مدى تقدمنا أو توقفنا، حتى وأن بدونا كما لو كنا نناقش المسلمات.. مدخلنا إذن لقضية النهضة والمدنية مدخل تاريخي في مجاله الفكري.

وقضية التمدن والتحديث، والنموذج الذي نتمثل به ونحتذيه مازالت وستظل تؤرق الفكر طالما أن هناك معركة للنهضة، وطالما أن مشروعها قائم.. ومادتنا هنا بحكم

اشتغالنا بالتاريخ هي تراث الفكر في ماضينا.. وخطاب النهضة لايزال يتردد، بشتى تنويعاته، وخاصة عند منعطفات التاريخ وحوادثه الجسام. وعلينا أن نراجع تراثنا الثقافي، مراجعة نقدية متأملة، على ضوء العقل والمنهج العلمي الحديث.

وما هذه المقالة سوى مراجعة لاسهام «حالة خاصة» في مشروع النهضة، هي حالة طه حسين في خطابها الفكري المباشر والممثل في كتابه أو تقريره الهام «مستقبل الثقافة في مصر» الذي أصدره عام ١٩٣٨، متوجاً به مرحلة من حياته الفكرية قوامها ربع قرن من الزمان، أي منذ تخرج من الجامعة المصرية بأول دكتوراه تمنحها عام ١٩١٤. لقد كان طه حسين في تلك الفترة يكتب في الصحف، ويدرّس بالجامعة، ويلقي المحاضرات العامة ويؤلف الكتب، ليبلور تدريجياً خطوط مشروعه للنهضة، حتى استكمل عناصره نقطة نقطة، متواكباً مع محاولات مصر استكمال استقلالها خطوة خطوة منذ ثورة ١٩١٩ وحتي تحقيقها جزءاً من استقلالها الوطني بمعاهدة ١٩٣٦، وما إن وقعت هذه المعاهدة حتى كان طه حسين قد استكمل عناصر موضوعه - مشروع النهضة - في مجال خلق له بالدرجة الأولى وهو الثقافة والتعليم.

ولسنا نستطيع أن نفصل الكتاب عن كل ما فكر فيه طه حسين أو كتب عنه منذ اشتغل بشئون الفكر والثقافة والتعليم، كما لا يمكن فصل مشروع طه حسين ذاته، في مجاله، عن مشروع مصر لاستقلالها ونهضتها، وقد اعترف طه حسين نفسه بهذه الحقيقة وهو يقدم لكتابه «مستقبل الثقافة في مصر».

وثمة حقائق تبدو معروفة عن حياة طه حسين، لكننا لا نرى بأساً من الاشارة إليها لتكسب التحليل النهائي دلالاته، لأنها ساهمت في بنائه الفكري وتكوينه الثقافي، ووعيه بقضية النهضة، من هذه الحقائق تأثير الأزهر والثقافة الاسلامية التي تعلمها فيه خلال العقد الأول من هذا القرن (١٩٠٢-١٩١٠) سواء كان هذا التأثير بالسلب أو بالايجاب، فمن المعروف جيداً أن طه حسين درس الأدب العربي والبلاغة والنحو وجمع ذخيرته من ذلك خلال هذه السنوات. ومنها كذلك اتصاله ببيئة المثقفين ثقافة مدنية حديثة (المطربشين) واختلافه إلى ندواتها وكتابته في صحفها ودراسته على أيدي المستشرقين في الجامعة المصرية، ومنها كذلك إقباله على الثقافة الفرنسية بحماسة شديدة ودراسته

بجامعة السوربون ليعود بالدكتوراه منها عام ١٩١٩ ويشتغل أستاذاً للتاريخ اليوناني والروماني بالجامعة المصرية حتى عام ١٩٢٥، فأستاذاً للأدب العربي بها بعد ذلك. واهتمامه بالثقافة الكلاسيكية وبقادة الفكر الانساني يحمل مضمون توجهه نحو النهضة، التي تقتضي دراسة هذه الأصول جميعاً. ولم يكن طه حسين وحده في هذا المجال، فقد برز معه، خلال العشرينات جيل جديد، يتجاوز بأفكاره واسهاماته أفكار جيل الطهطاوي ثم جيل محمد عبده وأن استقى من نبعهما.. جيل برزت فيه أسماء الدكتور محمد حسين هيكل وسلامة موسى وعباس العقاد وعلي العقاد ومصطفى عبد الرازق وأحمد أمين ومنصور فهمي وإسماعيل مظهر وغيرهم لقد طرحوا جميعاً قضية تحديث مصر ونهضتها على بساط البحث وكان النموذج الأوروبي ماثلاً أمامهم، بدرجات متفاوته، وبرزت اتجاهات جديدة حول قضية الخلافة الاسلامية، وعلاقة الدين بالدولة بشكل عام وعلاقة الدين بالعلم والمدنيه الحديثة.. وجاءت الأطروحات الجديدة بمعالجات ومناهج غير مألوفة وبرؤى متقدمة بالنسبة لعصرها.

وكان إسهام طه حسين خلال العشرينات كبيراً، وكان تأثير ثقافته الفرنسية قد طغى، إلى حين، على ثقافة العربية الاسلامية، وأن لم يمحها، وبدا في نظر الكثيرين مستغرباً داعياً للغرب، وأحياناً عميلاً، حين دعا إلى فصل الدين عن العلم وقوانينه ونتائجه، وبتطبيقه مناهج أوربية لم تعتدها الثقافة العربية، بالرغم من أنه كان يعالج موضوعات من صميم تراث تلك الثقافة داعياً إلى الاجتهاد في بحوث الأدب باخضاعها لمناهج البحث التي تعلمها عن العقلانية الفرنسية، عن ديكارت وكونت ودوركايم وغيرهم...(١) .

وقد قاده ذلك إلى الأزمة التي أثارها كتابه «في الشعر الجاهلي» عام ١٩٢٦ والتي هي في صميمها أزمة تطبيق منهج، برغم الملابسات الدينية والسياسية، إنه يريد أن يمتحن كل شيء بالاستقراء وبالبراهين العقلية - لا النقلية - ولسنا هنا بصدد تحليل هذه الأزمة ولكن تكفي الاشارة إلى أنها كانت دفعة قوية نحو استكمال مشروع النهضة عنده، ولم يتراجع طه حسين إلا تراجعاً ظاهرياً، لأنه حذف الفصول التي اعتبرت مساساً بالدين وأضاف فصولاً جديدة تؤصّل المنهج وتدعمه، بل أكثر من هذا

نشر في نفس العام مجموعة مقالات بعنوان «بين العلم والدين» نادى فيها بفصلهما تماماً وأكد إيمانه بالتفكير العلمي المجرد ودعا إلى إستبعاد فكرة الحكومة الدينية، ورأى أن الوطنية لا تقوم إلا على أساس المنافع السياسية والاقتصادية وحدها ورأى كذلك أن مصر تسرع الخطى لتصبح جزءاً من أوربا[٢] .

وليس معنى ما سبق أن طه حسين قد انقطع عن جذوره أو أنه تخلى عن تراثه وإنما حاول معالجته على ضوء منهج البحث الحديث.. كما كانت مادته واهتماماته مزدوجة، فبينما كان يكتب ويترجم ويلخص مقالات لڤولتير ورينان وبول ڤاليري وأندريه جيد، كان في نفس الوقت يكتب عن المتنبي وأبو تمام وابن الرومي كما كتب عن حافظ وشوقي. وعندما اتجه معاصروه إلى معالجة الموضوعات الاسلامية خلال الثلاثينات، لم يجد طه حسين نفسه بعيداً عنهم فدخلت الموضوعات الدينية الصرفة (الاسلامية) دائرة اهتمامه، وشارك في الموجة بكتابه «على هامش السيرة» بالرغم من أنه خضع لنقد شديد في تناوله لسيرة الرسول[٣] ، واتهم بأنه لم يكن صادقاً فيما كتب وأنه لم يبتغ غير خدمة الأدب والفن.

إن طه حسين لم يتجه للتاريخ الاسلامي بصفته ماضياً فقط، وإنما كان منسجماً في هذا التوجه مع معادلة النهضة، أي أن الاسلام كان عنصراً أصيلاً في رؤية طه حسين للتطور، كل ما حدث أن الشعر لم يعد هو مادته وإنما التاريخ الاسلامي، أما المنهج فأمره مختلف أي أن طه حسين وأبناء جيله أرادوا تأصيل فكرة التراث الوطني لمصر باعتبار الاسلام عنصراً حاسماً في هذا التراث، ولكنهم جميعاً اتخذوا أدوات منهجية في معالجة المادة التراثية أقرب إلى العقلانية[٤] .

وعندما وقّعت مصر معاهدة ١٩٣٦ مع بريطانيا، ثم اتفاق مونترو عام ١٩٣٧ الخاص بإلغاء الامتيازات الأجنبية مع الدول الأوربية، اعتقد الكثيرون، ومنهم طه حسين، أن مصر تستقبل عهداً جديداً من حياتها إن كسبت فيه بعض الحقوق فإن عليها أن تنهض فيه بواجبات خطيرة. وقد دفعت هذه التطورات فريقاً من شباب الجامعة لأن يسألوا قادة الرأي في مصر عن واجب مصر بعد المعاهدة، وقد تحدث إليهم طه حسين ضمن من تحدثوا[٥] ، ولكنه لم يقنع بما قال واستقر في نفسه أن يكتب

بالتفصيل عن واجب مصر في الثقافة والتعليم حيث أن «واجبنا في ذات الثقافة والتعليم بعد الاستقلال أعظم خطراً وأشد تعقيداً مما تحدثت به»[٦] وجاء كتاب مستقبل الثقافة في مصر نتيجة لذلك. ولم يكن طه حسين وحده في هذا المجال وإنما صدرت كتب أخرى معاصرة هي أقرب إلى التقارير أو البرامج التي ترسم خطوط وتوجهات نهضة مصر في مرحلتها الجديدة، مرحلة ما بعد معاهدة عام ١٩٣٦ واتفاقية ١٩٣٧، ومن أشهر هذه الكتب كتاب مريت غالي «سياسة الغد» وكتاب حافظ عفيفي «على هامش السياسة» وكتاب محمد عبد الحميد مطر «التعليم والمتعطلون في مصر»، وكذلك كتاب محمد علي علوبة «مبادىء في السياسة» وكتاب إبراهيم بيومي مدكور ومريت غالي «الأداة الحكومية» وكلها صدرت بين عامي ١٩٣٨، ١٩٤٥.

ويدلنا طه حسين على سبب آخر لتأليفه هذا الكتاب يتمثل في أنه كان قد أوفد من قبل وزارة المعارف لتمثيلها في مؤتمر اللجان الوطنية للتعاون الفكري الذي عقد في باريس صيف العام السابق، كما انتدب لتمثيل الجامعة في مؤتمر التعليم العالي الذي عقد في باريس أيضاً في صيف ذلك العام أيضاً، وأنه لذلك أصبح واجباً عليه أن يقدم تقريرين، عن المؤتمرين إلى الوزارة والجامعة، ولكنه لم يفعل، وأسّر في نفسه أن ينجز ذلك خلال تأليف كتابه، ليحقق به هذين الهدفين معاً، فيتوجه بكتابه إلى الشباب، وإلى المسئولين كذلك، متضمناً آراءه وأفكاره حول مستقبل الثقافة والتعليم في مصر، والأهم من ذلك أن طه حسين رآها فرصة يستكمل بها خطوط رؤيته لمشروع نهضة مصر، ويستكمل بها رسالته التي أخذها على عاتقه. ولذلك فالكتاب ليس كتاباً علمياً أو تاريخياً بالمعني المألوف، وإنما هو بيان مطول، وبرنامج مسهب يشخص الداء ويقترح الأدواء، ويرسم مستقبل الثقافة والتعليم لمصر المعاصرة، كأساس لنهضتها وتحديثها، في لغة خطاب فكري مباشر، واضح وجلي.

لقد بات واضحاً أن على مصر، أن تهتم بنوعية حياتها الوطنية، وقد قوم طه حسين هذه النوعية على ضوء مبادىء استمدها، إلى حد ما، من ابن خلدون، الذي درس فلسفته الاجتماعية، كما استمدها من مفكرين فرنسيين، أخصهم كونت وريتان ودركايم وأناتول فرانس وهي أن الحضارة غاية البشرية، وأن أوربا الحديثة قد سجلت لنفسها

أعلى مرحلة بلغها التطور الحضاري، حيث يتحقق التوازن المثالي، الذي يترك للعقل حريته في حكم العالم الاجتماعي واخضاع الطبيعة بتطبيق العلم، وسن الشرائع التي تستهدف السعادة البشرية، وإقامة حكومات تحترم القانون وتوفق بين المصالح.. وكانت أوربا تعني عنده ثلاثة أشياء: الحضارة الانسانية والفضائل المدنية والديمقراطية.. ورغم تجاهله للأفكار السياسية المخالفة التي كانت ألمانيا وإيطاليا تبشران بها في ذلك الحين (قبل عام ١٩٣٨ عام إصدار الكتاب) إلا أن أوربا كانت تمثل في نظره العالم الحديث(٧) ومن هنا كانت نقطة البداية في كتابه هذا: أين نحن من الحضارة الحديثة أو أين نحن من أوربا؟

ومن الملاحظ أنه خلال استفتاء قامت به مجلة الهلال عام ١٩٣١، كان محوره «حضارتنا القادمة فرعونية أم عربية أم غربية؟» كان رد طه حسين أنه إذا كان لابد أن يدلي برأي حول الخيارات المطروحة «فالمثل الأعلى، فيما اعتقد، هو أن نحتفظ من الحضارة المصرية القديمة بما يلائمنا وهو الفن، ومن الحضارة العربية بالدين واللغة، وأن نأخذ من الحضارة الأوربية بكل ما نحتاج إليه. وليس في هذا شر مادمنا نحتفظ بشخصيتنا المصرية فلا تفسد علينا هذه الحضارة الأوربية حياتنا على أننا أمة لها مقوماتها الخاصة» وأضاف بأن حياتنا الحديثة رهن الحضارة الأوربية وعليها تعويلنا في ما يمس الحياة المادية، سواء ما يتعلق بالنظم المتبعة في ميادين التجارة والصناعة والاقتصاد، أو ما يتعلق بالحياة اليومية. ونحن مرتهنون بهذه الحضارة نفسها في ما يخص حياتنا العقلية «فأنت مكره الآن على أن تفكر كما يفكر الأوربيون، لا كما كان يفكر المصريون القدماء ولا كما كان يفكر العرب»(٨) .

إن طه حسين إذن لم يبدأ تنظيم أفكاره في كتابه مستقبل الثقافة في مصر «من فراغ، وإنما باستجماع أفكاره السابقة والتي انتشرت في مؤلفاته الهامة خلال العشرينيات والثلاثينيات، وتطويرها في كتابه الجديد، لتخرج في نسيج فكري متكامل، يحدد المنطلقات ويقدم رؤيته للتحديث. ونود أن نشير إلى أن الكتاب يحتوي على قسمين أساسيين من ناحية موضوعاته أولهما يتناول قضية الهوية والانتماء والتوجه الحضاري، وثانيهما يتناول قضايا التعليم والثقافة في مصر.

-٢-

(أ) قضية الانتماء والتوجه الحضاري :

يبدأ طه حسين بعبارة على قدر كبير من الأهمية ربما لم يعبأ بها نقاده، يذكر فيها «أريد لكل مصري مثقف محب لوطنه، حريص على كرامته ألا نلقي الأوربي فنشعر بأن بيننا وبينه من الفروق ما يبيح له الاستعلاء علينا والاستخفاف بنا وما يضطرنا إلى أن نزدري أنفسنا ونعترف بأنه لا يظلمنا فيما يظهر من الاستطالة والاستعلاء[٩] وواضح من العبارة أنه يريد لمصر والمصريين أن يكونوا أنداداً للأوربيين شركاء له في الحضارة الانسانية، وقد قاده ذلك بطبيعة الحال إلى مناقشة قضية هوية مصر الثقافية، وانتماؤها وتوجهها الحضاري، كضرورة أولية، قبل طرح أفكاره الأساسية.

بدأ طه حسين بأن طرح سؤاله : أمصر من الشرق أم من الغرب؟ وأوضح أنه لا يقصد بالطبع الشرق الجغرافي والغرب الجغرافي، وإنما يقصد الشرق الثقافي والغرب الثقافي.. ثم يوضح تساؤله على نحو آخر فيتساءل : هل العقل المصري شرقي التصور والادراك والفهم والحكم على الأشياء، أم هو غربي التصور والادراك والفهم والحكم على الأشياء؟ ومن الجلي أنه كان يقصد بالشرق هنا، ليس الشرق العربي القريب (أو الأوسط) وإنما يقصد الشرق البعيد (الأقصى) لأنه تساءل: أيهما أيسر على العقل المصري: أن يفهم الرجل الصيني أو الياباني، أو أن يفهم الفرنسي أو الانجليزي؟ تلك هي القضية الأولى التي أراد أن يحسمها قبل أن يوضح الأسس التي ينبغي لمصر أن تقيم عليها ثقافتها وتعليمها[١٠] .

وحتى يجيب على هذه التساؤلات راح يستقرئ التاريخ، تاريخ العقل المصري، ليحاول إثبات عدة حقائق:

أولها : أننا لا نعرف أن هناك صلات بيننا وبين الشرق البعيد، مستمرة ومنتظمة تؤثر في تفكيرنا أو نظمنا.

وثانيها : أن الصلة بين المصريين القدماء والبلاد الشرقية لم تجاوز الشرق القريب (الشام والعراق) أي الشرق الواقع في حوض البحر المتوسط..

وثالثها : أن علاقات مصر كانت حقيقية مع حضارة اليونان في عصور ازدهارها منذ القرن السادس قبل المسيح إلى أيام الاسكندر[١١] .

وقد رتب طه حسين على ذلك حقيقتان أولهما : أن العقل المصري اتصل بالشرق القريب اتصالاً مؤثراِ ومتأثراً، كما اتصل بالعقل اليوناني منذ عصوره الأولى اتصال تعاون وتبادل للمنافع في الفن والسياسة والاقتصاد. وثانيهما: أن العقل المصري منذ عصوره الأولى إن تأثر بشيء فإنما يتأثر بالبحر المتوسط، وأن تبادل المنافع فإنما يتبادلها مع شعوب البحر المتوسط ثم يفصّل طه حسين الحديث عن علاقة مصر ببلاد اليونان، وما كتبه اليونانيون عن مصر وتأثيرها في حضارتهم، ليؤكد على أنه عندما يجب أن نلتمس المؤثر الأساسي في تكوين الحضارة المصرية والعقل المصري، فلابد أن نفكر في البحر المتوسط، وفي الظروف التي أحاطت به، والأمم التي عاشت حوله. ثم يضيف: إن المصريين يرون أنفسهم شرقيون وأنهم لا يفهمون من الشرق معناه الجغرافي وحده، بل معناه العقلي والثقافي، فهم يرون أنفسهم أقرب إلى الهندي والصيني والياباني منهم إلى اليوناني والايطالي والفرنسي[١٢] .

وكان طه حسين يقصد بذلك دعوة جماعة «الرابطة الشرقية» التي كانت تنادي بالتضامن مع أهل الشرق الأقصى في مواجهة كل ما هو غربي، وكانت هذه الرابطة قد تأسست في أواخر العشرينيات، وقد ترأسها السيد عبد الحميد البكري وكانت في نظر البعض بديلاً عن الجامعة الاسلامية، ولم يقدر لاتجاهها أن يستمر[١٣] .

ومن المهم أن نلاحظ أن طه حسين قد ميّز بشكل واضح بين شرق أقصى بعيد، وشرق أدنى قريب، وهو ما لم يلتفت إليه نقاده حين ذكر أحدهم، وهو الاستاذ سيد قطب أن الدكتور قد قسم الدنيا إلى قسمين لا ثالث لهما: قسم تمثله الصين واليابان والهند وإندونيسيا، وقسم تمثله فرنسا وإنجلترا، أو كل دول أوربا وأمريكا[١٤] لأن طه حسين قد تحدث عن وجود الشرق الأدني (يقصد العربي) وأن لم يسمه باسمه فذكر بوضوح «أنا أفهم أن نشعر بالقرابة المؤكدة بيننا وبين الشرق الأدنى لا لاتحاد اللغة والدين فحسب بل للجوار الجغرافي، وتقارب النشأة والتطور التاريخي، أما أن نتجاوز هذا الشرق القريب إلى ما وراءه فلا أفهم أن يقوم الأمر فيه على الوحدة العقلية أو على

التقارب التاريخي..»[١٥] فقرابة مصر للشرق الأدني أو القريب مؤكدة عنده لامراء فيها لكنه لا ينظر إلى هذا الشرق من زاوية أنه شرق عربي إسلامي، وإنما طبقاً لنظريته أي باعتباره هذا الشرق القريب الذي يقع في حوض البحر المتوسط»[١٦] فيلحق بذلك الشرق العربي هو الآخر بعالم البحر المتوسط!

وينتقل طه حسين إلى نقطة أخرى يتحدث فيها عن مكونات الوحدة السياسية أو عناصر القومية، فيستبعد وحدة الدين ووحدة اللغة، كمقومين من مقومات تكوين الدول ويذكر أن المسلمين أنفسهم، منذ عهد بعيد، عدلوا عن اتخاذ الوحدة الدينية واللغوية أساساً للملك وقواماً للدولة.. وأن المسلمين أقاموا سياستهم علي المنافع وحدها وأنه لم يأت القرن الرابع للهجرة، حتى قام العالم الاسلامي بقيام الدولة الاسلامية، وظهرت القوميات وانتشرت في البلاد الاسلامية دول كثيرة، يقوم بعضها على المنافع الاقتصادية والوحدات الجغرافية ويقوم بعضها الآخر على ألوان أخرى من المنافع ويضيف أن السياسة شيء والدين شيء آخر.. وأن هذا هو التصور الذي تقوم عليه الحياة في أوربا، التي تخففت من أعباء العصور الوسطى، وأقامت سياستها على المنافع الزمانية، لا على الوحدة المسيحية ولا على تقارب اللغات والأجناس[١٧] وبذلك يرى طه حسين بما لا لبس فيه، أن عوامل الدين واللغة والجنس والتي سبق أن نظر إليها بعين الاعتبار عند حديثه عن الشرق «الأدنى أو القريب» لا تشكل أسساً لتكوين الدول في العصر الحديث وإن استمد فكرته من نظرة خاصة لتاريخ الاسلام، قبل أن يؤكد أن هذا هو ما تقوم عليه الحياة الحديثة في أوربا التي أقامت سياستها على المنافع الزمانية لا على الوحدة المسيحية ولا على تقارب اللغات والأجناس.

ثم يعود طه حسين ليؤكد فكرة اتصال مصر بالحضارة اليونانية، حتى أصبحت دولة يونانية أو كاليونانية، وأنه عندما جاء الاسلام إليها، تلقته لقاء حسناً واتخذته ديناً واتخذت لغته العربية لغة لها، ويتساءل: فهل جعلها هذا أمة شرقية؟ كلا... ثم أضاف قياساً آخر ليؤكد النفي، وهو أن المسيحية لا تعدُ أن تكون عنصراً من عناصر العقل الأوربي[١٨] ومن الواضح أن التساؤل هنا لا ضرورة له في الأصل لأنه ليس ثمة افتراض بأن الاسلام جعل مصر أمة شرقية ومن ثم فإن القياس الذي أورده بشأن

المسيحية وأوربا لا أهمية له.

ومن الملاحظ كذلك أن طه حسين يرى أن قوام الحياة العقلية في أوربا إنما هو اتصالها بالشرق عن طريق البحر المتوسط «فما بال هذا البحر ينشئ في الغرب عقلاً ممتازاً متفوقاً، ويترك الشرق بلا عقل أو ينشئ فيه عقلاً منحطاً ضعيفاً؟ وكأن عامل البحر هو الذي «ينشئ» ثم يستنتج في النهاية أنه ليست بين الشعوب التي نشأت حول بحر الروم وتأثرت به فروق عقلية وثقافية، وإنما هي ظروف السياسة والاقتصاد، تدور بين هذه الشعوب مواتية هذا الفريق ومعادية ذلك الفريق فلا ينبغي أن يفهم المصري أن بينه وبين الأوربي فرقاً عقلياً قوياً أو ضعيفاً [١٩] .

ينتقل طه حسين بعد المقدمات السابقة إلى نقطة أخرى يثبت من خلالها أن نهضة مصر منذ أوائل القرن الماضي لا خلاف في أنها تأخذ بأسباب الحياة الحديثة، على نحو ما يأخذ بها الأوربيون في غير تردد ولا اضطراب ويضيف «إن حياتنا المادية أوربية خالصة والمثل الأعلى للمصري في حياته المادية إنما هو المثل الأعلى للأوربي.. نفعل ذلك عن علم به وتعمد له.. ثم تجاوزنا ذلك إلى جميع الانحاء التي يحيا عليها الأوربيون فاصطنعناها لأنفسنا، غير متخيرين ولا محتاطين، لا مميزين بين ما يحسن منها وما لا يحسن وما يلائم منها وما لا يلائم»[٢٠] معنى ذلك أنه يرى واقعنا يسير في تقليد الأوربيين حتى فيما يلائمنا وما لا يلائمنا مما يوحي بأن له موقفاً انتقائياً، يرى أن ثمة ما يلائم وما لا يلائم، وأننا في تقليدنا ينبغي أن نميز ونحتاط ونتخيّر.

وقد راح طه حسين يضرب أمثلة على أخذ مصر بالنظم والتشريعات الأوربية في نهضتها الحديثة فيذكر أن التشريع بالقوانين المدنية أخذ عن النظم الأوربية، كما أن النظم المالية والادارية والاقتصادية نقلت عن الأوربين، وأنه بالرغم من استبقاء بعض النظم القديمة لأنها تتصل بالدين فإن كل شيء يدل على أننا نريد أن نتصل بأوربا اتصالاً يزداد قوة من يوم إلى يوم نصبح جزءاً منها لفظاً ومعني ثم ينتقل إلى التعليم فيذكر أننا أقمنا صروحة ووضعنا مناهجه وبرامجه منذ القرن الماضي على النحو الأوربي الخالص.. كما أننا نكون أبناءنا في مدارسنا تكويناً أوربياً لا تشويه شائبة..[٢١] .

ومن الملاحظ أن طه حسين يؤكد على فكرة أن توقيع معاهدة الاستقلال ومعاهدة إلغاء الامتيازات، يعتبر التزاماً صريحاً بأننا سنسير سيرة الأوربيين في الحكم والادارة والتشريع معتقداً، بكثير من المبالغة، أن ثمة التزاماً صريحاً قاطعاً « بينما الأمر لا يعد، خاصة فيما يتعلق باتفاق مونترو عام ١٩٣٧، أن مصر بما تتخذه من تشريعات وقوانين ستكفل حقوق الأجانب على أراضيها»[٢٢] .

وقد علل طه حسين الفارق بيننا وبين الأوربيين بأنه فارق الزمان ليس غير، فهم قد بدأوا حياتهم الحديثة في القرن الخامس عشر، وأخرنا الترك العثمانيون فبدأنا حياتنا في القرن التاسع عشر، وبذلك يلقي بمسئولية إنقطاع اتصالنا بأوربا ونهضتها على فترة الحكم العثماني بين القرنين السادس عشر والثامن عشر، ثم يضيف بأن السبيل إلى اجتياز الهوة بيننا وبين الأوربيين هي أن نسير سيرتهم، ونسلك طريقهم، لنكون لهم أنداداً وشركاء في الحضارة، خيرها وشرها حلوها ومرها. لقد كان في وعيه إذن مسألة الندية والمشاركة في الحضارة، وهو ما لم يلق اهتماماً من نقاده، بينما أكد على هذا المعنى في أكثر من موضع خاصة عندما يضيف : «نحن نريد أن نضارع الأمم الأوربية في قوتها الحربية لنرد عن أنفسنا المغير ولنقول لأصدقائنا الانجليز بعد أعوام: انصرفوا مشكورين فقد أصبحنا قادرين على حماية القناة.. نريد أن نكون شركاءه (الأوربي) في الحياة وأعوانه عليها لا خدمة ووسائله إلى هذه الحياة»[٢٣] .

ومن الملاحظ كذلك أنه تجاوز فكرة البحر المتوسط وحضارته، وأصبح يستخدم مصطلح حضارة «أوربا وأمريكا» ويقرن بينهما في النموذج الذي ينبغي أن يحتذي من جانب المصريين، فتخطى العامل الجغرافي العقلي، الذي ركز عليه في البداية، وجعل يستخدم الغرب على إطلاقه[٢٤] .

ولأن طه حسين يعلم سلفاً ما ستثيره هذه الأفكار من اعتراضات ومخاوف، فقد أخذ على عاتقه الرد عليها، وأول هذه المخاوف أن الاتصال بالحياة الأوربية على مافيها من آثام وموبقات، مما لا يبيحه ديننا، خليق بأن يغري بما فيها من إثم، ويرد على ذلك بأن الحياة الأوربية ليست إثماً كلها، وأن الاثم الخالص لا يمكن من الرقي، وأن حياتنا الحاضرة وحياتنا الماضية ليست خيراً كلها، وإن الخير الخالص لا يدفع إلى

الانحطاط.. ثم يضيف «نحن لا ندعو إلى آثامهم وسيئاتهم، وإنما ندعو إلى خير ما عندهم.. ندعو إلى الاتصال بأوربا والأخذ بأسباب الرقي التي أخذوا بها، لا ندعو إلى أن نكون صوراً طبق الأصل للأوربيين فذلك شيء لا يدعو إليه عاقل.. ليس على حياتنا الدينية بأس من الأخذ بأسباب الحضارة الأوربية، فقد أخذ المسلمون في قوة بأسباب حضارة الروم والفرس.. أنا لا أدعو إلى شيّء عملي وإنما أدعو إلى شيء نفسي، فمن السخف أن ندعو إلى الأخذ بأسباب الحضارة الأوربية وقد دخل الراديو إلى الأزهر الشريف.

وثانية هذه المخاوف تتعلق بالخشية على شخصيتنا القومية وعلى ما ورثناه، وأنا لا أدعو إلى أن ننكر أنفسنا أو نجحد ماضينا ولا أن نفني في الأوربيين، كيف يستقيم ذلك وأنا إنما أدعو إلى أن نثبت لأوربا ونحفظ استقلالنا من عدوانها وطغيانها.. إنما تتعرض مصر للفناء إذا عجزت عن أن نقاوم أوربا بسلاحها وتجاهدها بما تعرف من وسائل الجهاد. وثالثة هذه المخاوف أنه قد يقال أن الحضارة الأوربية مسرفة في المادية لا تتصل بالروح، وأن أوربا قد زهدت في حضارتها وأن جماعة من علمائها وفلاسفتها أخذوا يرغبون عنها ويلتمسون لعقولهم وقلوبهم غذاء في روحانية الشرق.. ونقول أنه من السخف أن يقال أن الحضارة الأوربية قليلة الحظ من المعاني السامية التي تغذو الأرواح والقلوب، إن هذه الحضارة نتيجة العقل والخيال والروح الخصب المنتج.. وما أعرف أن للشرق القريب هذا روحاً يميزه عن أوربا ويتيح له التفوق عليها.. إن شرقنا القريب هو مهد العقل الذي يزدهر في أوربا(٢٥) .

(ب) قضايا التعليم والثقافة

وسوف نعرض لأهم القضايا التي أثارها في كتابه، بعد قضية الهوية والانتماء والتوجه الحضاري فمن الملاحظ أنه عرض خلال الجزء الأكبر من كتابه الكثير من القضايا المتعلقة بالتعليم ونظمه، وسياساته ومؤسساته، والكثير من الموضوعات ذات الطابع الفني البحت مما تحفل به الهيئات التنفيذية الفنية، فأطلق لنفسه العنان وراح يبدي آراء إصلاحية على درجة من الأهمية.. وسنركز هنا على الموضوعات المتصلة بسياسة التعليم وفلسفته، وهي الموضوعات التي حملت آراء ووجهات نظر هامة لطه

حسين، وهي آراء لا تبدو بعيدة عن واقعنا الآن.

١ - مسألة التعليم الأجنبي في مصر :

وهو التعليم الذي قام مستظلاً بالامتيازات الأجنبية غير حافل بالدولة ولا خاضع لسلطانها، ولا معنى إلا نشر ثقافة البلاد التي جاء منها، وتكوين التلاميذ المصريين على نحو أجنبي خالص، فيضرب أمثلة لأنواع هذا التعليم، الذي لا يحفل بمصر ولا يفكر فيها، ويدفع المصريون أبناءهم إليه عن رضى واختيار ويطالب بأن تشرف الدولة عليه، وأن يعلم التاريخ القومي والجغرافية المصرية، وكذلك الدين القومي «فنحن من غير شك نعتمد على أن الدين مقوم خطير من مقومات الوطنية المصرية فيجب أن يشترك المصريون جميعاً في هذا الجزء الأساسي من أجزاء التعليم «وكان طه حسين في مناسبة أخرى سابقة قد ذكر أن المسلمين قد عدلوا منذ عهد بعيد عن اتخاذ الوحدة الدينية واللغوية أساساً للملك وقواماً للدولة»، لقد كانت المناسبة الأولى الحديث عن المنافع في علاقات الدول وتوجهاتها، بينما هو في المناسبة الأخيرة يتحدث الخشية على الشخصية الوطنية ومقوماتها ويعبر عن حرصه على السيادة الوطنية، وباختصار شديد طالب الدولة بأن تشرف على هذه المدارس وأن تكفل لأبنائها التعليم الصحيح للغة القومية والدين القومي «فالدين مقوم من مقومات الشخصية المصرية وأنا مؤمن فيما بيني وبين نفسي أشد الايمان»[٢٦] .

٢ - ديمقراطية التعليم ومجانيته :

وبخصوصها يذكر طه حسين أن الدولة الديمقراطية ملزمة بنشر التعليم الأولي، ليكون وسيلة في يد الأفراد ليستطيعوا أن يعيشوا، ولتكوين الوحدة الوطنية واشعار الأمة حقها في الوجود المستقل الحر، وأضاف أن الدستور فرض ذلك على الدولة، وأن تقصيرها في ذلك إثم في حق الدستور، والحرية لا تستقيم مع الجهل، كما أنه من المضحك أن يقال أن الشعب مصدر السلطات في بلد كثرته جاهلة غافلة، ورأى كذلك أن الديمقراطية الصحيحة إذا فرضت المساواة بين أبناء الشعب في الحقوق والواجبات فهي لا تقبل أن يفرق بينهم في حرية التعليم.

أما بخصوص المجانية فقد تحدث عن التعليم العام، الذي يلي التعليم الأولي، والذي يفضي إلى التعليم الجامعي أو الفني العالي، باعتبار أنه يكلف الدولة نفقات لا تستطيع أن تنهض بها وحدها، كما أنه ليس إلزامياً، ومن ثم لا يقوم مجاناً، وإنما يقتصر على الذين يستطيعون أن يؤدوا أجره من الطبقات الوسطى والفنية، ولأن من حق الفقراء أن يتعلموا وأن يطمحوا إلى التعليم العام والعالي لتحقيق الديمقراطية، فلابد أن تأخذ الدولة من القادرين أجر التعليم وأن تحط ثقله عن العاجزين، فينظم قبول أبناء هؤلاء ولا يقبل منهم إلا من يثبت استعدادهم الجيد للانتفاع بهذا التعليم، وذلك بإجراء المسابقات الدقيقة المبرأة من العبث والمحاباة ثم يشيد طه حسين - بعد أن كان قد كتب هذا الجزء من حديثه - (في أحد الهوامش) بموافقة البرلمان على طلب نجيب الهلالي بجعل التعليم الابتدائي كله مجاناً، ويعلق بأن ذلك يدل على الرقي، وأنه سوف يشمل التعليم الثانوي ليصبح التعليم كله بالمجان[٢٧] .

٣ - تعليم اللغات الأجنبية :

لقد اقترح طه حسين إرجاء تعليم اللغات الأجنبية إلى مرحلة ما بعد المدرسة الابتدائية، ورأى أن التعليم الابتدائي يجب أن يخلص للثقافة الوطنية وحدها «فنحن نشكو من أن تلاميذنا لا يحسنون لغتهم العربية، وسبب العلة أن التلميذ لا يكاد يدخل المدرسة حتى تتلقفه اللغة الأجنبية، فتستغرق من وقته وجهده ونشاطه ما هو خليق أن ينفق في تعليم اللغة العربية.. فلا نشغله بلغة أجنبية لا يحتاج إليها الآن، ويستطيع أن يتعلمها ويتعمقها حين ينمو عقله وجسمه وملكاته ورأى كذلك أن حاجتنا إلى اللغات الأجنبية لا ينبغي أن تكون مقصورة على الانجليزية والفرنسية، وأن لا نستمد الثقافة إلا منها وطالب وزارة المعارف أن تلغي هذا الاحتكار «فإننا إذا فرضنا على أجيالنا الناشئة ثقافة بعينها، صُغناهم على مثال أصحاب هذه الثقافة، فجعلناهم معرضين للفناء فيهم والانقياد لهم» ويقترح طه حسين تخيير الطالب بين هاتين اللغتين بالاضافة إلى اللغات الايطالية والألمانية والروسية. وطبقاً لأفكاره حول دراسة أصول النهضة أبدئ اهتماماً كبيراً بتعليم اللغتين اليونانية واللاتينية، لا في الجامعة وحدها، بل في التعليم العام قبل كل شيء، معللاً ذلك بأن مصر خضعت للسلطان اليوناني والروماني

وما نشأ عنهما من النظم عشرة قرون لا نستطيع أن نلغيها من تاريخنا الوطني «ومعارضة تعليم هاتين اللغتين معناه القضاء على المصريين بأن يجهلوا تاريخهم وألا يعرفوه إلا عن طريق الأجانب»(٢٨) .

٤ - أما بالنسبة لتعليم اللغة العربية :

فقد ذكر طه حسين أن هذه اللغة قد أصبحت إن لم تكن أجنبية فهي قريبة من الأجنبية، وأن الأزهر أقل المعاهد والبيئات اصطناعاً لها وسيطرة عليها، وطالب بالتشديد على المعلمين في أن يصطنعوا اللغة الفصحى فيما يلقون على تلاميذهم، ثم أوضح ضرورة أن يكون الغرض من الكتابة الابانة والتجلية، لا الالغاز والتعمية، فلا بد أن تكون الكتابة تصويراً صادقاً للنطق، لا أن تصور بعضه وتلغي بعضه وأضاف «أحب أن يعلم المحافظون أني قاومت وسأقاوم أشد المقاومة دعوة الداعين إلى اصطناع الحروف اللاتينية لأسباب لا أطيل بتفصيلها الآن، ولكن هذه المقاومة لن تغني شيئاً إذا لم نسرع إلى اصلاح الكتابة لنبطل هذه الدعوة من أساسها»(٢٩) .

٥ - تطوير التعليم بالأزهر :

شغلت هذه القضية حيزاً كبيراً في تفكير طه حسين، وقد ذكر في البداية أن من الخير للأزهر أن لا يكون حرباً علي الحياة الحديثة، وإنما الواجب أن يكون ملطفاً لها مخففاً لأثقالها، ملائماً بينها وبين ما يأمر به الله من الخير والمعروف مباعداً بينها وبين ما ينهي عنه من الشر والمنكر، وذلك لا يكون إلا إذا عرف رجال الدين حياة الناس كما يحيونها واتقنوا العلوم بأسرارها ومشكلاتها «وسبيل ذلك أن يتثقف الأزهر بالحياة الحديثة كما يتثقف بها غيره من المعاهد، وأن يمتاز بما لا تمتاز به من الثقافة الدينية الخالصة.. إن طبيعة الحياة ستصوغ الأجيال الناشئة والمقبلة صبغة حديثة أوربية، فلابد أن يجاري الأزهر هذا التطور ليكون اتصاله بالأجيال الناشئة والمقبلة أجدى وأقوى.. فالاسلام دين الحرية والعلم والمعرفة كما تفهمها الأجيال على اختلافها.. ولا ينبغي أن تكون محافظة الأزهر علي القديم مانعة له من الأخذ بأسباب الحديث»...

ثم يهاجم طه حسين فكرة إنشاء الأزهر لدرجات جامعية على غرار ما تنشئ الدولة

فينتج عن ذلك نظام ثنائي غريب في التعليم وفي اجازاته، ويرى أن يمتاز الأزهر بالتعليم الديني علمياً وعملياً للنهوض بالأعباء الدينية التي تحتاج إليها الحياة العامة من جهة، وللتفرغ للبحث العلمي الخالص في شئون الدين من جهة أخرى «فأما إذا أراد الأزهر أن يشارك شبابه في غير هذه المناصب الدينية فحقه لا جدال فيه، ولكن ينبغي أن يسلكوا إلى هذه الاعباء طرقها الطبيعية وأن يتعلموا في معاهد الدولة المدنية ويظفروا باجازاتها.. ذلك أحرى أن يلغي هذا النظام الثنائي الغريب وأن يحقق الوحدة العقلية في مصر» وقد طالب طه حسين بأن تفتح أبواب الجامعة والمعاهد العالية للأزهريين كما تفتح أبواب الأزهر للجامعيين، فيومئذ تمتزج الثقافة الدينية بالثقافة المدنية امتزاجاً حسناً مفيداً، ويومئذ تفتح أبواب الأزهر ونوافذه للهواء الطلق والنور المشرق، ويلتقي العلم والدين لقاء حسناً لا يتيح لمصر والمسلمين إلا خيراً (٣٠) .

٦ - الترجمة والنقل عن اللغات الأوربية :

وقد أقر طه حسين في البداية أننا أقل الأمم حظاً من الترجمة، ومصدر ذلك أننا نجهل كثيراً من اللغات الأوربية، وأن الذين يعرفون قليلاً من هذه اللغات لا يكادون يعرفونها معرفة حسنة وأن الذين يحسنون هذه اللغات لا يكادون يقرأون ما يذاع فيها من علم وأدب، أما الكثرة فهي تجهل اللغات الأوربية جهلاً تماماً ولا تجد من التراجم ما يضع عنها إصر هذا الجهل، فتزدري أوربا وحضارتها، ومن يعجبون بحضارتها. ويربط بين التأليف والترجمة فيذكر أننا لن نؤلف التأليف الذي يرضى حاجتنا إلى العلم والأدب إلا إذا ترجمنا وأكثرنا من الترجمة فذلك حريّ أن يمنحنا ما نقرأ أولاً وأن يدفع كثيراً من الشباب إلى التقليد والمحاكاة، وقد فرغ الناس من إثبات أن التقليد عنصر من أرقى عناصر الحياة العقلية وأقواها. واقترح بأن تنشئ الدولة مكتباً للترجمة لينهض بنقل الآثار الأدبية والعلمية والفلسفية الخالدة التي أصبحت تراثاً للانسانية كلها والتي لا يجوز للغة حية أن تخلو منها، وذلك لاغناء اللغة نفسها ومنحها ما تحتاج إليه من المرونة، ولارضاء الكرامة القومية(٣١) .

٧ - خصـائص الثقافـة المصريـة :

ويحاول طه حسين تشخيص مميزات هذه الثقافة بعد أن يتساءل: هل هناك ثقافة مصرية؟ فيجيب بأنها موجودة بخصالها وأوصافها التي تنفرد بها عن غيرها من الثقافات، وأول هذه الصفات أنها تقوم على وحدتنا الوطنية، وتتصل اتصالاً قوياً عميقاً بنفوسنا المصرية الحديثة، كما تتصل اتصالاً قوياً عميقاً بنفوسنا المصرية القديمة أيضاً، تتصل بوجودنا المصري في حاضره وماضيه.. فليست الثقافة وطنية خالصة ولا انسانية خالصة، ولكنها وطنية وانسانية معاً.

ثم يحلل طه حسين عناصر الثقافة المصرية فيذكر أنها التراث المصري القديم، وهي التراث العربي الاسلامي، وهي ما كسبته وتكسبه كل يوم من خير ما أثمرت الحياة الأوربية الحديثة.. هي هذه العناصر المختلفة المتناقضة فيما بينها تلتقي في مصر فيصفّي بعضها بعضاً ويهذب بعضها بعضاً، وينفي بعضها من بعض ما لا بد من نفيه من الشوائب التي لا تلائم النفس المصرية، ثم يتكون منها هذا المزاج النقي الرائق، الذي يورثه الآباء للأبناء وينقله المعلمون إلى المتعلمين فالعلم لا وطن له، ولكنه إذا استقر في وطن من الأوطان، تأثر باقليمه وبيئته ليستطيع أن يتصل بنفوس ساكنيه[٣٢] .

-٣-

لقد أثار هذا الكتاب خلافاً حول تفسير الآراء التي تضمنها، فكانت ردود فعله متباينة، فاحتفى به دعاة الفكر التحرري (اللبرالي)، والمؤمنين بضرورة اقتباس نظم وأفكار الغرب وحضارته ورأوا فيه حججاً تؤكد صدق دعواهم خاصة وقد استطاع طه حسين أن يستقرئ التاريخ، بمعنى من المعاني، ليثبت أن نهضة مصر وتقدمها أمر مرهون بتوجهها - كما كان في الماضي - نحو أوربا وعالم البحر المتوسط، حيث الحضارة بلغت أرقى صورها، وأصبحت هي النموذج والمثال.

كما رأى فيه بعضهم تطوراً نحو العلمانية في فهم القومية من جانب طه حسين، وأنه حتى لا يتهم بتنكره لهويته المصرية المسلمة، ذهب إلى أن الاسلام من مقومات

الفكر الأوربي، وأن مصر المسلمة تعد أصلاً من أصول الحضارة الأوربية، وأن باستطاعتها أن تقتبس أسس المدنية الأوربية بغير حاجة لاقتباس دينها[٣٣] . كما رأى البعض الآخر في هذا الكتاب آخر صوت في الثقافة العربية يطرح الثقة بالحضارة الأوربية، يدعو إلى قبولها بجرأة وانفتاح قبل أن تقضي «الردة» العربية الاسلامية ضد أوربا على اتجاه التغريب العلماني الصريح[٣٤] .

هذا بينما لقي الكتاب معارضة شديدة من جانب المحافظين ودعاة السلفية، وقد رد عليه الشيخ حسن البنا متسائلاً: إذا كنت تريد تقليد الأوربيين في الدعوة إلى العلم والخلق وإلى النظام، أفترى أن الاسلام لم يأمر بذلك؟ ولماذا تدعونا إلى ذلك باسم أوربا الناشئة المتخطبة ولا تدعونا إليه باسم الاسلام؟[٣٥] وهكذا رأى البنا في الاسلام وتراثه نفس الخصائص والأسس التي اعتمدت عليها أوربا في نهضتها. كما رأى سيد قطب أن طه حسين تجاهل الشرق العربي، وتجاهل الوحدة العقلية بين مصر وبين هذا الشرق العربي الاسلامي، وأنه كان بوسعه أن يقرر أن الحضارة الأوربية ضرورة زمنية لابد منها نتيجة أن أوربا سبقتنا في مدارج الرقي وأن مدنية العالم دواليك وأن أمم الشرق لهذا السبب تأخذ اليوم بحضارة الغرب على اختلاف عقلياتها[٣٦] . لقد اعتبر خصوم الكتاب كذلك أن طه حسين تجاهل العرب كأمة، لأنه نظر إلى المنافع المادية وحدها واعتبرها قوام الدول، وأنه لذلك زعم بأن سبيل نهضة العرب هو أن ينوبوا في الغرب ليصبحوا جزءاً منه[٣٧] .

والذي لم يحفل به نقاد طه حسين، سواء ممن أيدوه أو عارضوه، أنه وهو يستكمل عناصر موضوعه في جرأة بالغة، وحماسة فياضة، كان يردد فكرة الندية لأوربا، والمشاركة في الحضارة الانسانية، خيرها وشرها، حتى وأن كانت هذه الحضارة الانسانية العامة، ترتدي الآن رداء أوربياً وتنطق بحروف لاتينية. كما أكد كذلك على مفهوم الأخذ بأسباب القوة، وبالأسس التي قامت عليها الحضارة، مع تأكيده على الحفاظ على الذات من الفناء وفكرة الخصوصية الثقافية، وأن كانت جزءاً من العمومية الانسانية. فضلاً عن تأكيده فكرة مقاومة أوربا والثبات لها.

وهذه الأفكار في تقديرنا، وأن لم تكن في مجملها جديدة على الفكر العربي، إلا أن

طه حسين نجح في استجماعها في نسيج فكري متكامل، كمشروع للنهضة، على نحو ما صاغه، وأن لم تتوازن وتتعادل فيه علاقات المشروع ببعضها البعض، الاسلام وعلاقته بالمدنية الحديثة - كما كان يسميه محمد عبده - أو الاسلام والغرب الحضاري. فبدا طه حسين كمن يحاول نزع مصر من أمتها العربية الاسلامية، لتوجيه انتمائها وتقدمها وجهه «بحر متوسطية» تلحقها بأوربا وحضارتها، بل لقد أشار اشارة عابرة إلى أن الشرق العربي ذاته له نفس الانتماء ويتجه نفس الوجهة.

وبالرغم من اشارته إلى الهوية والخصوصية الثقافية والشخصية القومية، وضرورة الحفاظ عليها، إلا أن ذلك لم يلق نفس التأكيد والاهتمام بعناصرها وأصولها، على نحو ما فعل بالنسبة لحضارة الغرب، فانشغل بتوجيه الانتماء أكثر من تأكيده على تلك الخصوصية في مواجهة أوربا وظهر تركيزه على فكرة صلات مصر وارتباطها القديم ببلاد اليونان، وتأثيرها فيها وتأثرها بها، ليثبت - تاريخياً - أن هذه الصلات والمؤثرات أثبت وأبقى من صلتها بالعروبة والاسلام، وليبرر دعوته بضرورة استئناف هذه الصلات القديمة، في شكلها الأوربي الجديد، من خلال عامل جغرافي هو البحر المتوسط.

لقد قفز طه حسين فوق عشرة قرون من العروبة والاسلام ليثبت مقولته الجديدة، معطياً العشرة قرون السابقة عليها (عصور اليونان والرومان) اهتماماً كبيراً، يفسره دعوته لتعليم اليونانية واللاتينية، متجاهلاً أن يكون للشرق العربي الاسلامي وجوداً خارج نطاق البحر المتوسط. كما قفز بالمثل على أكثر من قرن ونصف من الزمان الأوربي، كانت نهباً استعمارياً واستغلالاً وفرضاً للتبعية على الشرق القريب والبعيد على السواء فبدا طه حسين مأخوذاً بالجوانب الابداعية والعلمية المنتجة من الحضارة الأوربية، دون تأكيد بنفس القدر، على الجوانب الأخرى، العدوانية بشكل خاص، من تلك الحضارة.

وربما كان من المفيد حقاً أن نفهم من استدلالات طه حسين وأسانيده التاريخية حقيقة هامة مفادها أن الأوربيين ليسوا أرقى وأفضل منا، وإننا لسنا أقل منهم، ومن ثم فإننا ننهض ونتطور بانتهاج أسباب الحضارة التي انتهجوها، وهي أسباب انسانية عامة، وتلك هي سنة التطور.. فهل كان تقرير هذه الحقيقة يقتضي منه المغالاة بالدعوة

لأن نسير سيرة الأوربيين وأن نعيش عشتهم؟

وما أشبه الليلة البارحة! حين أراد طه حسين عام ١٩٢٦ أن يثبت أن الشعر الجاهلي في معظمه مزيف ومنتحل، وقبل أن يشرع في دراسة هذه القضية القديمة بمنهج جديد قدم فروضاً ومقدمات نظرية، صاغها في عبارات لم تضع الدين موضعه من التقديس والاجلال، ما كان أغناه عنها، فما كانت تؤثر بالضرورة في بحثه لو جاء خلواً منها، فلقى ما لقيه من عنت وبلاء واتهام بالكفر والضلال على نحو ما هو معروف في قضية كتابه «في الشعر الجاهلي» فهل كان طه حسين عام ١٩٣٨ بحاجة إلى الدعوة إلى ابتكار فكرة حضارة البحر المتوسط لينادي بالحاق مصر بها، وأن يدعو المصريين إلى أن يعيشوا كما يعيش الأوربيون وأن يسيروا سيرتهم، وهو الذي يعرف الخصوصية ويؤيد الاستقلال والثبات لأوربا؟ وإلا فكيف تستقيم فكرة الحفاظ على الذات والاستقلال وأن نسير سيرة الأوربيين ونسلك طريقهم في غير تردد ولا اضطراب؟ وإذا كان طه حسين قد أراد طمأنة الأوربيين على مصالحهم في مصر بعد توقيع اتفاقية إلغاء الامتيازات عام ١٩٣٧، بأن رفع صوته داعياً لربط مصر بحضارة أوربا من خلال عالم البحر المتوسط، وهذا ما جعله في أكثر من موضع يؤكد بأننا «التزمنا التزاماً صريحاً قاطعاً أمام العالم المتحضر بأننا سنسير سيرة الأوربيين» فهل يمكننا أن نفسر هذه الأفكار بأنها صياغة سياسية فرضتها ظروف مصر بعد توقيع الاتفاقية، على اعتبار أنه لم يهمل حقائق أكثر أهمية في سياق تقريره - تتعلق بالندية والخصوصية الثقافية والمشاركة والأخذ بأسباب الحضارة والتوسل بوسائلها؟

إذا كان الأمر كذلك، فإن طه حسين الذي انبهر كثيراً بالغرب ومناهجه وبدا مستغرباً لم يخرج عن التوفيقية القديمة التي أرساها محمد عبده، والتي حاولت إزالة التناقض، أن لم تقم الجسور بين الاسلام والمدنية الحديثة. وأخيراً فإن القضايا الأخرى، التي أثارها طه حسين والمتعلقة بالتعليم والثقافة، من الملاحظ أنه نجح في تشخصيها، وفي تصوير اضطراب أساليبها في مصر، الأمر الذي يؤثر في عقول الناشئة والشباب، فطالب في غير تردد بأن تتوحد الأساليب وأن تتجدد لتنمية الشعور الوطني، وأهاب بالدولة أن تتحمل مسئولياتها كاملة بالاشراف على جميع مراحل

التعليم العام. وإذا كان قد دعا إلى الزامية التعليم ومجانيته في بعض مراحله الأولى، وأنه عندما تولى وزارة المعارف عام ١٩٥٠ تجاوز دعوته تلك عملياً بجعل التعليم العام مجانياً، فإن ثمة قضايا طرحها طه حسين لم يتجاوزها الزمن، وكأن كلمات وآراء طه حسين بشأنها عام ١٩٣٨ مازالت تصلح لزماننا.

فمازالت قضية مجانية التعليم مطروحة، وكذلك قضية المدارس الخاصة والأجنبية التي تحتاج إلى اشراف الدولة وتوجيهها، ومازالت حركة الترجمة من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية لا تواكب متطلبات العصر ونهضته. وما بقاء هذه المشكلات إلا دليل على اضطرابنا وضعفنا، الأمر الذي يدفعنا من جديد إلى تلمس مستقبل جديد للثقافة.

الهوامش والمراجع

(١) انظر كتاب أحمد علبي : طه حسين رجل وفكر وعصر، دار الآداب بيروت ١٩٨٥، ص ٤٢٥.

(٢) طه حسين : من بعيد، الطبعة التاسعة، بيروت ١٩٨٢، ص ٢٠٦، ٢١٠، ص ٢١٢-٢١٣، ثم كتابه رحلة الربيع والصيف، الطبعة التاسعة، بيروت ١٩٨١، ص ١٠٦-١٠٧.

(٣) محمد محمد حسين : أزمة العصر، ط (٢) بيروت ١٩٧٩، ص ١٢١-١٢٥ ويتهم طه حسين بمنافقة موجة الكتابات الاسلامية بكتابه على هامش السيرة.

(٤) غالي شكري : طه حسين واشكالية النهضة، دراسة بندوة جامعة القاهرة عن طه حسين (نوفمبر ١٩٨٩). ص ٥-٦ (غير منشورة).

(٥) اتحاد الجامعة المصرية واتحاد كلية الحقوق : واجبنا بعد المعاهدة، محاضرة طه حسين بعنوان «واجبنا الأدبي بعد المعاهدة» في ١٩/١٢/١٩٣٦، القاهرة في ١٩٣٧.

(٦) طه حسين : مستقبل الثقافة في مصر، مطبعة المعارف بمصر ١٩٣٨.

(٧) انظر كتاب ألبرت حوراني : الفكر العربي في عصر النهضة، ترجمة كريم عزقول، بيروت ١٩٦٨ ص ٣٩١-٣٩٣.

(٨) مجلة الهلال : ابريل ١٩٣١ ص ٨٢١ وما بعدها، استفتاء حول «حضارتنا القادمة» وراجع كذلك أحمد علبي، المرجع السابق ص ٤٤٦.

(٩) طه حسين : مستقبل الثقافة في مصر ص ١١.

(١٠) المصدر السابق ص ١٣.

(١١) المصدر السابق ص ١٤-١٥.

(١٢) المصدر السابق ص ١٦-١٩.

(١٣) أحمد زكريا الشلق : حزب الأحرار الدستوريين دار المعارف بمصر ١٩٨٢ ص ٥٠٦-٥٠٧

(١٤) سيد قطب : نقد كتاب مستقبل الثقافة في مصر، الدار السعودية للنشر والتوزيع، ط (١) ١٩٦٩، ص ١٢.

(١٥) طه حسين : مستقبل الثقافة في مصر ص ١٩.

(١٦) المصدر السابق، ص ١٤.

(١٧) المصدر السابق، ص ١٩-٢١.

(١٨) المصدر السابق، ص ٢٢-٢٤.

(١٩) المصدر السابق، ص ٢٩-٣٠.

(٢٠) المصدر السابق، ص ٣١.

(٢١) المصدر السابق، ص ٣٤-٣٦.

(٢٢) راجع كتاب الحكومة المصرية : الاتفاق الخاص بإلغاء الامتيازات في مصر، الوثائق الموقعة بمونترو في ٨ مايو ١٩٣٧، بالقاهرة ١٩٣٧.

(٢٣) طه حسين : مستقبل الثقافة في مصر ص ٣٧، ٤١، ٤٣، ٤٤.

(٢٤) المصدر السابق، ص ٤٤ وقد كرر طه حسين كلمة «أوربا وأمركيا» في نفس الصفحة ثلاث مرات.

(٢٥) المصدر السابق، ص ٤٦-٦٠.

(٢٦) المصدر السابق ص ٦٢-٧٧، وقبل ذلك ص ١٩-٢٠ للمقارنة.

(٢٧) المصدر السابق ص ٧٩-٨٠ والهامش الذي أضافه وعلق عليه ص ١١١.

(٢٨) المصدر السابق ص ١٩٤-٢٠٢، ٢٢٣.

(٢٩) المصدر السابق، ص ٢٣٧-٢٤٦.

(٣٠) المصدر السابق، ٣٥٣-٣٥٦.

(٣١) المصدر السابق، ص ٣٦٩-٣٧١.

(٣٢) المصدر السابق ص ٣٩١-٣٩٤.

(٣٢) راجع كتاب نازك سابايارد : الرحالون العرب وحضارة الغرب في النهضة العربية الحديثة، بيروت ١٩٧٩ ص ٢٣٨ وما بعدها، ثم كتاب ألبرت حوراني : الفكر العربي في عصر النهضة ص ٣٩٣ وما بعدها.

(٣٤) محمد جابر الأنصاري : تحولات الفكر والسياسة في الشرق العربي، الكويت ١٩٨٠، ص ٩٤.

(٣٥) عن كتاب أنور الجندي : طه حسين في ميزان الاسلام ط (١) القاهرة ١٩٧٦، ص ٨٥-٨٧.

(٣٦) سيد قطب : المرجع السابق، ص ١٠-١٣، ص ٢٧-٢٨.

(٣٧) محمد محمد حسين : حصوننا مهددة من داخلنا، ط (٦) بيروت ١٩٨١، ص ١٢٢-١٢٣.

الحرب الفارسية البريطانية

١٨٥٦ - ١٨٥٧

الدكتورة فتوح عبد المحسن الخترش
أستاذ مساعد بقسم التاريخ - جامعة الكويت

تمهيـد :

يعتبر القرن التاسع عشر عصر التنافس الاستعماري الأوروبي على السيطرة عبر الأسواق، وظهرت بريطانيا في هذا القرن قوة استعمارية مدت نفوذها إلى أسواق آسيا وبخاصة سوق الصين بعد حرب الأفيون الأولى ١٨٣٩ - ١٨٤٢، كما نجحت من خلال شركة الهند الشرقية إلى إحكام سيطرتها على شبه القارة الهندية، وامتدادا لسياسة البحث عن أسواق جديدة بعد الثورة الصناعية الأولى وإفلاس شركة الهند الشرقية عمدت البرجوازية الصناعية البريطانية الصاعدة، إلى الوصول إلى افغانستان عن طريق البنجاب والسند، ومن أفغانستان تنطلق للسيطرة على فارس وآسيا الوسطى:

تركمانيا، تاجيكستان، قرغيزيا، اوزبكستان، والقسم الجنوبي من كاغزستان.

وعندما نجحت بريطانيا في توطيد نفوذها في منطقة الخليج العربي عملت على منع وصول إلى نفوذ للروس إلى هذه المنطقة من خلال التزامها بخطة الدفاع عن الهند.

وكانت أفغانستان هي الحد الفاصل بين النفوذ البريطاني في الهند والخليج العربي بين التطلعات الروسية إلى هذه المناطق، فلا غرو أن تكون أفغانستان هي نقطة

---

١ - راجع لوريمر: جـ ١، ص ٣٤٩.

الصراع بين القوتين التي كانت تحاول كل منهما السيطرة عليها لاسيما وأن روسيا سعت إلى توطيد علاقاتها مع فارس لتصل إلى احتلال أفغانستان دون إثارة للريبة والشك في محاولاتها هذه.

وكانت هذه المحاولات سببا رئيسيا في إندلاع الحرب الفارسية البريطانية موضوع دراستنا وبخاصة أن السياسة البريطانية ادركت مرامي هذه المحاولات الروسية التي كانت موضوعا أثارته الصحافة البريطانية أنذاك ونددت به في حملة صحفية واسعة شاركها فيها الرحالة والمغامرون الانجليز الذين زاروا بلاد فارس في تلك الفترة. مما شكل عامل ضغط على الحكومة البريطانية وجعلها تسرع في إتخاذ التدابير التي رأتها ضرورية لحماية مصالحها الاستعمارية.

فشلت بريطانيا في إحتلال أفغانستان عسكريا بعد إندحار حملتها العسكرية عليها في الفترة ما بين ١٨٣٨ - ١٨٤٢، كما فشلت في كسب صداقة حاكم اقليم هرات الذي طرد بعثتها الدبلوماسية، لم تكف بريطانيا من محاولات التدخل في المنطقة وسارعت إلى مساندة «حسن خان سالار» الذي أعلن العصيان ضد شاه فارس في أقليم خراسان، ولم يكن أمام روسيا غير مساعدة الشاه للحد من التدخل البريطاني في الاقليم، إلا أن هذا العصيان إنتهى بالفشل بعد أن قضي عليه الشاه في مارس ١٨٥٠ بالقوة العسكرية وأعدم المتمردين ضده[1] .

وشهد أقليم هرات صراعا بين مجموعتين سياسيتين الأولى فارسية والأخرى أفغانية أنتهى بسيطرة الوزير «يار محمد خان» الذي أنتهج سياسة مستقلة بين فارس وبريطانيا التي حالت فعلا دون أحتلال فارس للأقليم.

ولما تولى سعيد محمد بعد وفاة أبيه يار خان ١٨٥١ السلطة في هرات طلب مساعدة بلاد فارس للتغلب على الصراعات الداخلية التي انفجرت في بلاده لقاء اعترافه بالتبعية لفارس.

إلا أن ذلك أغضب بريطانيا[2] التي كانت تطمع في السيطرة على هرات

---

١ - نوري السامرئي: محاولات التوسع البريطاني شمالي الهند في منتصف القرن التاسع عشر - ص ٣.

٢ - المرجع السابق.

وأستخدمت أمير كابل دوست محمد خان في التصدي للسياسة الفارسية وتدخلت بعنف للحد من هذه العلاقات الجديدة بين فارس وهرات، وأجبرت شاه فارس على توقيع معاهدة ١٨٥٢ التي نصت على :

١ – عدم ارسال جيوش فارسية إلى حدود هرات إذا لم تكن مهددة بخطر الهجوم من جيرانها : كابل وقندهار أو من الحكومات الأخرى.

٢ – الكشف عن التدخل في الشئون الداخلية للإمارة والغاء الخطبة وعدم ضرب السكة باسم الشاه الفارسي.

٣ – الغاء مجالات الاعترافات الأخرى بسلطات شاه فارس على هرات[١] .

حـــرب القـــرم :

تدهورت العلاقات الروسية العثمانية بسبب الخلاف حول الوضع القانوني للأماكن المقدسة المسيحية في القدس، خشيت بريطانيا من سيطرة الروس على المضائق (البسفور والدردنيل)، إذا ما نجحوا في خلافهم ضد الدولة العثمانية، وعندما أعلنت الحرب بين روسيا والدولة العثمانية في أكتوبر ١٨٥٣[٢] سارعت بريطانيا ومعها فرنسا للتدخل ضد روسيا ولم يكن التدخل البريطاني في أهدافه بعيدا عن الصراع البريطاني – الفارسي الروسي في أفغانستان وهرات، فقد كان هدف بريطانيا منه التوسع الروسي على حساب الدولة العثمانية انسجاما مع سياستها العامة آنذاك بالحفاظ على «الرجل المريض» وابعاد روسيا عن منطقة القفقاس وسد الطريق أمامها في محاولاتها الوصول إلى آسيا الوسطى لتبقى هذه المنطقة نفوذ تجاري بريطاني بحت.

ومع تطور الوضع العسكري في حرب القرم ضد روسيا بعد هزيمتها أمام الجيش التركي عند أولتينتزا قرب الدانوب في نوفمبر ١٨٥٣ وانسحاب الجيش الروسي عند مدينة سيليستيرا في مارس ١٨٥٤، والبدء في اعداد حملة عسكرية بريطانية فرنسية مشتركة للقضاء على الأسطول الروسي في البحر الأسود في قاعدته سباسبتول[٣] .

---

١ – راجع : نوري السامرائي – وكذلك .syked, vol - 2, pp 349

٢ – Roger parkinson, - Ency of modren wars, p. 48. Routledge & Kegan Paul,1977.

٣ – Roger Parkinson, Opcit, P. 48.

وضع وزير الخارجية البريطاني لورد كلاريندون سياسة بلاده نحو فارس بوضوح كشفتها رسالته الموجهة إلى وزيره المفوض السفير فوق العادة «مري» في البلاط الفارسي بتاريخ ٢٠ من نوفمبر ١٨٥٤، «طالبة فيها بإتخاذ سياسة الحكمة والحذر والثبات، وأبلغه أن فارس قد وضعت حدا لنظرتها التوسعية في أفغانستان وأنها قاومت إغراء العرض الروسي لها بإستغلال الظروف الصعبة التي كانت تعاني منها الدولة العثمانية لتحقيق المطالب «الروسية» في السيطرة على بعض ممتلكاتها، وأصدر كلاريندون تعليماته إلى السفير «مري» بأن عليه اقناع الحكومة الفارسية بأن لا تشارك في دائرة الصراع بأي شكل من الأشكال، وأن عليه «مري» أن يكون على اتصال تام مع حكومة الهند البريطانية وأبلاغها بكل ما يحدث في المنطقة، وطلب منه كذلك العمل على توطيد الصداقة مع حكومة فارس وعدم عمل ما من شأنه الاساءة إلى هذه الصداقة»(١) .

لم تطلع الحكومة الفارسية على وجهة النظر البريطاني هذه إلا في بداية ١٨٥٥ ويبدو أن وزير الخارجية البريطانية لم يكن على دراية برأي الحكومة الفارسية، فلم يوافق الصدر الأعظم الفارسي على وجهة النظر هذه وأراد تحقيق بعض المكاسب من الحرب الروسية التركية لبلاده، ولجأ إلى تحسين علاقاته مع روسيا بعد اقتراب حرب القرم من نهايتها، والتقت السياسة الفارسية مع السياسة الروسية الجديدة التي ارادت التعويض عن خسارتها في حرب القرم بالبحث عن مجالات جديدة لنفوذها تزعج به السياسات البريطانية دون الوصول بهذه السياسات إلى حد الصدام المسلح، وبخاصة أن حرب القرم كان لها آثارها السيئة على المجتمع البريطاني عندما كشفت عن تأخر الآلة العسكرية البريطانية وطرق إمداداتها التي لم تتطور منذ معركة واترلو ضد نابليون ١٨١٥، كما كشفت عن المآسي التي تعرض لها الجنود بسبب الجوع والمرض والبرد الشديد مما جعل فكرة قيام بريطانيا بحرب جديدة أمرا مستبعدا في نظر حكومة فارس والحكومة القيصرية حسب تقديرنا، وجعل شاه فارس يفكر جديا في الاستفادة من التنافس الروسي البريطاني في منطقة أفغانستان وآسيا الوسطى.

---

١ - India Office Records; - L/P & S/5/559, Boards Drafts Of secret, Letter and Despatches to India, Board To Dovernor General, (No. 15981). Lord clarenan To Murray, 20, Nov., 1854.

اتجه شاه فارس نحو روسيا وبدأ ذلك واضحا في أواخر عام ١٨٥٦ للصحافة البريطانية التي وصفته بأنه «تابع حقير لروسيا»[١] .

وصلت مع أوائل ١٨٥٧ مجموعة الضباط الروس المدربين لتدريب الجيش الفارسي بهدف التأثير على أفغانستان التي كان حكامها مازالوا حائرين بين مخاوفهم من الانجليز وبين رغبتهم في التحرر من نفوذهم على حد تعبير لاجوفسكي سفير روسيا في طهران[٢] .

الولايات المتحدة الأمريكية والنزاع البريطاني الفارسي :

خطت بلاد فارس خطوة جديدة في ميدان تنافس القوى الاستعمارية واتجهت نحو الولايات المتحدة الامريكية التي لم تكن نواياها الاستعمارية قد وضحت آنذاك وتقدمت عن طريق القائم بالأعمال الفارسي لدى الباب العالي إلى الولايات المتحدة ببنود معاهدة تجارية مع الولايات المتحدة الأمريكية التي سارعت بالتوقيع عليها في أواخر عام ١٨٥٦ وكان من بنود هذه المعاهدة:

- حماية السفن الحربية الأمريكية للسفن التجارية الفارسية.
- حماية الولايات المتحدة لسواحل بلاد فارس وجزرها إذا تعرضت لأي هجوم من أية دولة.
- تقديم المساعدة البحرية الأمريكية للحكومة الفارسية لمساعدتها في قمع أي تمرد يحدث ضدها في الجزر التي تسيطر عليها كالبحرين وهرمز وقشم[٣] .

يتضح من مجمل المواقف السياسية بعد انتهاء حرب القرم وتوقيع معاهدة الصلح بين الأطراف المتحاربة في فبراير ١٨٥٦، أن الحكم الفارسي رأى الاستفادة من التنافس بين القوى الكبرى في العالم وحاول التقرب من روسيا القيصرية وحقق بعض النتائج، كما نجح في عقد معاهدة تجارية مع الولايات المتحدة، ورفض في الوقت

---

١ – Mikal Valadarsky : Persia and Great powers. pp. 77.

٢ – المصدر السابق : Persia and Great Powers. p. 77.

٣ – Aitchison, C.V. : A Collection of Treaties, Engagements and Sanads Relating to India and Neighbouring Countries. Vol. X Appendix 10, p. 32

نفسه توجهات السياسة البريطانية في المنطقة التي سعت إلى تحييد فارس وبالتالي جعلها منطقة نفوذ لها، وهو أمر لا ينسجم ويرضى السياسة البريطانية الأستعمارية في المنطقة كما لا ينسجم مع السياسة العامة البريطانية الاستعمارية في المنطقة كما لا ينسجم مع السياسة العامة البريطانية في الحفاظ على طرق مواصلاتها مع امبراطوريتها في الهند، لذا بدأت بريطانيا في الأعداد بكل الوسائل لتثني حكومة فارس عن سياستها والتي أنتهت إلى إعلان الحرب البريطانية ضد فارس.

الحرب الفارسية البريطانية :

إضافة إلى ما تقدم من أحداث كانت مقدمة للحرب الفارسية البريطانية يمكننا الحديث عن شخصيات لعبت دورها في هذه الحرب ومن أهمها :

شاه فارس ناصر الدين*[1] الذي كان يحكم بلاد فارس آنذاك، وصدرها الأعظم رئيس الوزراء، والقائم بالأعمال الفارسي في العاصمة العثمانية فاروق خان، وأخيرا الشخصية الغربية ميوزا هاشم خان.

وفي أفغانستان تواجهنا شخصيات مثل يار محمد خان الدي توفى سنة ١٨٥١ وخلفه ولده سيد محمد في هرات، ودرست محمد خان صاحب كابل.

الأهداف البريطانية من وراء الأمور إلى الحرب مع فارس :

عندما نجحت بريطانيا في أخماد الثورة الشعبية في الهند ضدها في الفترة ١٨٤٧ – ١٨٤٩، ووقعت معاهداتها مع فارس في عام ١٨٥٣، وبدأت تضيق بالموقف

---

* ناصر الدين شاه (١٨٤٨ – ١٨٩٦)

قبل موت محمد شاه اعترفت الحكومتان البريطانية والروسية منفصلتين ومجتمعتين بابنه الأكبر ناصر الدين ميرزا كوريث لعرش ايران، ونتيجة لذلك فإنه بعد وفاة الشاه عمل القائم بالأعمال البريطاني والأمير دولجو دوكي الوزير الروسي في طهران معا ليضمنا سلامة خلافة ذلك الأمير الشاب.

وقد دخل ناصر الدين ميرزا طهران في العشرين من أكتوبر ١٨٤٨ وتولى الحكم في منتصف الليل التالي وعمره لا يزيد على ١٧ سنة.

١ – راجع لوريمر: ج ٥، ص ٢٧٢٤ – ٢٧٢٥

الفارسي في بداية ١٨٥٥، توجهت إلى حكومة كابل ونجحت في عقد معاهدة مع حاكمها وقعت في بيشاور في آذار ١٨٥٥، بموجبها :

١ - تتعهد بريطانيا بمساعدة الأمير الأفغاني لتقوية وسائل دفاعاته العسكرية وتقديم المساعدات له.

٢ - التأكيد على حياد أفغانستان[١] .

وفي الفترة نفسها في بداية عام ١٨٥٥ لجأت بريطانيا إلى إثارة فارس لتجد مبررات إعداد الحرب ضدها أو أصبح من مهمات السفير البريطاني في طهران «جارلوس مورسبي» العمل على قطع العلاقات الدبلوماسية بين حكومته وبلاد فارس وبخاصة أن فارس حاولت ضم هرات إليها على عكس ما أتفق عليه في معاهدة ١٨٥٣، عندما سعت إلى الاطاحة بحاكمها وتنصيب محمد يوسف - من أسرة سانوزاي - المتقاعد بتعيين ميرزا هاشم خان الفارسي مراسلا لها في شيراز زيادة على مراسليها المتواجدين في طهران وتبريز وبوشهر[٢] ، إلا أن الطلب البريطاني قوبل بالرفض الفارسي، وتم احتجاز زوجة هاشم خان في البلاط الملكي وبخاصة أنها شقيقة احدى زوجات الشاه، في محاولة للضغط عليه لرفض العرض البريطاني بتعيينه مراسلا.

وهنا ظهر التدخل البريطاني مباشرة وطالب باطلاق سراح زوجة هاشم خان وإلا أغلقت القنصلية البريطانية، وفعلا تم ذلك وغادر القنصل البريطاني بلاد فارس إلى بغداد مما جعل الشاه يرد بعنف على هذا الاجراء ويعلن عدم عودة القنصل مالم تعتذر بريطانيا عن هذا السلوك[٣] .

---

١ - أجيسون - المصدر السابق: ص ٢٣٧.

٢ - راجع لوريمر: جـ ٥، ص ٢٧٤٩ «توجه مري في ٤ اكتوبر من هذا العام بهذا الطلب لرئيس وزراء فارس الصدر الأعظم.

٣ - حول هذا الأمر راجع كيلي: ج ٢ - ص ٩٥ - ٩٧ وكذلك : Sykes: History of Persia, Vol. 2, p. 348
وفي رأينا أن بريطانيا هي التي افتعلت هذه الأزمة - أزمة هاشم خان - لكون هي محور الخلاف، ولتمثل فيما بعد مطلبا قوميا مهما من وجهة النظر الفارسية. وهذا الذي نراه مخالفا تماما لما ذهب إليه كيلي من أن فرصة الانقلاب في هرات كانت توجب على الشاه أن يتخلص في البداية من الوجود البريطاني الممثل في البعثة الدبلوماسية البريطانية في طهران. ولكي تكتمل الصورة نحيل القارئ إلى رواية لوريمر لهذا الحدث: جـ ٥ ص ٢٧٤٩

وتطورت الأمور سواء عن قصد أو غير قصد إلى أكثر من ذلك عندما أقدم دوست محمد خان أمير كابل وأستولى على قندهار، مما أثار مخاوف أمير هرات محمد يوسف ذي الولاء الفارسي، وسارع إلى طلب حماية شاه.

ولعل الشاه، حين وصلت الأحداث إلى هذا البعد الجديد، أحس بأنه من الأفضل ان يهادن الانجليز، فطلب من القائم بالأعمال الفارسي لدى الباب العالي أن يجتمع مع السفير البريطاني هناك اللورد ستراتفورد دي ردكليف ويبحث معه أبعاد تدهور الأوضاع بين الحكومتين وكيفية الوصول إلى حل مقنع ونهائي بين الطرفين، فبعث ستراتفورد لحكومته يطلعها على هذه المحادثات ويطلب منها تزويده بالتعليمات فيما يخص هذا الأمر، فجاءه الرد من وزير خارجية بلاده كلارندون في ١٥ مايو ١٨٥٦ على الوجه التالي: «أن الحكومة البريطانية ليست في عجلة من أمرها لتحسين علاقاتها مع فارس إذ أن ذلك من شأنه أن يقلق الحكومة الفارسية. وعليه فقد طلب منه أن لا يبدي أهتماما بإعادة العلاقات مع فارس، بل يترك انطباعا بأن حكومة لندن لا تهتم بتسوية الأمور مع حكومة طهران».

وأضاف أنه حين تسليم القائم بالأعمال الفارسي رسالة خطية من قبل حكومته فعلية - السفير البريطاني - إبلاغه بشروط بريطانيا لاعادة العلاقات مع فارس، ومن أهم تلك الشروط مايلي :

١ - تطلب بريطانيا كشرط مسبق الانسحاب الفوري للقوات الفارسية من هرات والمناطق المجاورة لها وأن تقوم بلاد فارس بدفع تعويضات عن كافة الأضرار التي لحقت بالمنطقة من جراء وجود تلك القوات.

٢ - أن تعقد بلاد فارس معاهدة مع انجلترا تعلن فارس بموجبها التخلي عن كافة نواياها للتدخل في هرات أو في أي جزء من أفغانستان ، وأن لا تتورط في أي وقت من قبل أية جهة كانت في التدخل بشئون تلك المناطق الداخلية، وأن تعترف بأستقلالها التام، وأن تقبل بتحكيم بريطانيا والتوسط في أية خلافات قد تنشأ بعد ذلك بين بلاد فارس وتلك المناطق.

٣ - أن تقبل بلاد فارس بالتفاوض مع انجلترا وتعقد معها معاهدة جديدة للتجارة

وتحل كافة الأمور التي تستجد بين الحكومتين أو تسمح لبريطانيا بتعيين قناصل لها في أية جهة من بلاد فارس.

٤ – أن تدفع إلى الرعايا البريطانيين كافة الديون المستحقة وأن تجرى التفاهم حول المطالب المتنازع عليها.

٥ – أن تتخذ بلاد فارس بصدد بندر عباس اجراءات من شأنها أن ترضي إمام مسقط صديق بريطانيا.

٦ – أن يقوم الشاه ازاء موقف الصدر الأعظم من الخلافات الأخيرة بين البلدين، بأستبدال ذلك الوزير بشخص آخر يمكنه أن يحل التفاهم والمودة بين بلاد فارس وبريطانيا.

وعندما يقوم الشاه باتخاذ الاجراءات اللازمة لتنفيذ هذه الالتزامات بالنسبة لهرات وأفغانستان وتنسحب كافة القوات الفارسية إلى داخل حدود خراسان ولدي قبول الحكومة البريطانية بما يسفر عنه تنفيذ البند السادس، فإن بقية الشروط يجب تنفيذها خلال ستة شهور من عودة البعثة البريطانية إلى طهران بعد تقديم الاعتذارات الكافية، وأن القوات البريطانية ستنسحب من المناطق الفارسية بعد ستة شهور من عودة البعثة المذكورة إلى طهران. وتحتفظ الحكومة البريطانية لنفسها بحق بتغيير تلك الشروط إذا لم تقبل فورا وبخاصة أن عودة العلاقات الودية مع فارس رهن بأن تدفع بلاد فارس نفقات[١] .

وفي اليوم التالي بعث كلاريندون برسالة أخرى لستراتفورد بين له فيها أن الفرس في عملهم لم يتصرفوا بصدد هرات إلا بتشجيع من روسيا وبالتالي: فإنهم إذا فضلوا أن يناصبونا العداء فهم الخاسرون وأن عليهم أن يعلموا أن استيلاءهم على هرات يعتبر انتهاكا للاتفاقية المعقودة بين حكومتي لندن وطهران، كما أن المادتين الخامسة عشرة والسادسة عشر* من معاهدتهم مع الولايات المتحدة موجهتان ضدنا، وعليه فإن

---

١ – I.O.R. L/P s/559, Board's Drafts of Secret and despatches to India, 1852-1856. Board to Governor-General - in Council, No. 1677, 3. Nov. 1856.

* بخصوص حماية الولايات المتحدة لسواحل فارس وجزرها إذا تعرضت لأي هجوم من أية دولة بتقديم المساعدة البحرية للحكومة الفارسية في الجزر التي تعصيها كالبحرين وهرمز وقشم.

كل هذه الأعمال إنما تعطينا المبرر الكافي لاعلان الحرب عليهم(١) .

وفي غمار هذه المناورات البارعة، برزت أهمية هرات والضيق البريطاني من المعاهدة الفارسية مع الولايات المتحدة ، فيبرق كلاريندون في ٢٤ مايو إلى ستراتفورد لكي يحذر القائم بالأعمال الفارسي لدي الباب العالي من خطورة احتلال فارس لاقليم هرات، ويتم التحذير للقائم بالأعمال وبالكتابة أيضا للصدر الأعظم.

وفي الحقيقة أن موضوع تأمين حدود الامبراطورية البريطانية كان هو الغاية القصوى ووسيلة ذلك هي المغريات التي يضعها الصياد الماهر حول حباله، يدني هذه المغريات حينا ويقصيها حينا، ويلفت وجهه عن الحبالة الرئيسية كأنها لا تعنيه، مع أنها هي في الحقيقة غاية الغايات لأنها التي ستمكنه من الصيد وافرا. من هذه الموضوعات الجانبية في رأينا تعيين هاشم خان مراسلا أخباريا في شيراز، والاعتذار المذل عما لحق مري من اهانات، ونحب أن نتأمل طويلا بهذا الصدد قول بالمرستون لكلارندون – من المهم، بل من الضروري ألا نسمح لفارس بأن تسيطر على هرات فلقد كانت فارس – ولسنوات سابقة – تعد المنطقة العازلة في الدفاع عن حدود الهند ضد روسيا، أما الآن فينبغي أن ننظر إلى فارس على أنها خط الدفاع الأمامي عن روسيا، ولكن أفغانستان قد أصبحت الآن خط الدفاع عن الهند، وعلينا أن نحتل كل الممرات التي يمكن أن تعبر م خلالها الجيوش الغازية كلما لاح خطر(٢) .

وتستمر المفاوضات بين المفاوضين الانجليز والفرس دون الوصول إلى نتائج إيجابية، مما أثار شكوك ومخاوف الحكومة البريطانية فيما ترمي إليه فارس من تصلبها في المفارضات، فوجه كلاريندون إنذاراً للصدر الأعظم بأنه مالم تنسحب القوات الفارسية من هرات فستتخذ الحكومة البريطانية الاجراءات الكفيلة بتحقيق هذا الانسحاب انسجاما مع اهتماماتها ومصالحها الهامة في المنطقة(٣) .

---

١ – Public Records ofice: Fo. 78/1162. Clarendon to Strat ford, No. 491, Conf., May 1956.

٢ – Bodleian Library : Ms. Clar. des P. C. 49. Memo. by Palmerston, 2 Jun 1856.

وكذلك راجع كيلي: جـ ٢ ، ص ١٠٣

٣ – I.O.R. Baord's Drafts: Sec. Desp. to India, Vol. 21, Draft to Governor General in Council 16, July 1856.

غير أن ذلك لم يجد أي صدى لدى الحكومة الفارسية، إذ أنها تجاهلت ذلك، واستمرت سائرة في خططها الرامية للسيطرة على هرات وتعزيز مواقعها هناك.

ويتضح من هذه الطلبات البريطانية أنه رغم رغبة الحكومة البريطانية في التوصل إلى تسوية سلمية مع الحكومة الفارسية، إلا أن روح العنجهية واضحة فيها بشروطها المجحفة والتي توحي وكأنها شروط يفرضها المنتصر.

وعلى ذلك ، فكان من الطبيعي أن ترفض فارس هذه الشروط وذلك بعدم الاجابة عليها، واستمرارها في تعزيز مواقعها في هرات وطلب الشاه المساعدة من روسيا فرد وزير الخارجية الروسي الامير جورتشاكوف بالاعتذار، إذ كان يرى جورتشاكوف أن لا جدوى من الصراع السياسي والاقتصادي مع بريطانيا في أعماق آسيا، غير أنه مالبث أن غير رأيه بصدد هذا الأمر متأثرا بتقرير كان قد كتبه في يناير ١٨٥٦ – الميجر بلارمبيرغ – الذي كان في مهمة خاصة آنذاك في فارس أثناء حرب «القرم» حيث جاء في التقرير أن مستقبل روسيا في أوروبا بل أنه في آسيا إذ أن أزدياد عدد المصانع وتطورها في روسيا يتطلب مناطق تتوفر فيها المواد الخام وتشكل سوقا لمنتجات هذه المصانع وهذا ما يتوفر في آسيا[١] .

هكذا قام وزير الخارجية الروسي بأعادة تقييم الموقف، وأجرى تعديلا على جهاز وزرائه ، فعين المستشرق كوفيلنسكي مديرا لدائرة آسيا فتم أرسال بعثة إلى فارس وأفغانستان للبحث في الأوضاع السياسية والاقتصادية هناك والوقوف على مدي امكانية نشر النفوذ الروسي في تلك الجهات. على أن روسيا أدركت عدم قدرة فارس على الصمود امام القوات البريطانية وتوقعت هزيمتها مما سيؤثر على وضع روسيا في هذه المنطقة، وبذلك فقد أرسل جورتشاكوف مبعوثا لرئيس الوزراء الفارسي ميرزا أغا خان ليؤكد له على ضرورة انسحاب القوات الفارسية غير المشروط من هرات حتى تتجنب فارس المجابهة البريطانية.

وفي الوقت نفسه اقترحت روسيا على بريطانيا أن لا تقوم بحملة على فارس وأن تنسق انجلترا رورسيا إجراءاتهما في فارس كما كان عليه الحال خلال الخمس عشرة

---

١ – Mikhail Volodarsky; - Persia and Grat Powers. p. 75

سنة الماضية وبينت أهمية ذلك في حفظ السلم في فارس[1] غير أن جهود روسيا في هذا المجال ذهبت سدى حيث أن الحرب بين انجلترا وفارس أصبحت واقعة لامحالة. وما أن وصلت أنباء الشروط البريطانية لاعادة بطرسبورغ العلاقات مع فارس حتى أبلغ وزير الخارجية الروسي السفير البريطاني «وود هاوس» أن بلاده تؤيد وجهة النطر البريطانية بشأن الانسحاب الفارسي من هرات ودفع التعويضات عن الخسائر وعودة البعثة البريطانية إلى طهران، مع ترك تنفيذ بقية الشروط لمفاوضات لاحقة[2] . غير أن بريطانيا أصرت على شروطها وباشرت عملياتها الحربية ضد فارس، ونزلت قواتها على رأس الخليج[3]

وعليه فقد أدركت السلطات البريطانية في الهند أن لا جدوى من أسلوب التحذير والتفاوض مع فارس، فباشرت في اعداد حملة عسكرية بالتعاون مع حكومة لندن أخذين بعين الاعتبار التغيرات في ظروف وأوضاع بوشهر وجزيرة خرج.

الحملة الحربية ضد فارس في الخليج :

ومع أن السلطات البريطانية في الهند كانت موافقة على مبدة ارسال الحملة إلا أنها كانت تخالف المسئولين في لندن حول حجم الفاعلية التي تترتب على احتلال خرج وبوشهر فليس هذا الاحتلال عصا سحرية ترهب الفرس إلى الحد الذي تصوره رجال مجلس الوزراء في لندن، هذا إلى جانب مجموعة من الصعاب الكثيرة التي يمكن الاشارة إليها في نقاط سريعة على النحو التالي:

* الحاجة إلى قوات أوروبية، لأن الجندي الهندي ليس على كفاءة الجندي الفارسي، ولهذا نرى أن الحاكم العام للهند كان يعارض بشدة التجنيد المحلي.
* الطبيعة الوعرة لمناطق فارس الداخلية.
* صعوبة توفير المؤن للحملة سواء للبشر أو الدواب.

---

١ – نفس المصدر : ص ٧٥ – ٧٦

٢ – I.O.R. L/P s/5/559. Board's Drafts of secrat Letters & Desp. to India, 1852-1856. Wodehuse, to Clarendon - St Petrsburgh, Tel. 19 Dec. enclosed to Board to Governot - General. in Council. 26 Dec. 1856 (No. 1697).

٣ – دونالد ولبر : إيران ماضيها وحاضرها : ص ٩٩

* صعوبة الجو صيفا وشتاءاً.

* انتشار الأوبئة والأمراض الخطيرة في بوشهر وتبريز، كالتهاب الكبد والحمى والدوسنتاريا.

وأهم من هذه الصعوبات جميعا الاستعداد الفارسي ويتمثل في :

- التحصينات القوية لخرج.

- السخط الشعبي الشديد على الأنجليز في فارس.

ومما يدل على ذلك المذكرة التي بعثها المقيم البريطاني في بوشهر - الكابتن فيلكس جونز لاندرسون في بومباي سبتمبر ١٨٥٦ ردا على رسالته التي بعثها مع الباخرة (فيروز) التي كانت تحمل بعض الضباط من بومباي لبحث موضوع التعزيزات اللازمة للحملة، فبين جونز أن وصول هذه الباخرة قد تسبب في إثارة الذعر والبلبلة في نفوس سكان المنطقة، كما جعل السلطات المدنية والعسكرية في هذه المدينة في حالة عمل دائب في طول البلاد وعرضها، ومما زاد الطين بلة نزول الضباط والموظفين الرسميين من الباخرة بأمتعتهم وحاشيتهم فزاد ذلك من إثارة الرعب والخوف في قلوب السكان ودفع بهم إلى مزيد من الاستعداد للمجابهة. وقد خشى (جونز) على سلامة هؤلاء الضباط وعلى الرعايا البريطانيين نتيجة للشعور العدائي العارم الذي كان يتأجج في نفوس الشعب مما جعله (جونز) ينبههم إلى المخاطر التي قد يواجهونها في مهمتهم في بوشهر وطلب منهم العودة بسرعة إلى الباخرة. والواقع - «انني أعتبر مركزنا في بلاد فارس حرجا وعرضة للخطر حيث أنه اذا ما اشتعل التعصب الديني والقومي هنا فلا يستطيع أحد التكهن بالنتائج». وطلب في رسالته أيضا إيجاد السبيل للخروج من بوشهر قبل أن يسبق السيف العذل(١) .

وهكذا، يتضح لنا أن العداء لبريطانيا لم يكن آنذاك قاصرا على حكومة فارس، بل أنه انتقل كذلك إلى شعبها أيضا الذي بدأت بوادر النزعة القومية تظهر في أوساطه وما رافقها من احساس بالخطر الذي يتهدد هذه القومية من دولة أجنبية، ولا نستبعد

---

١ - I.O.R. L/P s/5/489. Enclosures to secret Letters from Bombay Felx Jones, Resident, Bushire to H.S. Anderson, Bombay, No. 22. 29 Sept. 1856.

أن تكون هناك دوافع دينية أيضا، أدت إلى عداء الشعب الفارسي لبريطانيا كما ادعى جونز، وأن كانت هذه الدوافع ليست الأساس في تحريك مشاعر الشعب بل الأساس هو الاحساس بالخطر الذي كان يتهدد البلاد، وبالتالي دخل الدين كعنصر فعال إلى جانب المشاعر القومية في تأليب الجماهيز الفارسية ضد الأطماع الانجليزية.

والواقع أن جونز جريا على عادة الساسة البريطانيين في طمس الحقائق لم يعط تحليلا حقيقيا لأسباب ثورة الشعب الفارسي ضد بريطانيا، بل اكتفى بالقول بأن روح العداء للمسيحيين باتت واضحة في فارس مصورا بذلك النزاع وكأنه نزاع ديني، وينسى أو تناسى أطماع بلاده في هذه المنطقة والمحاولات البريطانية للقضاء على تحررها واستقلالها حتى تبقى ركيزة لها، لا تقوى على تصريف أمورها، الداخلية والخارجية بل يكون لبريطانيا السلطة في كل ذلك، تسيرها وفق مصالحها وبما يخدم أغراضها.

وعلى أية حال أخذ الطرفان البريطاني والفارسي يستعدان للمجابهة ومن هذا المنطلق أدركت الحكومة الفارسية أهمية بناء علاقات حسنة مع قوى أوروبية أخرى، حتى يمكن لهذه القوى أن تلعب دورا مؤثرا في الوقوف أمام بريطانيا وثنيها عن محاربة فارس.

أما بالنسبة للجانب البريطاني، فرغم أن الحملة كانت جاهزة منذ خريف ١٨٥٦، غير أن موضوع وتحرك الحملة كان موضعا لكثير من الجدل في لندن، وقد حاول مجلس الوزراء حسم الموقف في الأسبوع الأخير من سبتمبر حيث خرج بقرارات صدرت على أثرها تعليمات إلى الحاكم العام للهند بأن الخطة جاهزة للتحرك في أية لحظة للخليج، وتعليمات أخرى صدرت للقناصل البريطانيين في طهران وتبريز بالعودة إلى لندن فورا(١) .

ومما يستلفت النظر ان اعلان الحرب لم يصدر آنذاك، إذ أن كلا من بالمرستون وكلاريندون - كانا يتهيبان اتخاذ هذا القرار قبل موافقة البرلمان. غير أن ذلك لم يجعل الحكومة البريطانية تتوقف وتنتظر هذه الموافقة خشية أن يبدو عليها التراجع ، مما

---

١ - L/P s/5/353. Secret Letters from Bombay Governor of Bombay to Secret Comittee, (No. 83) – 3 No. 1856.

يدعم موقف الحكومة الفارسية، بل أخذت تناور، فأرسلت للحكومة تخبرها بأن الحملة البريطانية على وشك التحرك، وذلك في محاولة لبث الرعب في نفوس الفرس عله يعمل على تثبيط همتهم وزعزعة تصميمهم على الاستقرار في احتلال هرات.

وهكذا لم يستمر التردد طويلا في لندن حيث صدر اعلان الحرب في ٢٥ أكتوبر ولكن تأخر تحرك الحملة قليلا إلى اليوم الأول من نوفمبر كرد على هجوم الفرس على هرات وأنتهاك معاهدة يناير ١٨٥٣. وأخذت الاجراءات اللازمة لمغادرة السفن الفارسية موانيء الهند البريطانية، وضمان سلامة الرعايا الفرس المقيمين في الهند[١] .

خرجت الحملة في ٤٥ سفينة من موانيء أربعة في الهند: كراتشي وفنجويلا وبور بندر وبومباي، وكان بندر عباس هو المكان المختار لتجمع القوات، وكانت التعليمات - كما سلف بيانه تقضي بأن تستولى الحملة على منطقتين: جزيرة خرج، وبوشهر، بحيث تكون بوشهر قاعدة تنطلق منها العمليات إلى داخل فارس. وتم احتلال خرج في ٤ ديسمبر ١٨٥٦، ثم نزلت القوات حسب الخطة المرسومة - في شبه الجزيرة التي تطل عليها بوشهر، وبعد قتال باسل من القوات الفارسية سقطت ريشهر (ولكن بثمن باهظ) على حد تعبير كيلي[٢] . في التاسع من ديسمبر، ثم حوصرت بوشهر من جميع الجهات، وبعد قتال تساقطت فيه أعداد كبيرة من الفرس دفع حاكم بوشهر علم الاستسلام وبذلك تم الاستلاء عليها في ١٠ من ديسمبر.

وفي هذه الأثناء أوكلت قيادة الحملة إلى قائد جديد (الماجور جنرال - السير جيمس أوترام) وقد زود بصلاحيات مطلقة للتفاوض مع الفرس. وقد نصحوه بأن سياسة التخويف هي الأنجح مع الفرس. فإذا أحس منهم مماطلة في تنفيذ الشروط فعليه أن يحتل المحمرة تمهيدا لعمليات داخل فارس[٣] .

وقبل أن يغادر (أوترام) انجلترا طلب تزويده بمزيد من القوات تتجمع في بومباي قبل وصوله إليها في ٢٢ ديسمبر مما أدى إلى تحركات كثيرة من مواطن كثيرة

---

١ - المرجع السابق.

٢ - راجع كيلي : جـ ٢ ، ص ١١٥ - ١١٧.

٣ - راجع : Sykes : pp 350 - 351.

بالولايات الهندية[1] . ثم غادر أوترام بومباي إلى الخليج في ١٥ يناير ١٨٥٧، وأبحرت كل الامدادات العسكرية قبله ليصلها في ٢٧ يناير.

وقبل وصوله إلى بوشهر كانت كل القوات البريطانية تمارس نشاطها في المنطقة وخاصة النشاط الذي كان يجري في الخفاء وهو استغلال جميع القوى الفارسية التي لم تكن على وفاق تام مع الشاه، أو لم تكن قبضة الشاه عليها قوية بالقدر الكافي، ومنها قبائل تنجستان وقبائل بندر ديلام وقبائل خوزستان، وأهم من هذه القبائل جميعا تلك القبائل التي كانت تسكن الضفة الفارسية لشط العرب من البختيارية وبني كعب.

ويتم استمالة هذة القبائل لتقف على الحياد إذا هي لم تناوئ الشاه على الرغم من معارضة بعض الاطراف، لأن لب السياسة البريطانية رغم الصراع مع فارس كان يقتضي الحفاظ على كيان فارس، إذ لم تكن الحكومة البريطانية ترغب في تقويض نفوذ الشاه أو النيل من سلطانه على المقاطعات الجنوبية من فارس[2] تمشيا مع السياسة البريطانية القائمة على وحدة فارس، وعدم تجزئتها مع الأطماع الروسية. كما أن موضوع الحصول على عفو الشاه عن هذه المقاطعات التي تكون قد وقفت إلى جانب بريطانيا لن يكون سهلا، ويكفي أن تبذل بريطانيا الجهد في هذا السبيل من أجل المقاطعات التي تكون مجبرة ومضطرة إلى الوقوف لجانب القوات البريطانية. خاصة وأن بريطانيا كانت تخشى ما قد يؤدي إليه ذلك من تدخل روسيا في هذه الجهات[3] .

أما بالنسبة لوضع أوترام في الخلية فهو لم يضيع الوقت بل تحرك بقواته بعد أسبوع واحد من وصوله إلى بوشهر، ليهاجم القوات الفارسية المتمركزة في برازجون

---

١ - يذكر لوريمر : جـ ٥، ص ٢٧٥٨ :

«وكان من الواضح أن الممثلين السياسيين من الخليج قدموا المنح إلى زعماء أقاليم الساحل الايراني على شريطة مساعدتهم للانجليز في فترة الحرب ومن أهم زعمائهم باقر خان زعيم تانجستان، وشيخ شاه كوتاه، والرق وديلام، وبالرغم من ذلك إلا أن تعليمات أوترام تتوخى الحرص فيما يختص بالتعامل مع الايرانيين، وهي عدم السماح بأية محاولة لاعلان الثورة على الشاه أو قلب نظام الحكم».

٢ - ذكر كيلي هذه التحركات شبه مفصلة : جـ ٢، ١٣٢ - ١٣٣.

٣ - P.R.O. F.O. 60/226. Minte, by Governor General of India, 21 March 1857.

وذلك في (٣ من فبراير ١٨٥٧)، وكانت هذه القوات قد انسحبت قبل وصوله ولكن قوة فارسية من الفرسان هاجمت الجيش الغازي في الليل (٥ من فبراير). وكانت هناك قوة أخرى معدة لتهاجم مؤخرة هذا الجيش، ولكن الدائرة كانت على هاتين القوتين، وعاد أوترام إلى بوشهر (٧ فبراير) بعد أن اطمأن على تأمين قاعدته في بوشهر.

وكان الجانب الفارسي يعمل على قدم وساق، وقد عزز قواته في كل مكان، ولكن أقوى استحكاماته كانت في المحمرة وشستر وكرمنشاه، وفي مواجهة المكائد البريطانية التي كانت تعمل على تفكيك الجبهة الفارسية لجأ الشاه في الأسبوع الثاني من يناير إلى توحيد هذه الجبهة بالدعوة إلى الجهاد الديني ضد الغزاة الصليبيين من النصارى، «الدين دنسوا الأراضي الهندية وهم اليوم يريدون احتلال الأراضي المسلمة في فارس. لقد أذاقوا مسلمي الهند الويلات، وصادروا المصاحف وكتب الحديث النبوي، وأرغموا المسلمات على طرح الحجاب، ومنعوا المسلمين من الاختتان وهذا هو المصير الذي ينتظر المسلمين في فارس».

ولكن ميزان القوة كان بجانب البريطانيين، فأستعد أوترام للهجوم على المحمرة مركز التجمعات الفارسية، ليتقدم منها نحو خوزستان، وبالفعل أبحر في ١٨ من مارس من بوشهر، بعد قتال مرير وغير متكافيء تم الاستيلاء على المحمرة في ٢٦ من مارس.

المفاوضات أو معاهدة باريس في ٤ مارس :

وبينما كانت التحركات الحربية لا تهدأ على الجانبين، كانت هناك التحركات (السلمية) ففي بداية فبراير ١٨٥٧ (بان الالتحام في برازجون وما تبعه) أرسلت حكومة فارس مندوبا وهو فاروق خان إلى باريس لاجراء المفاوضات مع السفير البريطاني هناك اللورد كاولي[1] وقد أوضع في هذه المرة أن لديه الصلاحية في التفاوض حول جميع المسائل والمشكلات، إلا مسألة أقالة الصدر الأعظم مؤكدا على أن أي أتصال بين الصدر الأعظم ومري سيتولاه الشاه بنفسه حيث أن موافقته على هذا الطلب البريطاني من شأنها أن تفسح المجال أمام روسيا لتطالب بالمثل مما يعني ضياع أستقلال البلاد. وأهم هذه المسائل ما يتعلق بالجلاء عن هراة وأن تحل جميع

---

١ - راجع كيلي : جـ ٢ ، ص ١٣٦.

المنازعات الفارسية الأفغانية عن طريق الوساطة البريطانية، ومسألة تعيين القناصل البريطانيين في فارس. حيث توجد قنصليات روسية، والتساهل في تأجير بندر عباس لمسقط[١] وقد رحبت الحكومة البريطانية بهذه المبادرة، وعجلت في دراستها، ولم يكن ذلك بسبب الأحوال في فارس، بل تدخلت قوى أخرى - أهملها حدوث ثورة في الهند كانت تتطلب عودة القوات البريطانية التي تعمل في فارس، إضافة لصراعات حزبية داخل البرلمان الانجليزي بسبب حادث كانتون في الصين.

لقد أعد كل من بالمرستون وكلارندون ورقة بالشروط من وجهة نظرهما، كما أعد مري مسودة أحيلت إلى جوستن شيل*[٢] ليبدي ملاحظاته عليها. وبعد دراسات طويلة ومحاورات أقر مجلس الوزراء في الأسبوع الثالث من يناير ١٨٥٧ مقدمات التسوية. ولم تكن الشروط من وجهة النظر البريطانية هي محل الدراسة وحدها، بل جرى أيضا التساؤل فيه حول المكان الذي تجري المفاوضات في لندن حيث يخشى أستغلال الأحزاب لوجود فاروق خان فيها، وبخاصة أن حرب فارس لم تكن تلقى تأييدا شعبيا في الأوساط اللندنية، أم في باريس حيث يخشى تأثير فرنسا والسفير الروسي؟ ومع كل فقد كانت باريس هي الأفضل.

وعلى هذا الأساس بعث كلاريندون إلى كاولي معربا عن أمل حكومة لندن في إمكانية التوصل إلى إقامة علاقات ودية بين بريطانيا وفارس على ضوء ما جرى من مفاوضات بين كاولي وفاروق خان. وفي هذا الصدد أرفق له صيغة اتفاقية سلام مكونة من أثنى عشر شرطا مبينا له أنه يمكن لفاروق خان أن يبادر إلي التفاوض بشأنها والتوقيع عليها في لندن، وفي الوقت نفسه طلب إلى كاولي أن يقنع فاروق خان بصيغة الاتفاقية هذه مبينا له أن شروطها معتدلة، وإذا ما رفض - فاروق خان - هذه الشروط

---

١ - توجه فاروق خان بتحريض من السفير الفرنسي في الأستانة إلى فرنسا وعرض الخلافات البريطانية الفارسية على نابليون الثالث، كما سرت اشاعة بأنه إذا احتلت جزءا من الجنوب الفارسي فإن روسيا ستحتل استراباد وساحل قزوين المحاذي لها، وإن كان قد تبين للانجليز فيما بعد أن هذه مجرد اشاعة اطلقها الفرس.

راجع كيلي : جـ ٢ ، ص ١٢٨ - ١٢٩.

٢ - Bodl. Libr., clarendon Papers, Vol. 73. Clarendon, Paris, 1, Feb., 1857.

* كان جوستن شيل يعمل من قبل وزيرا مفوضا في طهران، ومن ثم فقد كان لخبرته بفارس وزنها.

فإن الحكومة البريطانية تحتفظ لنفسها بحق الاصرار على الشروط الأخرى التي سيجري وضعها لاحقا في لندن، والتي لن تكون في صالح بلاد فارس مثلما هي عليه في هذه الاتفاقية.

وأضاف كلاريندون موصيا كاولي بأن يقنع فاروق خان بأن الاقتراح المتعلق بتأجير جزيرة خرج للحكومة البريطانية ليس الهدف منه مضايقة فارس أو أنه يحط من كرامة الشاه، أو يؤثر على وحدة أراضي فارس بل بالعكس فإن ذلك يعني أن الطرفين لهما مصالح مشتركة في وقف أعمال القرصنة وتجارة الرقيق وأن أحد الطرفين فقط وهو بريطانيا لديها الوسائل المادية للقيام بهذا العمل.

كما أقترح أن يشارك الطرف الآخر وهو فارس - بما تستطيع في سبيل الهدف المشترك وذلك عن طريق منح التسهيلات لبريطانيا للقيام بالمهمة واعطائها مكانا أو محطة لرسو سفنها واراحة بحارتها وتزويدها بالمؤن والوقود اللازمين(١) .

ويتضح لنا من هذه الرسالة أسلوب رجال الساسة البريطانيين في التعامل مع فارس بأسلوب (لا يجوع الذئب ولا يفني الغنم) حيث أنها لم تكن تريد لفارس أن تنهار وفي الوقت نفسه لا تريد أن تفقد نفوذها في هذه المنطقة فلجأت إلى أسلوب الترغيب والترهيب حين يوحي كلاريندون بأنه مالم توافق فارس على صيغة المعاهدة التي اعتبرتها بريطانيا معتدلة، فإنها ستفرض اتفاقية بشروط أقسى بعد، موحيا بطبيعة الحال بأن القوة هي التي ستفرض مثل تلك الاتفاقية.

ومما يستلفت النظر أيضا ما لجأت إليه بريطانيا للسيطرة على جزيرة خرج ذات الموقع الاستراتيجي، تحت ستار التسهيلات لتحقيق هدف مشترك يتصف بالطابع الانساني وهو محاربة القرصنة وتجارة الرقيق، وذلك جريا على عادتها في تبرير وصولها إلى أهدافها الرامية إلى السيطرة وتوطيد النفوذ.

وعلى أية حال، فإن فاروق خان أخذ يتراجع عن موقفه السابق، وبدأ في التشدد بعض الشيء أمام المفاوض البريطاني، حيث تبين له أن بلاده ليست على أستعداد للدخول في تسوية سلمية مع بريطانيا، مالم تتعهد الحكومة البريطانية كتابة بأن لا

---

١ - راجع كيلي : جـ ٢ ، ص ١٤٨.

تعمل بريطانيا مستقبلا على توحيد الولايات الافغانية بما فيها هرات في مملكة واحدة، حيث أن قيام هذه المملكة من شأنه أن يهدد فارس، كما وأبدى مخاوفه من بقاء القوات البريطانية في فارس طيلة المفاوضات بين البلدين لعقد اتفاقية السلام، وأما بالنسبة للاتفاقية التجارية فقد عرض تجديد الاتفاقية القديمة فقط دون عقد إتفاقية جديدة[١] .

هذا وقد ساد الاعتقاد في بريطانيا بأن فرنسا وراء التغير الذي طرأ على موقف المفاوض الفارسي، من خلال تشجيعها له من وراء الستار على الوقوف بصلابة أمام المفاوض البريطاني، أذ أن وزير الخارجية الفرنسي لم يترك فرصة إلا وأنتهزها لمناقشة الأمر مع كاولي، مما أوحي لبريطانيا بأهتمام فرنسا بهذا الموضوع، غير أن هذه النظرة تغيرت، حيث أعتبرت الحكومة البريطانية موقف فرنسا وديا، واشاد كلاريندون بموقف الامبراطور الفرنسي ووزير خارجيته[٢] .

والواقع لا يمكننا أن نستعبد الدور الفرنسي في هذا المجال نظرا للتنافس الاستعماري بين فرنسا وبريطانيا، إذ لابد أن يكون موقف فرنسا صلبا مع فارس حتى لا تحصل بريطانيا على كافة مطالبها، بشأن الحرب الفارسية البريطانية وما كان يواجهه بعض الأعضاء من نقد لبالمرستون لاعلانه الحرب دون دعوة البرلمان لتقرير ذلك، فالحرب لم تكن تلقى تأييدا شعبيا في لندن على الأقل في الوقت الذي كانت تعارض فيه شركة الهند الحرب بسبب النفقات التي ألقيت على كاهل حكومة الهند لا على الحكومة البريطانية. وقد أستغل خصوم الحكومة السياسيون هذه الحرب إلى أقصى حد وبخاصة فيما يتعلق بالناحية الدستورية وشن أحد النواب هجوماً عنيفاً على الحكومة بهذا الصدد وصرح في البرلمان بأن من الأفضل لها أن يلجأ إلى الوساطة لا أن تشن الحرب، خاصة وأن مسلكها كان ينطوي على مخالفة لمبدأ دستوري أساسي : فالحكومة لم تعلن الحرب واكتشفت بالاعلان الذي أصدره الحاكم العام في الهند، في حين أن إعلان الحرب كان لابد أن يصدر عن الملكة.

وطالما أن ذلك لم يحدث فإن النائب أشار إلى أن على الحكومة أن تدعو مجلس العموم إلى الانعقاد. كما أشار إلى أن الحكومة التي شنت الحرب شاركت حكومة

---

١ - Bodl. Libr; - Ms. Clar. dep. c. 27. Clarndon to Cowlery. 6 Feb. 1857. (No. 184).

٢ - Bodl. Lib; - Clarendon papers, Vol. 73. Cowley to Clarendon, Paris. 16 Feb. 1857.

الهند في دفع نفقات الحملة دون أن تكون الحرب متعلقة بالهند التي لا يجب أن تتحمل نفقاتها التي تقع مسئوليتها على البرلمان.

وقد انتقد نائب آخر موقف الحكومة وطالب بإدخال تعديل على القرار الخاص بلومها على تصرفها في هذا الموضوع. وأضاف خصوم الحكومة إلى قائمة نقدهم حادث كانتون* الذي أدى إلى إندلاع الحرب بين بريطانيا والصين(١) .

و قد أدى النقد الذي واجهته الحكومة البريطانية بسبب حربها مع فارس إلى تعزيز الموقف التفاوضي لحكومة طهران. ومهما كان الأمر، فإن بالمرستون اضطر إلى التراجعْ عن موقفه المتشدد أمام النقد الحاد الذي وجه له في البرلمان رغم عدم قناعته

---

* حادثة كانتون :

ترجع هذه الحادثة إلى القرن التاسع عشر حيث بدأ الصراع بين بريطانيا والصين على تجارة الأفيون، حيث انتشرت تلك التجارة هناك فأرادت الحكومة الصينية أن تمنع تلك التجارة بل تقضي عليها فأصدرت أوامرها للتجار الانجليز بتسليم ماليديهم من صناديق الأفيون وعددها (٢٠,٠٠٠ صندوق) واستولت عليها وأحرقت بأحتفال عام، وأخذت من التجار تعهد بعدم المواصلة بتلك التجارة الناقضة لقوانين الامبراطورية وسارت الأمور كما يرام لكن عاد التوتر من جديد حين قتل أحد المواطنين الصينيين من قبل جماعة من البحارة الانجليز، فثار أمير البحر ونائب الأمبراطور «لن توهسو» وطلب من المشرف البريطاني على التجار بتسليم المجرم إلا أن المشرف رفض تسليم المجرم، فأصدر «لن» أمرا قاطعا بتسليم المجرم وخير السفن البريطانية الراسية عند مدخل النهر بين الرحيل أو الدخول فيه مدي ثلاثة أيام، وأتبع أمير البحر الأعلى انذاره بحشد السفن الحربية. فكانت النتيجة أن «اللورد بالمرستون» وزير الخارجية أعلن أن الصين قبضت على تجار بريطانيين وليس على أفيون، وأرسل الأسطول في نوفمبر ١٨٣٩ ، ليعالج السخط الذي عم وهكذا اشتعلت الحرب، «حرب الأفيون الأولى» وتفاصيل تلك الحرب لا تهمنا في هذا المقام، ولكن يهمنا موقف الحكومة البريطانية تجاه هذا الموقف، فقد طالبت بالتعويض عن الأفيون المستولى عليه، طالبوا بالحصول على امتيازات جمركية وفتح عدة موانيء للتجار والقناصل الانجليز وبالأخص الاستيلاء على جزيرة يستطيع الانجليز ممارسة نشاطهم فيها في ظل القوانين البريطانية.

فاحتلت القوات البريطانية شنغهاي ١٨٤٢، وأخترقت الخط المركزي العظيم لحياة الصين: وهو نصريا، ثم أتخذت الأهبة للقيام بهجوم على مدينة نانكنج العظيمة وهناك عقدت معاهدة نانكنج (٢٩ أغسطس ١٨٤٢).

* آسيا والسيطرة الغربية، ١٣٢ – ١٣٥.

بانيكار (ك. م).

ترجمة : عبدالعزيز توفيق جاويد.

١- Bodl. Lib., U Vol. 138. Clrendon to Woodehouse, 25 Geb. 1857.

بصواب هذا النقد حيث كتب لكلارنيدون مبينا أن هؤلاء الذين يوجهون له النقد واللوم بسبب الحرب مع فارس لا يدركون مدى أهمية القضايا المتنارع عليها، حيث أن بريطانيا بدأت بالدفاع عن أولى الخنادق المحيطة بالهند والمواجهة لروسيا، إذ أن ما يثيره المفاوض الفارسي من مشاكل حول أفغانستان إنما يأتي بتشجيع ودفع من روسيا، مما يجعل من الضروري أن تحتفظ بريطانيا بموقفها من هذا الموضوع، وبالتالي فلابد أن تتمسك بما يلي:-

١ - ضرورة تخلي الفرس عن كافة مطالبهم تجاه هرات، وعن أية مطامع أو نوايا مستقبلية لغزوها.

٢ - الأعتراف باستقلال هرات، وإذا ما طالب الفرس بأن تبادر بريطانيا من جانبها بهذا الاعتراف، فعندئذ ممكن التغاضي عن هذا المطلب والاكتفاء بالشرط الأول.

٣ - رفض بحث علاقات بريطانيا مع أفغانستان لدى أي تفاوض مع الفرس.

٤ - تتولى بريطانيا الوساطة في حالة وقوع أي خلاف بين فارس وأية ولاية أفغانية بما في ذلك هرات، ويمكن أن تعد بريطانيا باستعمال وساطتها لتسوية مثل هذه المنازعات بما يكفل العدالة لكلا الطرفين[١] .

هذا وقد أجتمع مجلس الوزراء البريطاني، وبحث توصيات بلمرستون هذه وأقرها، ومن ثم صدرت تعليمات لكاولي بأن يتقيد بها. غير أن ذلك لم يفلح في كسر الجمود الذي ساد المفاوضات، إذ بقي فاروق خان مصرا على أنه لا يستطيع الموافقة على أي من المقترحات البريطانية مالم تتعهد بريطانيا بأن لا يتم توحيد الولايات الأفغانية بالمستقبل.

ولقد بات واضحا دور روسيا في هذا الموقف الفارسي، حيث أن أهتمام الدبلوماسية الروسية كان مركزا على منع اتفاقية السلام الفارسية البريطانية من التاثير على المصالح الروسية، إذ راح الدبلوماسيون الروس يرقبون بحرص محادثات السلام، وعلى ذلك، فإن السفير الروسي في باريس كسليف (C. Kiselov) بقي على اتصال مع فاروق خان. ولقد انزعجت روسيا بصورة خاصة من مطالب بريطانيا

١ - راجع كيلي : جـ ٢، ص ١٤٩ - ١٥٠.

الخاصة بإقامة قنصليات لها في المناطق الشمالية من فارس، فكتب جورتشاكوف للمبعوث الروسي في طهران لجوفسكي Lagovskii قائلاً : «..من المهم جدا لنا منع قيام قنصليات بريطانية على شواطيء بحر قزوين، فالمشكلة الأساسية تكمن في أنه يجب أن لا تكون لبريطانيا أية قنصلية على شواطيء بحر قزوين بأي حال من الأحوال»(١) .

كما أن وزير الخارجية الروسي أعرب للورد وود هاوس Lord Woodhouse السفير البريطاني في بطرسبورغ عن استياء حكومته للمطالب البريطانية بشأن إقامة القنصليات في المناطق الشمالية من فارس، مبينا له أنه مالم تتخلي بريطانيا عن مطالبها بهذا الشأن، فإن حكومته ستباشر نفوذها لتحول دون موافقة حكومة طهران على الاتفاقية الانجليزية الفارسية المقترحة(٢) .

وقد أطلع السفير البريطاني وزير خارجية بلاده على الموقف الروسي الذي أثار الغضب في الأوساط البريطانية التي اعتبرته موقفا عدائيا، مقللة من قدرة روسيا على الوقوف أمام مصالح بريطانيا، إذ أن كلاريندون قال: (ان جورتشاكوف قد يحرق أصابعه إذا لم يحترس)(٣) .

ويبدو أن كلاريندون في لجوئه إلى هذا الأسلوب في التهديد إنما كان يرمي إلى شن حرب نفسية على نظيره الروسي، إذ أن حقيقة الأمر كانت غير ذلك فالحكومة البريطانية كانت تخشى أن تجرها الحرب مع فارس إلى حرب مع روسيا من شأنها أن تهدد الوجود الأنجليزي في الهند، وهذا ما كان يراه كلاريندون نفسه، وبالتالي فقد عملت بريطانيا جاهدة على تجنب الاحتكاك بروسيا.

معاهدة الصلح الفارسية البريطانية :

رأينا كيف أن المفاوض الفارسي قد عمل على استغلال موقف كل من روسيا وفرنسا القائم على التنافس مع بريطانيا، وهذا ما جعله يتشدد في المرحلة الثانية من المفاوضات مع السفير البريطاني في باريس. غير أن فرنسا لم تستمر طويلا في دورها

---

١ - Bodl. Lib.; - Mis Clar. dep. C. 691. Palmerston to Clarendon. 17 Fe, 1857.

٢ - Mikal Vala Claisky; p. 76.

٣ - Loc-Cit

التحريضي للمفاوض الفارسي، خشية أن يثير ذلك بريطانيا ويسيئ لعلاقاتها الودية آنذاك بفرنسا، وبدأ هذا التراجع الفرنسي واضحا في إشادة كلاريندون بالموقف الفرنسي.

على أن ما تجدر الاشارة إليه أن الموقف الفرنسي هذا قد أثر في المفاوض الفارسي عندما شعر لدى آخر مقابلة له مع وزير الخارجية الفرنسي في أواخر فبراير ١٨٥٧ بفتور الدعم الفرنسي. عندئذ أدرك فاروق خان أن لا أمل من الاستمرار في التشدد مع مسار المفاوضات مع بريطانيا، مما جعله يرضخ للمطالب البريطانية ويعمل على إيجاد تسوية سلمية مع بريطانيا. وعلى ذلك وقع فاروق خان بالأحرف الأولى في ٤ مارس ١٨٥٧ في بازيس على معاهدة جاء فيها أن على فارس أن تجلو عن أفغانستان وتعترف باستقلالها(١) وأن تحيل أية منازعات مع الأفغانيين إلى الوساطة البريطانية. وهناك مادة بشأن ضرورة الاستقبال الودي للبعثة البريطانية لدى عودتها إلى فارس، وكذلك مادة جددت إتفاقية عام ١٨٥١ الخاصة بمنع تجارة الرقيق(٢) .

على أن اللورد كيرزون (Lord Curzon) اعتبر شروط هذه المعاهدة في صالح فارس، وقال أن ذلك يدلل على التسامح البريطاني، وينفي وجود أطماع بريطانية في التوسع، مقارنا هذا الموقف بموقف روسيا التي أتهمها بأن لها أطماعا توسعية متخذا من شمال فارس مثالا على ذلك، ويستطرد كيرزون في الاشادة بسياسة بلاده، متخذا من موافقتها على الانسحاب من بوشهر دليلا على ما ذهب إليه(٣) .

ومما لاشك فيه أن اللورد كيرزون يعمد إلى المغالطة، جريا على عادته بصفته من أكبر دعاة الأستعمار البريطاني من حيث تجميل الثوب الاستعماري. إذ لم تكن موافقة بريطانيا على الانسحاب من بوشهر وغيرها من الأراضي الفارسية، مرتبطة بحسن نواياها وتسامحها، بل أن الظروف الدولية والداخلية في لندن هي التي أملت عليها هذه السياسة، فروسيا كانت تقف لها بالمرصاد، كما أن بعض أعضاء البرلمان

---

١ - Bodl. Lib., Vol. Clarendon to Woodhouse. 25, Feb. 1857.

٢ - كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب العربية، ص ٦٦٩

ترجمة : نبيه أمين فارس ومنير بعلبكي.

٣ - Aitchison, C.E.OP. Cit., Vol. X. pp. 74-78.

البريطاني كانوا يرون أن التوسع من شأنه أن يكلف الخزينة البريطانية مبالغ طائلة لا داعي لها، طالما أن التجارة البريطانية تستطيع شق طريقها بسهولة في هذه المناطق دون حماية عسكرية.

وعلى أية حال، فإن أوترام (Outram) لم يعلم بهذه المعاهدة حتى ٥ أبريل وعلى ذلك فقد تابع عملياته الحربية وأبحر من بوشهر في منتصف مارس على رأس قوة وتوجه إلى المحمرة لاحتلالها، وتمكن من أحتلالها قبل نهاية الشهر رغم المقاومة العنيفة التي لقيتها قواته[١] . ومن ثم تقدمت بعض القوات البريطانية وأحتلت الأهواز، وكانت هذه آخر العمليات التي قامت بها الحملة البريطانية، أذ أخذ أوترام بعد ذلك يجري مباحثات مع السلطات العثمانية لضم المحمرة إلى ولاية بغداد، كمكافأة لتلك السلطات على ما قدمته لقواته من مساعدات أثناء الحرب[٢] .

غير أن تلك المباحثات لم تسفر عن نتائج فعلية، إذ كانت بريطانيا قد وضعت المعاهدة مع فارس ووصلت أنباؤها إلى أوترام – وكان من شروطها انسحاب بريطانيا من الأراضي الفارسية فإنسحبت بموجب ذلك من المحمرة بعد حوالي ثلاثة أشهر[٣] . على أن الضعف والتفكك اللذين كانت تعاني منهما فارس جعلها عاجزة عن إدارة المحمرة وحمايتها من الاعتداءات المتكررة، وهذا ما جعل الشاه ناصر الدين، يرى أن من الأجدى منحها الاستقلال، حتى تكون منطقة حاجزة بين بلاده والعثمانيين – وبالتالي، فقد أصدر مرسوما في أواخر عام ١٨٥٧ يقضي بأستقلال المحمرة[٤] . وقد تم ذلك وفق شروط ألحقتها بحكم أسرة الحاج جابر بن مرداو مع أرتباطها بعلاقات وثيقة مع حكومة طهران[٥] .

ومما يجدر ذكره أن الحكومة الفارسية كانت ما تزال مصرة على ضرورة الحصول

---

١ – Gurzon, G.N: - Persia and the Persian Question Vol. 11, p. 619

٢ – حسين خلف الشيخ خزعل: تاريخ الكويت السياسي، ص ٩٩ ، ج ٣.

٣ – –صلاح العقاد (الدكتور): الاستعمار في الخليج (الفارسي)، ص ١٦١.

٤) عبدالواحد باش اعيان: زبدة التواريخ (مخطوط) ج ١٢، نقلا عن مصطفى عبدالقادر النجار : عربستان خلال حكم الشيخ خزعل.

٥) عبدالمسيح انطاكي: رحلة عظمة السلطان حسين في وادي النيل ص ٢٠٧.

على ضمانات من بريطانيا بشأن عدم توحيد الولايات الافغانية، إذ أن فاروق قد غادر باريس إلى لندن في محاولة لاقناع كلاريندون بالموافقة على هذه الضمانات، غير أنه لم يفلح في ذلك، وغادر لندن خائبا. وعلى ذلك بدأ الانسحاب الفارسي من هرات بموجب معاهدة باريس ١٨٥٧(١) .

وهكذا، يتضح لنا أن بريطانيا قد استطاعت فرض شروطها على الشاه رغم المعارضة الروسية بشكل واضح والفرنسيين بشكل خفي، تلك المعارضة التي لم تتجاوز حدود الاحتجاج الذي لم يؤثر في المخططات البريطانية الرامية إلى أبعاد أي خطر قد يهدد مّصالحها في الخليج، لما يمكن أن يؤدي إليه من تهديد لامبراطوريتها في الهند، وعلى ذلك، يمكننا القول بأن معاهدة باريس تلك كانت تمثل فرض شروط الغالب على المغلوب. وأما أهم نتائج هذه المعاهدة فقد تمثلت في عودة مري إلى طهران في ١٨ من يوليو ١٨٥٧، في استقبال رسمي مهيب، ومن ثم سحبت جميع الخطابات التي كانت قد أرسلت من فارس للبعثات الدبلوماسية تنال من سمعته.

ومنذ ذلك الوقت اتخذ النشاط البريطاني في فارس شكل النشاط الاقتصادي بصورة واضحة، في محاولة من بريطانيا لتجنب إثارة أية نزاعات سياسية مع فارس حتى تحول دون تطلع فارس نحو توطيد علاقاتها مع روسيا التي لم تكن تترك مناسبة إلا وأستغلتها في مد نفوذها تجاه المناطق الجنوبية من فارس.

وكدليل لحسن النوايا البريطانية تجاه فارس، فقد قررت الحكومة البريطانية في عام ١٨٥٩ نقل رئيس بعثتها في طهران مري نظرا لما كان يتصف به من بعد عن الدبلوماسية في تعامله مع حكومة طهران، مما كان سبباً في الاساءة لعلاقات بلاده مع فارس. وقد عينت بدلا منه الدبلوماسي المستشرق هنري رولنسون (Henry Rawlinson) فلقي ذلك ترحيبا من حكومة طهران.

وعلى ذلك ازدهرت العلاقات بين البلدين طيلة وجود رولنسون في طهران حتى عام ١٨٦٠، حيث أن السلطات الفارسية أعتبرت تعيين رولنسون صفحة جديدة في تاريخ

---

١ – حسين خلف الشيخ خزعل : المرجع السابق، ص ١٠٠.

٢ – رونالد ولبر : ص ٩٩ – ١٠٠

العلاقات الفارسية - الانجليزية[1]

على أن يتولى بالمرستون (Palmerston) لرئاسة الحكومة البريطانية، قد غير من هذه السياسة البريطانية، حيث عملت حكومة بالمرستون على تحسين علاقاتها مع روسيا، وفي سبيل ذلك، ثم نقل رولسنون من طهران لأنه كان يعتبر المحرض لفارس لمنع أمتداد النفوذ الروسي في أراضيها. وقد أستمرت هذة السياسة في عهد خلف بالمرستون اللورد رسل (Lord Russel) (١٨٦٥-١٨٦٦) واللورد دربي (Lord Derby) (١٨٦٦-١٨٦٨)[2]

ومما يجدر ذكره أن هذا التحول في السياسة البريطانية قد أثار استياء ومخاوف الحكومة الفارسية، إذ أعتبرت ذلك استسلاما من بريطانيا لروسيا، وهذا من شأنه أن يحرم فارس من مطالبها في مناطق التركمان وخاصة منطقتي نهري جورجان وأترك، على أن كل طرف بقي متمسكا بوجهة نظره، ولكن حكومة طهران لم تترك أية فرصة سانحة حتى تعلن مطلبها في السيادة على التركمان، فمن وجهة النظر الاستراتيجية فإن هذه المناطق تميل لفارس ولا تشكل شيئا آخر غير كونها منطقة حدود لفارس[3] .

وعلى أية حال، فقد استمرت العلاقات الفارسية - الانجليزية حتى نهاية القرن التاسع عشر يسودها التذبذب متأثرة بالعلاقات الانجليزية - الروسية. ومن ذلك ما نراه حين حصل البارون رويتر الانجليزي (Reuter Baron) على امتيازات اقتصادية كبيرة في فارس عام ١٨٧٢ مما أغضب حكومة بطرسبررغ التي استقبلت الشاه ناصر الدين في العام التالي بفتور جعله يدرك أستياء روسيا من منح تلك الامتيازات لشخصية أنجليزية، فألغى تلك الامتيازات، وعاد ليعيدها عام ١٨٨٩، وأتبع ذلك عام ١٨٩٠ بمنح شركة انجليزية أمتياز التبغ في فارس. غير أنه في الوقت نفسه منح بعض الامتيازات الاقتصادية لبعض الروس[4] . وقد كان ذلك مقدمة لتنافس بريطاني روسي شهده أوائل القرن العشرين في فارس مما أدى في آخر الأمر إلى تقسيمها إلى مناطق نفوذ روسية وأخرى بريطانية.

١ - Mikal Valadaisky: PP.80-81.

٢ - نفس المرجع PP.83-85

٣ - نفس المرجع السابق PP.77-78

٤ - رونالد ولبر : ص ١٠٠ وما بعدها.

المراجع

كتب عربية مطبوعة :

١ – ك. م. بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية، ترجمة : عبد العزيز جاريد، وزارة الثقافة والارشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر.

٢ – حسين خلف خزعل : تاريخ الكويت السياسي : ص ٣٥ – بيروت ١٩٦٢.

٣ – دونالد ولبر : إيران ماضيها وحاضرها، ترجمة : عبدالمنعم محمد حسين، القاهرة ١٩٥٨.

٤ – صلاح العقاد : الاستعمار في الخليج «الفارسي»، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة ١٩٥٦.

٥ – عبد المسيح الانطاكي : رحلة عظمة السلطان حسين في وادي النيل، القاهرة ١٩١٧.

٦ – كارل بركلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية، ترجمة : نبيه أمين فارس ومنير بعلبكي، دار العلم للملايين – بيروت ١٩٦٨ – الطبعة الخامسة.

٧ – كورنيلوف : الوثائق التاريخية حول حدود أقليم خرسان مع المقاطعات الروسية والأفغانية، موسكو ١٩٤٨

٨ – جون كيلي : بريطانيا والخليج – ١٧٩٥ – ١٨٠٠، الجزء الثاني، ترجمة : محمد أمين عبد الله، سلطنة عمان : وزارة التراث القومي والثقافة.

٩ – لوريمر : دليل الخليج العربي، الجزء الأول والجزء الخامس، ترجمة : المكتب الثقافي في الديوان الأميري بقطر ١٩٦٧.

١٠ – مصطفى عبدالقادر النجار : عربستان خلال حكم الشيخ خزعل، القاهرة ١٩٧٠

١١ – مصطفى عبدالقادر النجار : التاريخ السياسي لامارة عربستان، دار المعارف بمصر – القاهرة

١٢ – نوري السامرائي : محاولات التوسع البريطاني شمالي الهند في منتصف القرن التاسع عشر، «بحث غير منشور».

مراجع آجنبية :

I Unpulished Documents :

1 - India Office Record :

Letters and Despatches to India,
L / PXS / 5 / 559.
L / PXS / 5 / 489.
L / PXS / 5 / 353.

2 - Public Records Office :

F. O. 78 / 1162.
F. O. 60 / 226.
3 - Bodleian Library :
Clarendon Papers.

II Published Documents :

Aitchison; - A Collection of Treaties, Enagements, and Sanads, Relating to India and Neighbouring Countries. Vol. X. Appendix 10.

دوريات أجنبية :

III

Middle Eastren Studies; Vol. 19, November - January 1983.

Mikal Voldarsky, Persia and the Great Powers. 1856 - 1869

كتب أجنبية :

IIII

1 - Curzon, G.N. Persia and the Persian Question. Vol. II.
2 - Sykes Percy : A History of Persia, Vol. 2. Third Edition. London, 1969.
3 - Roger Parkinson : Ency of Modern Wars. Routiedge and Kegan Pul, London, 1977

ECONOMY AS A FACTOR IN LANGUAGE CHANGE

Dr. Darwish Al-Amadidhi

The various sides of a society such as the economy, politics, education, language etc. interact constantly to shape the society in the form that we see it at any particular time. The relationship among the different aspects of the society is similar to the relationship among a collection of interlocked gears within a winding watch. The movement of any one gear will set other gears in the watch in motion, albeit to different degrees. The same concept can be applied to society. Thus a change in any aspect of the society will be reflected in subsequent changes in other domains of the society.

In this paper we will look at some linguistic changes in Qatari dialect (hereafter QD) which occurred as the result of societal changes. Since the early fifties Qatar has been enjoying a boom economy due to the increase in oil revenues. Oil and the subsequent importation of modern technology that followed have left their mark on many aspects of life in Qatar, such as the changes in the family systems from an extended family system to a nuclear system(al-Easa 1980), the increase in population (al-Khayyat 1982), changes in attitudes (Melikian & al-Easa 1978), and changes in the patterns of education (al-Misnad 1985). Language is no different from other social dimensions and is affected by changes in other social aspects. It is subject to the same principle. As Ferdinand de Saussure said "time changes all things: there is no reason why language should escape this universal law" (quoted in Aitchison 1981:16).

Linguistic changes take on two different forms. "Some forms of linguistic changes may be relatively natural, in the sense that they are liable to occur in all linguistic systems, without external stimulus, because of the inherent nature of linguistic systems themselves.. Other types of linguistic changes, on the other hand, may be relatively non-natural, in the sense that they take place mainly as the result of language contact. They ....are not due to the inherent nature of language systems, but to processes that take place

in a particular sociolinguistic situation" (Trudgill 1983 :102).

The changes in QD that will be considered in this paper are not autonomous movements within the confines of a linguistic system but rather a complex response to many aspects of human behaviour. These changes belong to the second category in Trudgill's classification i.e. "non-natural changes". They must be examined within the broad social perspective. For language is ultimately a social phenomenon, and it is natural to look at the social environment in order to find plausable explanations to many linguistic phenomena. Speech serves a social function, both as a mean of communication and also as a vehicle through which one identifies oneself with groups and subgroups in the society. The study of language patterns without reference to the society which uses it is really excluding the possibility of arriving at a social explanation for the linguistic structures and forms that are used (Hudson 1980). Therefore nowadays it is commonly accepted that language and society are one unified whole which needs to be observed, understood and investigated as an inseparable unit; neither of them would exist in isolation from the other there can be no social man without language and no language without social man (Halliday).

We can divide linguistic changes that have occurred in the QD as a result of economic and social changes into the following:

A-The elimination of lexical items related to pearling,

B-Borrowing from English,

C-The influence of Standard Arabic.

<u>A - The elimination of words related to the pearling industry:</u>

Prior to the oil era the sea in general and the pearl-fishing industry in particular occupied an important position in the life of people living in Qatar, as well as in other Gulf countries .It had the same economic status, if not more, that oil enjoys nowadays. The historical importance of pearl diving is reflected in the following statement made by the ruler of Qatar in 1863 to the English traveller Palgrave:

"We are all from the highest to the lowest slaves to one master

'Pearl' said to me one evning Mohammed eben-Thani, chief of Bedaa All thought, all conversation, all employment turns on one subject; everything else is mere by-gone and below secondary consideration" (Morehead 1977:45 quoted in Melikian & al-Easa 1978:5).

Similar ideas are also expressed by al-Duwaik (1979:49) when he writes that

"a hundred years ago a traveller came to Qatar and said that people depend for their living entirely on the sea .They spend six months on the sea looking for pearls while the other half of year is spent in fishing or sea trading .Thus people's real homes are the infinite number of boats which fill the quiet harbour".

Thus the sea and all related activities, especially the pearl-fishing industry, were the centre of the economic and social structure of Qatari society. Such importance was reflected in the large number of lexical items related to the domain of pearling, as the following two sets of examples show. List "A" is different names of pearls while list "B" consists of names of crew members [1].

<u>List A "types of pearls" (al-Azzi 1983 : 19-20) :</u>

1-/d3i:wi:n/	"beautiful and it is fully round.
2-/ʃri:n/	"nice"
3-/9o:iwa/	"not round, half egg-shaped and flat on the back"
4-/badla/	"has clear colour but different shapes"
5-/yaka/	"the one"
6-/fas/	"good pearl tight in the oyster and removed by specialists"
7-/ṁad3hu:la/	"big pearl"
8-/ra:s	"biggest pearl in size"
9-/baTin/	"second to number 9 in size".
10-/xaʃin/	"fully round but small"
11-/tanbu:l/	"like tears in shape"
12-/xaʃra/	"group of pearls fixed to the inside of the shell"
13-/saHti:/	"small ones; not good"

14-/d3a:lis/	"has a base-like cushion on which it rests"
15-/baiDa:wi:/	"like the egg in shape"
16-/naxd3i/	"like beans"
17-/mu:ri:/	"like a tamarind"
18-/Tabli:/	"like a drum"
19-/robya:ni:/	"like shrimps"
20-/ʕadsi:/	"flat and small like lentil"
21-/ðe:l/	"third in size after 9 and 10"
22-/na:ʕim/	"group of pearls which are soft and nice but are weighed together because they are small"
23-/sinda:li:/	"good but it has what looks like decoration"
24-/sad3ni:/	"big pearl with decoration; sometimes as two pearls"
25-/moʃi:r/	"fully round with redishness. It is one of the best and rarest"
26-/zod3a:d3i:/	"shining white, almost transparent"
27-/ra:bʕa/	"fourth in size after 9, 10 and 22"
28-/omi we:na/	"has one decoration whether it is round or flat"
29-/ka:wu:ki:/	"unevenly round"

List B "Names of crew members":

1-/no:xiða/	"captain of the shjp"
2-/md3addimi/	"captain's assistant"
3-/banda:r/	"accountant"
4-/sku:ni:/	"the steering man"
5-/ɣe:S/	"the diver"
6-/si:b/	"diver's assistant "
7-/riDi:f/	"si:b's assistant"
8-/tabba:b/	"the boy or servant"
9-/nahha:m/	"the singer"

After the discovery of oil and the introduction of moder economic

structures, the pearl-fishing industry was completely abandoned, for the more profitable and less risky field of the oil industry .This transition from a pearl-based economy to the modern oil industry resulted in the elimination of a large number of lexical items from everyday usage of the language. They were words related to pearling. The loss occurred quite rapidly i.e. in the span of one generation. The extent of this loss is immense. In fact, in many radio and television quiz shows the younger generation are asked about words that 40 years ago were among the most frequent words in everyday life. Ironically many of them do not know the meaning of the words ,although their grandfathers could not live without them. Here are some examples of these words:

1-/he:r/	"the place where oysters are found"
2-/tisga:m/	"loan given to the divers"
3-/slifi:/	"a diver who takes loans from the merchant before the diving season starts"
4-/xamma:si:/	"a diver who does not take a loan before the diving season"
5-/gaffa:l/	"end of the diving season".

However, the loss of these words is not surprising. Elements of the linguistic structure, and mainly words and expressions, exist to meet the needs of people to communicate with one another. New items and expressions are introduced to meet new needs and functions just as the old-fashioned expressions and items are lost, because they appear to have lost their usefulness.

The process of lexical loss is an example of lexical innovation which reflects cultural change. Since change does not only mean the addition of new elements but also the elimination of certain previously existing elements and the modification or reorganisation of the others (Acholonn & Penfield 1980). The elimination process is an example of the strong link between language and the society.

Interestingly, words related to fishing such as :

-/Hda:g/	"fishing"
-/mi:da:r/	"hook"

-/yi:m/	"bait"
-/yanbir/	"to bite"
-/Hallali:/	"to catch two fishes at the same time"

did not disappear and are still an active part of the lexicon of QD. This is due to fact that fishing is still a well established activity in the society, either as a hobby or as a profession, whereas pearling simply does not exist.

The elimination of certain items and the retention of others show that economic facters are obviously very important in influencing the shape of the language at any particular time . The internal economic develpment of a country may very well involve shifts in the internal linguistic balance, sò that some elements are cancelled while new ones are introduced (Wardhaugh 1987).

B-Borrowing fom English: (2)

Borrowing is the transfer of an item from language X to language Y. In this case we refer to X as the donor language and Y as the recipient language This presupposes that the item in question has no equivalent in the recipient language. This is largely true although some borrowings occure for reasons other than a "gap-filling" function.

The term borrowing is somewhat a misleading word, since it implies that the elements in question are taken from the donor language for a limited period of time and then returned, which is not the case. The items are actually copied in the system of the recipient language, rather than borrowed in the strict sense of the term (Aitchison 1981).

The borrowing phenomenon is not confined to QD alone. It is evident in all languages. Every language must have borrowed from another language(s) at some time. Therefore we can say that just as no culture has evolved entirely in isolation, so there is no language that has not borrowed elements from other language(s). It is equally true to say that borrowing is not a new phenomenon in QD, nor is it restricted to the oil era. QD has witnessed borrowing from other languages, mainly Persian and to a lesser extent Urdu, as the following examples show :

-/xa:na/	"rank, position"	Persian
-/stika:na/	"tea cup"	Persian
-/hast/	"exist, available"	Persian
-/dirwa:za/	"door"	Persian
-/da:l/	"lentil"	Urdu
-/d3u:ti:/	"shoe"	Urdu
-/ku:li:/	"coolie"	Urdu

However the present post-oil borrowing is different from the previous process on two levels. On the one hand, the source of borrowing is different. Nowadays almost all the borrowings are from English, whereas they used to be from Persian and Urdu. Before the discovery and the production of oil in the 1940s Qatar and other Gulf States had considerable contact with the Persian coast and India, and contact is a necessary although not sufficient condition for movements of linguistic elements from one language to the other. Judging from the number of borrowed items from Persian and Urdu we can say that the influence of the Persian and Indian cultures on Qatari society was greater than the British impact during the pre-oil era. This is not to deny some British influence at that period. After all there are some English items in QD that are dated to the pre-oil period. Here are some examples :

-/land3/	"boat , launch"
-/d3a:lbu:t/	"jolly boat"
-/baTin/	"a type of pearl, from the word button"

The other difference between the old and the new borrowing is the extent of borrowing. Hundreds of English words and expressions entered QD as the result of the introduction of modern technology which was triggered off by oil and the subsequent wealth that followed. Similar penetration of English into other Arabic dialects may have occurred for other reasons such as colonization. These items are related to various aspects of life.Here are some examples from certain domains :

a - House-hold equipment :

-/tilfizyu:n/	"television"
-/re:dyu:/	"radio"
-/fre:zar/	"freezer"

b - Oil industry :

-/rig/	"rig"
-/bitro:l/	"petrol"
-/o:bik/	"Opec"

c - Medical services :

-/dokto:r/ /daxtar/	"doctor"
-/ne:rs/	"nurse"
-/isbe:ta:l/	"hospital"

d - Transportation :

-/taksi :/	"taxi"
-/ba:S/	"bus"
-/dre:wal/	"driver"

e - Machinary :

-/hidil/	"handle"
-/de:nema/	"dynamo"
-/ge:r/	"gear"

f - Sports :

-/ko:rnar/	"corner"
-/baskitbo:l/	"basketball"
-/go:l/	"goal"

However borrowed items did not flow into QD as the result of a planned process. This is because borrowing is largely an unconscious mechanism and that is why it is difficult to observe it directly, except in cases when loan words are linked to historical events or are

introduced by a decision from an authority with power to enforce its implementation.[3] (Fabian 1 982).

Looking at the borrowed items in the QD we notice that the great majority of them belong to the noun class. This is quite natural since detatchable elements are most liable to borrowing and are commonly taken over from the donor language. Bynon puts forward this idea clearly when she writes :

"with regard to which lexical classes are susceptible to borrowing, it is generally claimed that members of the open classes (nouns, verbs, adjectives) are more readily borrowed than those of closed classes (pronouns, conjunctions, prepositions) and that nouns are the most frequently borrowed class everywhere. This distribution could however be to some extent simply a reflection of the overall sizes of the classes concerned and of the fact that the great majority of borrowed words are names of new objects or materials" (1977:231).

The second noticeable point is that the borrowed items are assimilated phonologically and syntactically to different degrees to fit in with the structure of the QD. Speakers are generally not aware of the distortion they impose on the borrowed words when they use them in everyday language (examples will be mentioned later).

Borrowing takes on various forms and fashions. On the level of phonological / morphological modification we can distinguish the following types. There are items which undergo phonological substitution at the phonemic level. Thus when a speaker is using a borrowed English word there is a well attested tendency to assimilate the English segments towards equivalents in the QD. The substitution needn't be the nearest in acoustic terms, but rather ones that occupy a similar contrastive position in the sound system of the recipient language (Gibbons 1987). In the case of borrowing in the QD the very obvious case is the change of English phonemes /p/ and /v/ into /b/ and /f/ or /w/ respectively, and the change of vowels to their nearest equivalents in the phonological system of the QD. Here are some examples :

borrowed word	modifications
-/wilf/ "valve"	the initial /v/ is changed into /w/ and the final /v/ into /f/.The vowel is changed from /x/ into short high front unrounded /i/.
-/ e:k/ "cheque"	the phoneme / tʃ/ is changed into / ʃ /."
-/le:t/ "light"	the diphthong /ai/ became monophthong /e:/.
-/binalti:/ "penalty"	/p/ is changed into /b/.
-/fu:l / "full"	the lax vowel /ʊ/becomes long high back rounded /u:/.

However there are a few borrowed items that retain their original pronunciation although they contain sounds which are not part of the phonological system of the QD. For example the word "video" is not pronounced as /fi:dyu/ as expected ,but as /vi:dyu/. The same applies to the car brand name "Volvo". It is pronounced /vo:lvo/. A third example is the word "visa" which has retained its original pronunciation. These items are very low in number and therefore must be looked upon as exceptional cases. But if the number increases they might have some influence on the phonological system of the QD. In other words they might force a phonemic split of the phoneme /f/ into /f/ and /v/.

At the opposite end we have items which entered the QD with no change at all or very minimal change in the vowel quality. This is due to the fact that their original pronunciation fits in with the phonological system of the QD. Here are some examples:

-/bank/	"bank"
-/ke:k/	"Cake"
-/indiks/	"index"
-/fre:m/	"frame"
-/fail/	"file"

A further type of borrowing may be referred to as "loan blends" (Appel & Mysken 1987). It means that a hybrid form is made of two parts, one of which is borrowed while the other one is native

Examples of loan blends in the QD are:

1-/daftar	ʃe:ka:t/	"cheque book"
2-/ ʃari:T	alvi:dyu:/	"video cassette"
3-/d3iha:z	kombiyu:tar/	"computer machine"
4-/boli:Sat	ta?mi:n/	"insurance policy"
5-/boli:s	alnd3da/	"rescue police"

In examples 1, 2 and 3 the first part of the blend is Arabic while the second part is English. Thus the words /daftar/, / ʃari:T/ and /d3iha:z/ mean "book", "cassette" and "machine" or "set" respectively. In examples 4 and 5 the opposite is true. Here the second part of the blend is Arabic. Thus /ta? mi:n/ means "insurance" and /nad3da/ is "rescue".

The last type of borrowing on the phonological / morphological substitution is "loan translations" or "calques". They are sometimes referred to as "loan shifts". In this type of borrowing the meaning, whether simple or composite is imported but the forms representing that meaning are native. This type is placed at the extreme end of the borrowing scale because they bear no resemblance in their phonological structure to foreign words on which they are based. They involve the translation of morpheme for morpheme or word for word. The loan translations in the QD retain their English syntactic and semantic values but the morphemes and words of which calques are formed are Arabic. Here are some examples:

the calques	explanation
-/la:silki:/	/la:/ means no and /silkl means "wire", thus the tow mean "nowire" or "wireless' .
-/ ahr il asal/	/ ahr/ means month and / asal/ is "honey". Thus we have "honey month" or "honey moon".
-/Ha:ris almarma:/	/Ha:ris/ is "keeper" or "guardian". /marma:/ is goal. So the configuration of the two words means "goalkeeper".
-/Darba rokniyya/	/Darba/ means "a kick" and /rokn/ is "corner", thus the two items give us "corner kick".

These examples illustrate that borrowing may involve levels of syntax and semantics without involving pronunciation at all (Hudson 1980).

From the derivational perspective we can divide the borrowed items into two categories. On the one hand there are items that are only used as one part of speech, mainly noun. The majority of loan words come under this group. This is because most of the loan words are names of objects. For example words like :

-/aryil/	"aerial"
-/mo:tar/	"motor or car"
-/bo:y/	"boy or servant"

are only used as nouns and related verbs, infinitives or verbal nouns, active and passive participles are not derived from these words. The only usage of these items in the QD is as nouns, whether singular or plural.

The other category, on the other hand, includes words that undergo a full derivational process. The number of words in this category is quite small. This is due to the fact that nouns are the most frequently borrowed items from one language to another. For example the word "finish" has been borrowed into the dialect as a verb /yifanniʃ/ which means to quit a job or to terminate someone's service. But many related items have been derived from the word "finish" as following:

-/yifanniʃ/	"to quit a job"	"verb"
-/tafni:ʃ/	"temination of a job"	"infinitive"
-/mofanniʃ/	"person who terminates someone's contract"	"active participle"
-/mfannaʃ/	"person whose contract is terminated".	"passive participle"

Another example of this type of loan words is the word "cancel" which is mainly used as a verb but other parts of speech can be derived from it as well, as following :

-/yikansil/	"to cancel"	"verbn
-/mkansal/	"is canceled"	"passive participle"
-/mkansil/	"he canceled"	"active participle"
-/tikinsil/	"to cancel"	"infinitive" .

At the semantic level we can distinguish two types of borrowing: general and specific. Items in the general category are used to refer to all members of the class in question just as speakers do in the donor language i.e. British and Americans. To illustrate the point let us look at the word /le:t/ "light". This word is used in the QD to refer to all type of lights, regardless of the purpose, domain of usage or the material of which the object is made. For example the same word is used to refer to table lamps, car lights, bulbs and light. The general type includes items which serve a gap-filling function in the lexicon of the QD. In other words, when these loan items were borrowed into the dialect there were no native equivalents and they therefore were generalised to all domains . Other examples would be /fre:m/ "frame", /le:t/ "light", /kart/ "card" etc.

The other category i.e. specific, however, refers to items which have entered the QD and are used in one particular context. In other contexts an eqivalent native word is employed. This is because the loan words were borrowed in relation to that specific context. We may refer to this type as "semantic specialisation". These items definitely do not work as a gap-filling device.For example words like:

-/a:yil/	"oil"
-/si:t/	"seat"
-/swi:tʃ/	"key"
-/le:san/	"licence"

are only used when the discourse is about cars. Other native items are used in other contexts .The native equivalents are:

-/dihin/, /ze:t/	"oil"
-/kirsi:/	"seat, chair"
-/mifta:H	"key"
-/roxSa/	licence"

Thus if the discourse is about cooking or treatment the word /a:yil/ is not used but instead the word /dihin/ or /ze:t/ is employed. Likewise, when we talk about a key of a drawer, cupboard, home, bedroom, store etc the borrowed word /swi:tʃ / is not used, instead the native item /mifta:H/ is employed. Similar points could be made about the relationship between /si:t/, /le:san/ and /kirsi:/, /roxSa/ respectively.

Finally we can classify borrowing from English on the level of usage into two kinds. Certain items pervail across the whole society .In other words all members of the society need and use them either because they refer to commodities or because they do not have Arabic equivalents, such as /tilflzyu:n/ "TV", /balak/ "plug" etc. Other items are ,however, restricted in their usages. They are "professional borrowings" and are employed among the professionals in a particular field. Most of these items are terminologies or technical words such as "linguistics", "phoneme", "holding company", "draft" etc.

The professional borrowing occurs for two reasons. On the one hand, the speaker, especially if he is trained in West, may find it easier to fill the gap, as it were, by inserting the English word in the middle of his utterance, rather than think of the Arabic equivalent. On the other hand, he may simply use the English word to give an English flavour to his speech and thus aquire a certain degree of social prestige.

Factors responsible for borrowig from English are diverse and interact with one another. Firstly, the flow of the linguistic materials from one language to another follows the route of development of civilization. In other words, the more advanced countries will export technology and commodities to the less advanced ones; simultaneously they export part of their language as well. In this respect language borrowing is a form of cultural borrowing. At the present time English has more to offer than Arabic has, thus English vocabularies have penetrated Arabic language and dialects. This is to say that "the paths of lexical borrowing reflect to a certain extent the path of cultural influence" (Zughoul 1978:220) [(4)].

Secondly, English is the international language at the presesnt

time as shown from the following statistics. English is the most widely spoken language in the world. It is the official language in 25 countries and co-official in another 17. The nearest rival is French which is the official language in 19 and co-official in 9 countries. In the world of trade and commerce the dominance of English is unquestionable. The English speaking countries are responsible for one third of the world's national product (French speaking countries for one-fifth)(Wardhaugh 1987). When it comes to writing and publication, English is again dominant. For example it has been reported that 88% of all articles in "Science Citation Index" are in English and recent data indicate that the trend is consistent (Grabe 1988). New titles and books are not different; one-fifth of all new titles are books published in English (French counts for one-twelfth) (Wardhaugh 1 987).

These facts demonstrate that it would be extremely difficult to keep up with current scientific activities without knowing English or having immediate access to a good translation from English. Therefore, at the present time most languages, not only Arabic, are under the influence of English [(5)].

Thirdly, with the introduction of the oil industry and the increase in the number of foreign expatriates in Qatar, the use of some form of English as a lingua franca became common. Because of the factors mentioned above, speaking English or attempts at speaking English gradually took on a certain prestige value. Borrowing selected English terms, words or phrases to be used among Qataris in a Qatari speaking context became related and associated with modern and progressive ideas and attitudes. Thus English was used more and more by those with a modern drive. They looked at English for new vocabularies. It was inevitable that English loan words would penetrate the everyday QD. The introduction of English in the schools on regular bases and the exposure to English while studying in Britain or in U.S.A. enhanced the borrowing process and made English increasingly popular.

Fourthly, most of the loan words serve as gap-filling devices. It is natural that when a country imports a product for which it has no ready made word, the country would import the name of the object too. This is, however not to deny that some English words have

entered the dialect for other purposes like talking about taboo subjects and areas, as in words "sexy", "sex", "toilet" which sound less vulgar than their native counterparts.

Finally, the Protection Treaty which Qatar signed with Britain in 1916 had definitely its impact on the course of future development of the country. It obviously directed Qatar towards English speaking countries especially Britain.

However, no particular factor can be selected per se and made solely responsible for borrowing from English. But interaction among all these factors is an important element. Of course some factors like the Protection Treaty and the fact that English is the major language of science at the present time have played more infuential roles than other factors .

C - The infuence of Standard Arabic :

All Arab countries are characterised by diglossia as described by Ferguson (1959). In these countries two modes of speech are used for communication; High code (H) is used for writing or formal interactions and Low code (L) is employed for informal purposes. Prior to the oil era diglossia in the true sense of the word was limited to a small number of people in Qatar, because of the high level of illiteracy among the Qataris. In other words the majority of people were monolingual. They had an active command of the L code only, although they could understand the H code when used by others. The diglottes were the elite who had access to and could afford basic traditional education with clergymen "Motawa".

After the discovery of oil and the widespread availability of formal education more and more people developed an active competence in Standard Arabic i.e. H code. The first formal school for boys was opened in 1951 and in 1956 for girls. In 1989 the total nubmer of schools was 178 equally divided between the two sexes.

The introduction of a formal educational system is a crucial factor in the emergence of a true diglossic community, since in all such communities the H code is only aquired non-natively i.e. via the educational process. Thus with the spread of education, a wider sector of the community became diglottes. In fact the younger generation are expected to be educated or at least to be able to read

and write. This means that they are exposed to the influence of the H code in all forms of written materials.

With the spread of the H code, an interesting case of linguistic competition between the Standard Arabic and English has emerged. Arabic has been trying hard to replace the English loan words in the QD. The result of the competition can be divided into the following:

a - Successful repelacement :

In the first period that followed the introduction of the oil industry in Qatar, many English words entered the QD as names of objects or institutions. With the spread of formal education and mass media Standard Arabic words replaced the foreign elements. The successful cases are largely due to the fact that the English borrowed items are localized and are not used outside the Gulf region in places like Egypt or the Levant area.In those countries the equivalent Arabic word is used. When the Egyptians and the Palestinians started to arrive in the country in mid 1950s they were looked upon as the elites of the society since most of them worked as clerks or teachers. Therefore the locals followed their suit in using the Arabic words rather the nativized borrowed words. Thus nowadays people use the Arabic replacements; the English loan items do not appear except occasionally in the language of the older generation. Here are some examples:

English loan words		Arabic replacement
-/o:f/	"off"	/idʒa:za/
-/isbe:ta:l/	"hospital"	/mostaʃfa:/
-/ste:ʃan/	"station"	/markaz/
-/ʕambalu:ns/	"ambulance"	/isʕa:f/
-/kombani:/	"company"	/ʃarika/

b - Semi-successful replacement :

Some English items entered the QD as a gap-filling device i.e. they had no equivalents in Arabic at the time of borrowing. However, due to efforts of the Arabic language academies equivalent Arabic words were coined and advocated via the educational system, mass media and other government institutions. Gradually the newly coined words aquired popularity and were used alongside the English

words. They have not yet completely replaced the foreign items and whether they will eventually do so or not remains to be seen. Thus at the present time there are sometimes two words, one Arabic and one English, which refer to the same entity. Examples of this category are:

English loan word		Arabic equivalent
-/dokto:r/	"doctor"	/Tabi:b/
-/tilifu:n/	"telephone"	/ha:tif/
-/ne:rs/	"nurse"	/momarriDa/
-/kinde: ʃan/	"air condition"	/mokayyif/
-/a:yil/	"oil"	/ze:t/

c - Unsuccessful repelacement :

The majority of the English loan words are included under this type. These are items which prevail in most of the Arabic dialects and for which the language academies have coined Arabic equivalents, but these equivalents are never used in reality. They are so rare that a layman may not know what they mean. The failure may be due to fact that government institutions do not use the Arabic equivalents themselves and thus they are not emphasized frequently enough, whereas the English words are constantly used and reinforced. Another factor is the availability of more than one Arabic equivalent for a single loan word such as /Ha:su:b/, /alHa:sib/ which mean "computer". This could also be due to the fact that coining a word would not guarantee its usage by native speakers. Academies cannot force people to use the Arabic equivalents instead of the English loan words. A detailed investigation of why the majority of coined words have failed to replace the loan ones is beyond the scope of this paper which is rather descriptive. Examples of the unsuccessful replacemant are:

English loan words		Arabic equivalent
-/bre:k/	"brake"	/ka:biH/
-/ge:r/	"gear"	/toru:s/
-/aryil/	"aerial"	/hawa:?i:/
-/sba:na/	"spanner"	/mafak/
-/ra:dyu:/	"radio"	/mi ðya: ʕ/.

In this paper three areas of language change in the QD have been investigated to show that the final shape of a language is not purely a linguistic matter; but rather that many non-linguistic elements, directly or indirectly, are involved in making the language what it is at any particular time.

The process of the elimination of certain categories of vocabularies, mainly those related to pearling, and the introduction of others in the QD is tied to changes in the economic pattern of the society which triggered off subsequent societal changes. The changes in the QD show that the link between language and society is very strong and that the process of language change is no more than a reflection of changes in some aspects of the society because social pressures are continually exerting an infuence upon the language, and because society is an integrative unit therefore its various parts must change in the same direction if the integration is to be kept.

Notes :

1 - The phonetic transcription follows the IPA system except for the velarised sounds which are represented with capital letters and the low back vowel which is represented as /a/ "short" or /a:/ "long".

2 - The aim of this paper is not to find or discuss the procedures of identifying loan words but rather the phenomena associated with the transfer of linguistic items across language boundaries from one language to another.

3 - An example of this would be the introduction of the word "intifada" meaning "uprising" into the English language after the uprising of the Palestinian people in December 1987.

4 - Many Arabic words entered the English language when Arabs were the leading civilisation such as "admiral", "zero", "alcohol", "algebra" etc. The language penetration could be quite deep and may take on a form of imperialism (see Fasold 1984 : 10).

5 - Similar tendencies are also reported in many other countries, such as Japan (see Stanlaw 1987) and West Germany (see Berns 1988).

<u>References :</u>

1 - Acholonn & Penfield (1980): Linguistics Process of Lexical Innovation in lgbo.
Anthropological Linguistics Vol.22, pp 118-130.

2 - al-Azzi, N. (1983): konuz almathaf al-Qatari
Treasures of Qatar Museum
Ministry of Information & Culture, Qatar.

3 - Aitchison, J.(1981) :" Language Change: progress or decay"
Great Britain, Fontana.

4 - Appel R.&Muysken (1987): "Language Contact & Bilingualism"
London, Arnold.

5 - Berns, M. (1988): The cultural and linguistic context of English in West Germany. World Englishes, Vol. 7, No. 1, pp 37-49.

6 - Bynon , T. (1983) : "Historical Linguistics"
Cambridge. CUP.

7 - al-Dowaik, M. T. (1979): "al'oghniya al-shaabiya fi Qatar" Folk Songs in Qatar
Part 1, Doha, Doha Modern Press.

8 - al-Easa, J. (1977) :" attahdith fi lmojtama alQatari almoasir"
Modernisation in Contemporary Qatari Society
Kuwait, Kadhma Company for Publication and Translation.

9 - Fabian, J . (1982): Scratching the Surface: Observations on the Poetics of Lexical Borrowing in Shaba Swahili.
Anthropological linguistics. Vol.7, No. 1, pp 15-50.

10 - Fasold, R. (1984) : "The Sociolinguistics of Society"
Oxford, Blackwell.

11 - Ferguson, C.A. (1959): "Diglossia" Word Vol. 15, pp 325-340.

12 - Gibbon, J. (1987): "Code-Mixing and Code Choice: a Hong Kong Case Study" Clevedon, Multilingual Matters.

13 - Grabe, W. (1988): English, information access, and technology transfer : a rationale for English as an international language. World Englishes. Vol. 7, No. 1, pp 63-72.

14 - Halliday, M.A.K. (1978): "Language as Social Semeotic: The social interpretation of language and meaning" London, Arnold.

15 - Hudson, R.A. (1980): "Sociolinguistics" Cambridge, CUP.

16 - al-Khayyat, H. (1982) : "arrasi:d alsokkani fi dowal alkhali:j al'arabi" Population Balance in the Arabian Gulf States. Qatar, Gulf Establishment for Publication.

17 - al-Misnad, S. (1985): The Development of Modern Education in the Gulf.
London, Ithaca Press.

18 - Melikian, L. & al-Easa, J. (1978) : Some predictions about the Qatari family.
Unpublished paper, University of Qatar.

19 - Qatar (1989-90) : The Annual Statistics Report Ministry of Education.

20 - Stanlaw, J. (1987): "Japanese and English: borrowing and contact" World Englishes, Vol. 6, No. 2, pp 93-109.

21 - Trudgill, P. (1983) : On Dialect : "Social and Geographical Perspectives". Oxford, Arnold.

22 - Wardhaugh, R. (1986): An Introduction to Sociolinguistics Oxford, Blackwell.

23 - (1987) : "Languages in Competition". Oxford, Blackwell.

24 - Zughoul, M. R.(1978) : Lexical Interference of English in Eastern Province of Saudi Arabia.
Anthropological Linguistics, Vol. 20, pp 214-225.

A CRITICAL STUDY OF CRUSOE'S MIND AND CHARACTER

Dr. M. Habib Siddiqi

Daniel Defoe's Robinson Crusoe is considered as the most important precursor of the English Novel or even as the first English Novel. Literary critics have discussed the character of Robinson Crusoe from different literary perspectives. The purpose of this paper is to examine Crusoe's attitude towards business, religion and non-Europeans in its historical context. These three elements of Crusoe's character are inseparably linked to each other and are therefore essential to an appreciation of Crusoe's mind and character. His attitude towards business and religion is motivated by practical considerations. He exploits non-Europeans for his own advantage and in his discriminating treatment he is supported by religious beliefs. The following discussion of three principal traits of Crusoe's character will help us to understand Crusoe's mind and character and enlighten us about the prevailing trends of the Eighteenth-Century.

Crusoe's character has been interpreted differently by various critics. To Ian Watt, Crusoe is an embodiment of economic motive, a reverence for book keeping and the laws of contract are the marks of Crusoe's pesonality.(1) Maximillian E. Novak goes a little farther and considers Robinson Crusoe as an illustration of Defoe's own economic concepts.(2) Crusoe, to Novak, is not only an economic man. If economics be taken as the only trait and pursuit of Crusoe's character, then the account of his adventure will become dull, localized and uninteresting to his readers. Besides being an economic man, Crusoe, says Novak, has a romantic temperament. I think Novak is right, because it is the romanticism in Crusoe's temperament which keeps him going in his adventures and also maintains the interest of a reader from beginning to end.

Crusoe's adventurous life begins with the dissatisfaction of his routine. His father wanted him to be a lawyer and stay in the "middle station" of life to which they belonged. Crusoe's restlessness was partly due to his longing to go to sea and partly due to his dissatisfaction with his "middle station" of life.(3) In his thinking Crusoe is not an isolated Englishman; on the contrary, he represents

the ideals of British society of that time. It was a time when the Bank of England and the South Sea Company were founded. The Royal Africa Company and the East India Company were moving out into the remote areas of the world. Naturally Crusoe's desire to make his fortune through sailing and trading was quite representative of the spirit of his age. Michael Shinagel remarks:

"... Defoe employed the colonial theme as a means of showing his middle - and lower - class readers how they could better their fortunes, regardless of their ancestry or birth, through industry in the already established colonies in America, specifically Virginia and Maryland." (4)

Crusoe, in the beginning, turns out to be an unfortunate sailor and tradesman, but shipwrecks and slavery do not keep him from his ambitions. He is not the type of man who could be easily persuaded to give up his plan by misfortune; on the contrary, these hardships and his helplessness become a driving force in his case. He has the temperament of a well disciplined merchant whom loss or set-back does not crush but whose endurance and patience are thereby augmented. These setbacks contribute to his wisdom and prepare him for future challenges.

Crusoe never neglects any opportunity for investment and trade. In Brasil, in addition to exploring other possibilities for making money, he carefully examines the plantations, land, and the laws of the country :

"I lived with him some time, and acquainted mayself by that means with the manner of their planting and making of sugar; and seeing how well the planters lived, and how they grew rich suddenly, I resolved, if I could get license to settle there, I would turn planter among them, resolving in the meantime to find out some way to get my money which I had left in London remitted to me. To this purpose, getting a kind of letter of naturalization, I purchased as much land that was uncured as my money would reach and formed a plan for my plantation and settlement..."

(RC, P. 55)

Crusoe, no doubt, inherited his business-like and practical attitude towards life from his family. To settle down as a planter in Brasil, it is necessary to acquire property and obtain a legal license, He exploits the situation to his full advantage and begins to think of his future prospects as a successful planter.

Cruose is the sole survior of the unfortunate shipwreck. Though the vessel is filled with water, he finds the food stuffs dry and brings all the salvageable items to the island. He lives on this deserted island by means of his practical ingenuity. His living, management of the resources on the island, and his insight into even the most mundane details of day to day life are clear expression of his business instincts. Though he calls money a "drug" and "nasty, sorry, useless stuff" (RC, p. 75) he does not throw the money away but rather wraps it in a piece of canvas and saves it for the future.

Robinson Crusoe's life as an active business man begins when he arrives in Lisbon after having lived on the island for more than twenty-eight years. He begins his life over again, from scratch, inquiring about the state of his plantation in Brasil and attempting to renew his old business contacts. He learns that his plantation is still flourishing and receives from its profits over five thousand pounds in sterling silver. Thereafter, he sells his share of the plantation and settles down in England.

Crusoe's attitude towards nature is also businesslike. He exploits the island only for his sustenance and comfort and experiences no aesthetic delight from its scenic beauty. He is only concerned with the improvement of his land and has no leisure to observe that the island offers a beautiful landscape. Crusoe's sole delight comes from surveying his goods : "I had everything so ready at my hand" and "that it was a great pleasure to me to see all my goods in such order and especially to find my stock of all necessaries so great" (RC, p. 86).

When he was in the "Island of Despair" he always prayed for his deliverance. But after his deliverance, and on coming back to his home, he is not prepared to forget the investment he has made in the island. Besides its nostalgic association for him, the island is connected with his business motives. He writes :

"Besides this I shared the island into parts with 'em, reserved to myself the property of the whole, but gave them such parts respectively as they agreed on; and having settled all things with them, and engaged them not to leave the place, I left them there".

(RC, pp. 298-90).

Crusoe, in his attitude towards trade, is amazingly practical and farsighted; his frugal investments have brought him a substantial return. He is a successful businessman and his adventures, to use the words of Ian Watt, symbolize the virtues of "individualism" and

"absolute economic, social and intellectual freedom for the individual.".(5)

Despite the frequent religious meditations in Defoe's novel, one senses that it would be false to take the purpose of the novel or even its principal interest as being religious in nature. Intuitively judged, the novel seems secular, more immediately and more constantly concerned with man's worldly satisfactions than with his duty toward God under the guidance of religion. The religious aspect of the work does not so much strike us as false or hypocritical as it does matter-of-fact and close to irrelevant. William Halewood considers that religion in Robinson Crusoe". gives the book its structure, justifies its length and method, contributes to its air of authenticity, provides emotional complexity and depth, and enlivens its language".(6)

Defoe was not only a puritan, but an active and public one who suffered for his beliefs. He wrote a defense of his fellow-believers called the Shortest Way with Dissenters, that so offended the defenders of the state religion that he was condemned to public punishment in the stocks and then to imprisonment. Thus Defoe proved the sincerity of his beliefs. At the same time, Defore's career in politics, business and jornalism strikes us today as self-seeking and opportunistic. His very novels seem to have little purpose but to make money by serving the tastes of middle-class readers with stories of adventure and of success. So Defoe himself seems to embody the paradox of Puritanism.

So too does his first novel, Robinson Crusoe. Midway through the novel, Crusoe, after a long examination on whether religion permitted him to kill without warning or provocation the cannibals who came to the island, ends by observing that, should be try to kill them and fail, they might kill him. His comment is, "Religion joyned in with this prudential... me" (RC, p. 179). Religion throught the book has a way of agreeing with the safety and the comfort of Crusoe. It is true, that Crusoe's initial imprudence in going off to sea without his father's permission is viewed by him and is meant to be so viewed by us, as willful disobedience to the will of God, that these misadventures are meant to lead him into repentance of his sin and into the mercy and loving-kindness of God, and that his final prosperity is evidence of God's care for him; all this is true, but it is also true that despite this spiritual drama, Crusoe's character as such does not seem to change at all from one part of the novel to the other, whether he be in a state of sin, of repentance, or of grace.

It would be unfair, however, to Defoe to leave the matter at this point. There is one more point to make. A main part of the action of the novel depends on Crusoe's being shipwrecked on the island as God's way of bringing him to repentance and salvation. In several passages in the novel, Defoe achieved a kind of grandeur of vision; in which the absolute power and majesty of God are celebrated. It is difficult, because of their length, to quote any one of them, but the careful reader would do well to read, say, the passage begining at the bottom of page 140 "... I had now brought my state of life... next to miraculous" (RC, pp. 140-44). Here the Puritan sense of the marvellous care and grace of God for an unworthy man, a sinner like all men, the care of God extending from the greatest displays of power (like the great storms at sea) to the most intimate of kindnesses, is well-expressed. It is unlikely that a hypocrite would pen these lines. If the intensity of religious feeling seems less in Defoe and the concern with material success greater than in the works of his puritan predecessors, that intensity of feeling is yet far from absent. This may seem the mark of a hypocritical religious belief, despising riches yet labouring to achieve them, but to the Puritan, there is nothing hypocritical or contradictory in this.

The harshest, most disagreeable note in Defoe's novel is the attitude of Crusoe towards non-Europeans. It is just because this attitude is so unpleasant that it is interesting to us, for it promises to help us understand the foundations of British Imperialism that were being laid at the time the novel was written. There is no question but that the attitudes expressed by Crusoe are those of the author as well. We know enough of Defoe's own political career as an agent of the Prime Minister who made the treaty giving Great Britain its slaving rights, Sir Robert Harely, to be sure he was in agreement with British policy, It is, furthermore, clear that Defoe in showing his casual sense of superiority, to non-Europeans counted on his readers' sympathy, even to the point of making "native" humor one of the interests of the novel.

Let us look at four aspects of the novel before trying to come to some conclusion : the humorous use of language to characterize non-Europeans; the discrimination practiced by Crusoe; Crusoe's expectation that other peoples should serve him; and his reflections on "nationality".

The first of these seems harmless, but it is not. the problem lies in the fact that both Xury and Friday speak very bad English indeed. In

Xury's case, perhaps the surprising thing is that he speaks English, for we are told that Crusoe had no fellow-Europeans to talk to while he was at Sallee. One should expect that he and his fellow slaves would speak Turkish or Arabic or Berber, some language, that is, used in the Maghreb. Yet Xury speaks bad English in talking with Crusoe. Friday, of course, spoke no English when he first met Crusoe. Yet, after some three or four years of constant conversation in English, his English is no better than Xury's. Yet other foreigners, Europeans like the Portuguese sea-captain, speak perfectly good English.

Now language is one mark, a most important mark, of the equality of human relations. That Defoe presents Xury and Friday thus, making humorous use of their bad English, has the insidious effect of making us see them as somehow inferior to Crusoe and to Englishmen generally.

The second thing to note, if only briefly, is another instance of Crusoe's discrimination. In the episode beginning on page 233, where Crusoe, after having determined not to interfere in the cannibalistic rituals of the Indians who come to the island, changes his mind suddenly and does interfere, the cause of his interference is that one of the victims is a European. There is some abstract justification that might be made out for this, on the basis of Crusoe's theory of nationalities, but this would be too weak to explain the strength of Crusoe's reaction. Friday's announcement that one of the victims is a European "fired all the very soul within" him. He "was filled with horror at the very naming the white bearded man," who he saw plainly was "an European, and had clothes on." This sort of thing shows sharply Crusoe's real sympathy for Europeans, whatever he might say in calmer moments.

The third thing we have mentioned is difficult to elaborate. All one can do is to point out that it never occurs to Crusoe to accept a relation of equality with non-Europeans. He works deliberately to inspire them with awe and expects, as a matter of course, that they should be willing to sacrifice their lives in his service.

Finally, the fourth thing to observe is that Crusoe's theory of nationalities, though not racist, seems to see the bulk of "native" peoples as evil and deserving of God's punishment. It is true that he leaves it to God to punish them, but the expression of the theory is designed sharply to limit our sympathy with them. In the following passage Crusoe goes on to observe :

"... we did not know by what light and law these should be condemned; but that as God was necessarily, and by the nature of His being, infinitely holy and just, so it could not be, but that if these creatures were all sentenced to absence from himself, it was on account of sinning against the light ..."

(RC, p. 212)

Thus whereas Crusoe himself is in the special care of Providence, these people are seen by him as being literally God-forsaken.

To conclude, Crusoe is a shrewd businessman and his attitude towards religion appears to be a paradoxical relationship between a serious religious life and great worldly success. One wants to say that in Crusoe one has a look at the last stage of the Puritan mind before it degenerates completely, as it was about to do, into the godless, empty and self-satisfied mentality of the materially successful, middle-class westerners that followed.

Besides disagreeable traces of national intolerence and colonialism, what disturbs us more is the unselfconscious and even pious feeling that Crusoe expresses that he and his fellows are somehow chosen by God to dominate others and that they somehow show themselves worthy of this election by their benevolence and good nature. Defoe's attitude is less refined and high-handed than that of later Englishmen up to the time of Rudyard Kipling (and after), but the difference is not one in kind. The nakedness of the attitude shown in the novel helps us to see clearly what British imperialism was from its beginning.

NOTES

1. Ian Watt, The Rise of the Novel: Studies in Defoe Richardson and Fielding (Berkeley and Los Angeles: University of California Press, 1967), p. 67.
2. Maximillian E. Novak, Economics and the Fiction of Daniel Defoe (Berkeley and Los Angeles: University of California Press, 1962), p. 49.
3. Daniel Defoe, Robinson Crusoe (Harmondsworth: Penguin Books Ltd., 1981), p. 28. This book has been cited internally and appears as RC
4. Michael Shinagel, Daniel Defoe and Middle-Class Gentility (Cambridge: Harvard University Press, 1968), p. 132.
5. Ian Watt, "Robinson Crusoe" in Daniel Defoe: A Collection of Critical Essays ed. Max Byrd (Englewood Cliffs: Prentice-Hall, Inc., 1967), p. 52.
6. William H. Halewood, "Religion and Invention in Robinson Crusoe"in Twentieth Century Interpretations of Robinson Crusoe ed. Frank H. Ellis (Englewood Cliffs: Prentice-Hall, Inc., 1969), p. 86.

SELECTED BIBLIOGRAPHY

Byrd, Max (ed). Daniel Defoe: A Collection of Critical Essays. Englewood Cliffs: Prentice-Hall, Inc., 1976.

Defoe, Daniel. Robinson Crusoe. Harmondsworth: Penguin Books Ltc., 1981.

——————Robinson Crusoe (ed). Michael Shinagel. New York : W.W. Norton and Company, 1975.

Ellis, Frank H.(ed). Twentieth Century Interpretations of Robinson Crusoe. Englewood Cliffs: Prentice Hall Inc., 1969.

Novak, Maximillian E. Economics and the Fiction of Daniel Defoe. Berkeley and Los Angeles: University of California Press, 1962.

————————Defoe and the Nature of Man. Oxford : Oxford University Press, 1963.

Shinagel, Michael. Daniel Defoe and Middle-Class Gentility. Cambridge: Harvard University Press, 1968.

Sutherland, J. Daniel Defoe: A Critical Study. Cambridge: Harvard University Press, 1971.

Rogers, Pat. Robinson Crusoe. London: George Allen & Unwin, 1979.

Watt, Ian. The Rise of Novel: Studies in Defoe, Richardson and Fielding. Berkeley and Los Angeles: University of California Press, 1967.

Culture and Language in Second and Foreign Language Teaching

Dr. Michael Byram

I will try to do three things in this paper:

- to begin what I consider to be the necessary development of a theory of cultural learning for language teachers - whether involved in second or foreign language teaching.
- to demonstrate how research and theory in second language or bilingual/bi-cultural situations can be usefully linked with foreign language teaching in schools.
- to suggest that cultural learning must become a more explicit and structured part of foreign language teaching if it is to have the positive effects on pupils' attitudes and perceptions which are vital in any society which wishes to belong to the international community.

I start from the position that foreign language learning is and ought to be an integral part of cultural learning. It is integrated with cultural learning because the language learnt - unless it is merely a codification of learners' first language - refers to a reality within and beyond learners' existing experience. It ought to be integrated whenever language learning is a part of general education - usually at secondary school level and beyond - where foreign language teaching contributes to learners' personal and social development as young people growing into a society which itself is part of an international community.

I distinguish foreign from second language learning in a number of ways. A second language is one which is acquired in an environment where it is spoken as a medium of communication between people who are either first or second language speakers. Some examples are as follows: migrant workers arriving as adults in a new country or second-generation children of immigrants who meet the second language when they start school or children brought up in bilingual families or students going to a foreign university or school pupils learning some of their school subjects in a second language. The last two examples indicate however that the distinction between second and foreign language learning becomes blurred at the edges.

Another dimension of the distinction is psychological. A second language has a different role in the identity of the learner. Second language learners - most of whom can be described as 'natural bilinguals' find themselves in situations where their social identity, i.e.

their sense of belonging to a social group, is not a simple phenomenon. It is made complex by the fact that learning a language is acquiring a culture, which in turn becomes part of the individual's identity. It becomes an inseparable part of the self. Indeed the individual cannot exist as a human being without a cultural identity. For the bilingual, however, the simplicity of belonging to one culture and to one social or ethnic group is not available. The complexity of belonging to two or more in differing degrees and through differing relationships is a function of acquiring more than one language. Let it be said, however, that this phenomenon is far more frequent in the world than the simplicity of monolingual and monocultural communities.

What does this tell us about the foreign language learner? First of all, it reminds us that the foreign language learner brings to the classroom an existing cultural identity, acquired with the first language, which is an integral part of the self. This suggests that the learning of another language and culture involves not just the acquisition of linguistic skills but also a modification of learners' sociocultural identity and an expansion of learners' perceptions of reality as lived by people in other societies and cultures. This is a statement of what necessarily is the case when a foreign language is learnt other than as a codification of the first language. It is also a statement of a philosophy of language teaching which says that such modifications and expansions of learners' identities and perceptions ought to be among the purposes of foreign language teaching.

* * *

This initial statement of my position has opened up a lot of questions and I propose now to explore some of them in greater depth. I intend first to explain more precisely what I mean by cultural learning. I will then relate this to some of my research on bilingual or minority education and the question of cultural or ethnic identity. Finally I will return to the foreign language classroom and the issue of the influence of foreign language teaching on learners' perceptions of other cultures. This too will be supported from my research.

First, then to the question of cultural learning. One often used phrase is misleading. To speak of "the acquisition of culture" is to imply that we acquire an object which exists independently in an 'objective' reality, or that we learn certain skills of social behaviour. It implies that culture and individuals are separable and that each individual has to acquire the object or skills - or at least a part of them. To study the acquisition of culture by young children would mean, from this perspective, first of all defining a culture and then analysing the process of acquisition.

I would like to present a different view. The acquisition of culture is not separate from the psychological development of the child but is, rather, one and the same as that psychological development. When we observe the development of the child as a social being we are in fact observing the process of cultural acquisition. Culture is not an object but a part of the subject. One well-known definition of culture makes this clear.

A society's culture consists of whatever it is one has to know or believe in order to operate in a manner acceptable to its members. Culture is not a natural phenomenon; it does not consist of things, people's behaviour or emotions; it is rather an organisation of these things. It is the form of things people have in mind, their models of perceiving, resisting, and otherwise interpreting them.

(Goodenough, 1964 : 36)

"The organisation of things", "the form of things people have in mind" are the product of the acquisition process, although that process is never complete and the products under continuous change. In addition, however, the mind itself is not an independent organiser; it creates an organisation of things but is itself formed by this organisation, which is common to all members of a specific community of individuals. In order to understand this mutual influence, we need to consider human development both phylogenetically and ontogenetically, to look at the development of human beings as a species and at the development of each individual human being.

Seen from a phylogenetic viewpoint, the human species developed culturally and biologically simultaneously and not, as we might think, first by developing a mind which then invented culture. Following Geertz (1975), the mind is "a certain set of dispositions of an organism" which in human beings has developed through the interaction with culture and natural phenomena:

The apparent fact that the final stages of the biological evolution of man occurred after the initial stages of the growth of culture implies that 'basic', 'pure' or 'unconditional' human nature, in the sense of the innate constitution of man, is so functionally incomplete as to be unworkable. Tools, hunting, family organisation and, later, religion and 'science' moulded man somatically; and they are therefore necessary not merely to his survival but to his essential realization.

(Geertz, 1975 : 82-3)

The development of the human mind cannot be separated from the historical development of human culture. And this phylogentic development is paralleled in the ontogentic development of the

individual. A similar point is made by Midgley, who also introduces the notion of instinct: "man is innately programmed in such a way that he needs a culture to complete him. Culture is not an alternative or replacement for instinct, but its outgrowth and supplement" (1980 : 286). Instinct is what most resembles the fundamental nature of human beings but it is not accessible in any 'pure' form. The individual's general cultural potential is realised by exposure to a particular culture - a parallel and integral development to the particular linguistic realisation of the individual's potential for acquiring a language. This means that the particular culture and its language will stamp the individual indelibly, will be an inseparable element of the individual's nature. This view is supported by work in cognitive anthropology, which suggests that the limitations of a particular culture and language circumscribe the conceptual development of individuals belonging to the cultural community (Quinn, 1985; D'Andrade, 1984).

In developmental psychology, it is Vygotsky and his followers who have studied the ontogenetic process of cultural learning. The child's potential is realised when it comes into contact with others, and a major part of this interaction is linguistic. It is through using linguistic and other signs that the child acquires meanings and gradually recognises the meanings of signs he has already used in social interaction without full recognition of their significance. 'External' culture, in the sense of shared meanings and patterns of behaviour, is 'internalised' because of the child's innate disposition to fulfil an incomplete potential. This does not mean that the internal system of cultural meanings is simply reflections of the external system. The internal system has, according to Vygotsky (1971 : 57) its own laws, and semiotic webs of meaning are created which enfold individuals. As Geertz puts it : "man is an animal suspended in webs of significance he himself has spun; I take culture to be those webs ..." (1975 : 5).

These webs of meaning have been analysed in various ways - routines, schemata, scenarios - which I shall not describe here. A 'schema' is the cognitive construct or configuration we impose on experience in order to understand it. Briefly, the analysis of cultural schemata, i.e. the shared interpretations of experience common to a social group, is simultaneously an analysis of the means by which the individual makes sense of his own experiences. The cognitive development of the child is the process of acquisition of schemata through interaction with others, the acquisition of schemata which we shared with all those who belong to a particular cultural community. That cognitive development is however also a continuous process of modification of already acquired schemata, i.e. a continuous changing of the subjectivity or cultural identity of the child. The child

internalises the shared schemata of a cultural community and thereby becomes a social being. The culture thus has an objective existence in the sense that it is common to many individuals; it is a commonly developed part of the subjectivity of the members of a particular community. This is however the only objectivity culture has. There are objects which express culture often in art or technology - and there are behaviours which conform to culture, but these are secondary phenomena which depend on culture for their meaning and existence.

What then is the position of individuals who are bilingual and bicultural? What happens when children are brought up in an environment where there are people who belong to two cultural communities? As the child develops, its contact and interaction with others goes through a number of stages. Its social space is extended and it acquires new schemata as old ones are modified. It leaves the home and family and enters into contact with friends and social institutions. From direct experience, it moves to vicarious experiences - through television, books and other media. As it acquires the beliefs, values and knowledge of its environment and negotiates and discusses them with others, its cultural schemata are under continuous change and extension.

Now among these schemata, there are certain specific ones which give the child the feeling that it belongs to a specific cultural group. He shares them with others and they serve to reinforce and circumscribe the group adherence (Taylor 1971; Barth, 1969). The group may be ethnic, political, religious or other, and the individual usually belongs to several. Many schemata are shared by different groups, but each group feels the need to establish its own identity by separating itself off in some respects from others and developing its own group - specific schemata. This causes breaks in communication between cultural groups because certain views and beliefs are used deliberately or unconsciously to separate the particular group from others.

A child which grows up surrounded by two groups is thus open to strong pressures. It can accept many schemata without any problem, because they are common to both groups. On the other hand it experiences schemata which are mutually exclusive. It is not merely a question, however, of rational selection of one set of views rather than another, for we are here speaking of the formation of identity, of the cognitive and also affective development of the child. It is not a question of choosing between two external options, but of an interactive process in which the child is pulled in opposing directions. Often it is the entry into school which marks the first major tension in the child's life and in bilingual and bicultural communities the way in which the school is organised is extremely significant.

The consequences of growing up among the tensions of a bicultural community can be seen most directly in children's accounts of their own identity. It is about the age of 9 - give or take 2 years - that children become aware of their group identity, of the notion of belonging to a nation or to an ethnic group. (I shall leave aside the question of the relationship between nationality and ethnicity). In my research in Brussels some years ago, I had occasion to talk to children aged 11 or 12 who were of Italian origin living in Belgium. Some were second generation and still spoke a lot of Italian at home; others were third generation and spoke mainly French. All of them had however been put in an experimental bicultural programme which aimed to maintain their Italian identity in some way. The consequences were sometimes alarming. Children felt confused. They said such things as "je me sens bien plus italien; mais ici, ca me dit d'etre belge et italien, quand je suis ici" or: "avant, quand j'etais la (en Italie) - pour venir en Belgique, j'avais envie de venir en Belgique; et maintenant que je suis en Belgique j'ai envie de rentrer en Italie" or

"je suis sicilienne ... belge aussi; j'aime pas tellement qu' on me dit que je suis belge parce que ... je sais pas pourquoi". Some parents made similar statements, "Bien, disons que c'est difficile; on a pris toutes les habitudes d' ici, mais c'est difficile de dire si on est belge a cause de ca, comme il est difficile de dire qu' on n'est pas belge non plus; puisque tous les enfants sont ici; alors on est ni l'un ni l'autre; ici on est etranger et chez nous on est etranger aussi".

This feeling of belonging nowhere is one which I suspect affects many people living in and between two cultures. I found the same thing on another occasion when researching in the border area between Denmark and Germany. Here the children were older and had begun to clarify their own thinking and feelings. For them there was at least one place where they felt at home in the border area, i.e. between the two countries.

"for me the feeling of being tied is really like this; because I really have no fatherland or whatever ... because in Germany I always still feel a little Danish and in Denmark I feel quite clearly German - and here is simply the only place where we really belong".

(Byram, 1986 : 99-100)

In both Belgium and Denmark, the school plays an important role in developing a bicultural identity. In Brussels, the curriculum contained lessons in Italian, both as a subject and as the language for teaching other subjects, such as mathematics, religion and so on. In Denmark, the schools were entirely German in their use of the German language for all subjects except a few lessons in Danish. In both situations, however, the presence of teachers who were themselves

from the minority group and who embodied the values and cultural schemata of the minority, was the most important factor in the attempt to maintain a bicultural or minority ethnic identity.

* * *

I turn now to the question of foreign language teaching. What light does this discussion of cultural learning and bicultural identity throw on foreign language teaching? I said that bilingual children often meet their first new phase of cultural development when they enter school. This is often called secondary socialisation, coming after the phase of primary socialisation in the family. When children enter secondary school it is often at this point that they begin to learn a foreign language. When they meet a foreign language it is usually the first time that they have, formally and in a structured way, been introduced to a culture other than the one or ones in their immediate environment. It is at this point that a new phase of their development can begin - what might be called a phase of 'tertiary socialisation' - when they may be exposed to the values and schemata of a new culture by beginning to learn the language of that culture. It is open to the teacher to decide how much the links of language and culture shall be made explicit and visible to the learners.

This broadening of cultural horizons is often claimed to be one of the main educational justifications for foreign language teaching. I will quote just one such claim:

Foreign language study ... offers insight into another culture and as such is concerned with the human and social areas of experience. Throughout the course pupils can be encouraged to view the familiar from a different angle, not least in terms of people's behaviour, and thereby widen horizons and break down feelings of insularity. (HMI, 1985: para. 52).

Viewing the familiar from a different angle and breaking down feelings of insularity may be brought about in the confrontation of the schemata of one culture with those of another. For example, perceptions of what is edible in one culture often differ from those of another. English people usually consider snails to be inedible - although they are eaten in France - and French people do not eat turnips, which they consider suitable only for giving to cows. Yet the English do eat turnips.

The question then arises whether this confrontation does in fact break down feelings of insularity, the perceptions which separate one ethnic group from another, and do in fact make people more understanding of each other. This is a question which we have addressed in a major research project over the last four years. We have

investigated two main questions:

- do learners have a more accurate and differentiated view of French daily life after learning French?
- do they have a more positive attitude towards French people after learning French?

The investigation was carried out in two schools where we used a number of techniques for gathering data:

- giving pupils attitude tests
- interviewing pupils informally about their views of French life
- observing French lessons and analysing textbooks and the image of France they portray
- collecting information through questionnaires about pupils' visits to France and abroad, family connections with foreign countries, perceptions of France in the public media and so on.

We tested 400 pupils and interviewed 200. We observed lessons for a whole school year. We carried out both qualitative and quantitative analysis.

The results are impossible to summarise in a paper of this length. I can simply take one aspect - if there is time - and describe it in isolation.

Part of the project was devoted to describing just what does happen in classrooms between pupils and teachers. How do teachers "tell" about France. What is it that pupils remember? Do teachers have a particular plan or a specific method for telling? Four teachers were observed throughout one year with one of their classes. Our purpose was to describe the variety, not to evaluate the differences, for we need first to know what happens before we can even think about doing it better.

Before the variety, let us remember what the four teachers and classes had in common. They were all third year secondary classes with the same subject on their timetable, "French". They were all using the same textbook. All the pupils had studied French compulsorily since entering comprehensive school, although the allocation of time in the past had varied and one of the classes had, in the third year, less time allocated than the other three. All the classes were in principle preparing for the same examination, although some pupils would choose not to continue in the fourth year. The four teachers all stated a belief in the importance of learning about French culture as a fundamental part of their subject. They expressed variously the notion that cultural knowledge or information should have a beneficial effect on attitudes and uaderstanding in the longer

term and, in the short term, also helps to make lessons more attractive and interesting. Finally, as we shall see, the four teachers were differently qualified, but they had in common experience of visiting France on a number of occasions and in similar circumstances: they had all been involved in school visits and exchanges which had taken them into French families and French schools.

Some had wider and more experience than this but this was a common minimum. Against this background we turn to the different approaches, each given a label for convenience.

The first approach we called 'academic', to summarise the combination of characteristics observed. The dominant ethos was of a subject to be taught under some pressure of time - this was the class with a lower allocation than others - to a group considered to be the highest achievers in their year. Time was spent on exercises on language structures; there was rapid progression through the textbook; homework was given regularly and pupils expected to take responsibility for handing it in. The activity of language learning was carried out in serious ways, with little role-play and no games or drawing etc.

Despite the emphasis on language, a considerable amount of cultural information was provided, as the opportunity arose from the textbook. The information was often anecdotal, referring to the teacher's own experience, and went beyond the scope of the textbook. For example the teacher was observed to talk about military service and the police force in France, the system of car registration numbers and the regions they refer to, and the system of discipline in French schools. When information from the textbook was used pupils were asked to read a section for homework and then asked factual questions about it later.

The second approach, called the "survival approach", arose with a group of lower ability. Unlike the previous teacher who was a graduate in French, this one had a qualification in art and was teaching French as a consequence of her own enthusiasm for France and ability in French. She preferred to teach 'less able' classes partly because this meant she could spend more time on teaching about the country, for she found 'pure' language teaching uninteresting.

In this approach lessons were characterised by a relatively large amount of information presented in the spirit of the textbook which stresses preparing pupils for visit to France as tourists, advising and warning them of possible difficulties. A variety of teaching materials was used, including video-recordings, documents and the like brought from France and narration of the teacher's own experience as a tourist. French was frequently used by the teacher in the classroom, including

the giving of instructions and other aspects of lesson management. In essence the approach can be described as 'practical' and 'instrumental' with continuous stress on the notion that pupils will need the linguistic and cultural knowledge in order to 'survive' a visit to France.

The third approach, dubbed "language enjoyment", takes us back to a style with a high achieving class. Where the "academic approach" is future-oriented, concerned with preparation for examinations, and humour is rather part of the teacher-pupil relationship than a teaching technique, in the "language enjoyment approach" the orientation is more towards the here and now, to appreciating and understanding language and having fun in the lessons.

Lessons were characterised by variety and flexibility in techniques, which involved games, drawing and role play, as well as gramar explanations and exercises. Pupils were encouraged to enjoy themselves, for example in introducing humour into scenes played out and recorded on video. Lessons might be changed on the spot to suit the humour of the class and the teacher, despite plans for other activities. In short, the subject was presented as interesting in itself in a class which was keen to learn and willing to work.

Cultural information was not a major part of the lessons. The teacher would spontaneously add some of her own information to what occurred in the textbook, but briefly. This may be accounted for by the teacher's view of the purpose of this information: that children should be taught to accept differences but that there is not specific body of knowledge which must be conveyed. A second reason for this approach was mentioned by the teacher herself who was in fact qualified in German rather than French and, though she had been to France on school visits and exchanges - both as pupil and teacher - she had less experience than the other three.

The fourth approach is also language-dominated and there are some common characteristics in the style, called 'the language skills approach'. This teacher too was qualified in German rather than French and had far more and wider experience in Germany than France.

The class involved in the "language skills approach" was also comparable to that in the "survival approach": they were both considered to contain pupils of average or below average ability. Nonetheless the uniqueness of each class and teacher - and therefore of each style - remains the significant fact. Lessons were characterised by stress on language learning or skill in using language and recall of vocabulary, which were often tested. The dominant techniques were those suggested by the textbook, which include many games and role-plays. The textbook was dominant also with respect to what

cultural information was supplied and the teacher did not offer personal interpretations and anecdotes in the way that was done in the "survival" or "academic" approaches. On the other hand cultural information was often compared to pupils' own experience, and talk about culture was sometimes introduced by pupils' questions.

In an interview after the period of observation this teacher said she thought there are certain topics of cultural information which she always tries to include although not in a pre-planned way. She implied that the choice is influenced by what pupils find interesting: school life, food, television, shopping and the prices of goods. She includes them because "they are interested - they are always curious about other people", but she does so on opportunist basis:

"They love that. They'll listen to that but that is enough. Just tell them about that and then go on with the rest of the lesson, and if something else crops ... It's bitty but they build up their own picture."

The purpose of our research was to find out whether they do in fact build up their own picture, and how. The full report includes accounts of pupils' "picture" of France, of the sources of their information, of the influence of parents, siblings, the media etc, of the role of teaching French and of the links between The purpose of our research was to find out whether they do in fact build up their own picture, and how. The full report includes accounts of pupils' "picture" of France, of the sources of their information, of the influence of parents, siblings, the media etc, of the role of teaching French and of the links between teaching styles and pupils' knowledge of France. The conclusion of the report is that the effect of language teaching is "disappointing but scarcely surprising". It is disappointing in view of the widely held assumptions about the positive effects of teaching on insights and attitudes and the genuine efforts of teachers to realise these assumptions. It is scarcely surprising because of the overwhelming power of extra-school influences creating ethnocentric views in children from a pre-secondary age. It is unlikely that a few hours of French can counteract such influences unless there is a structured and rigorous attempt to do so, and yet observation shows that teachers' efforts are usually incidental to their concern with other matters and remain unstructured and haphazard. I believe that our case-studies are in this respect representative of many others.

What shall we do to improve the situation? Our project can contribute directly in three ways. First we shall make our findings available in a research report (Byram, Esarte-Sarries and Taylor, in press). Second, we are now researching one of the most important periods of teachers' own cultural learning - the Year Abroad. Third we shall publish a book based on our research (Byram and Esarte-Sarries,

in press) which will help teachers to think about their own cultural studies teaching and begin to develop the more structured and rigorous approach which will be more successful in fulfilling the aims expressed in the quotation I gave earlier to which we all, I suspect, subscribe without knowing quite how to attain them.

I am aware that much of what I have said is eurocentric and I hope that by expounding my ideas in a culture which is quite new to me, they will be refined and developed - and my own tertiary socialisation expanded.

References

Byram, M. (1986) Minority Education and Ethnic Survival, Clevedon, Avon: Multilingual Matters.

Byram, M., Esarte-Sarries, Y. and Taylor, S. (in press) Cultural Studies and Language Learning: a Research Report. Clevedon, Avon: Multilingual Matters.

Byram, M. and Esarte-Sarries, V. (in press) Investigating Cultural Studies in Foreign Language Teaching: A Book for Teachers. Clevedon, Avon: Multilingual Matters.

D'Andrade, R.G. (1984) "Cultural meaning systems". In R.A. Shweder and R.A. Levine (eds) Cultural Theory, Cambridge: CUP.

Geertz, C. (1975) The Interpretation of Cultures, London: Hutchinson.

Goodenough, W.H. (1964) "Cultural anthropology and linguistics". In D. Hymes (ed), Language in Culture and Society, New York: Harper and Row.

HMI (1985) The Curriculum from 5-16. London: HMSO.

Midgley, M. (1980) Beast and Man. The Roots of Human Nature. London: Methuen.

Quinn, N. (1985) "'Commitment' in American marriage: on cultural analysis". In J.W.D. Dougherty (ed) Directions in Cognitive Anthropology, Urbana: University of Illinois Press.

Vygotsky, L.S. (1971) Mind in Society, Cambridge, Mass: Harvard University Press.